الإسلام دين اللّه

للامام المجدد السيد محمد ماضي ابوالعزائم

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع

شارع بورسعيد

تليفون المكتبة / 3901030 022 002

بسم الله الرحمن الرحيم

فـــاتحة الكتـــاب

الحمد لله، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، كما شهد لنفسه، وشهدت له ملائكته، وأولو العلم من خلقه، ولا إله إلا هو العزيز الحكيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده المنتخب ورسوله المرتضى، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وعلى آله الأئمة الراشدين، المطيعين لله، القوامين بأمره، العاملين بإرادته، الفائزين بكرامته، وعلى صحابته الهادين المهتدين، ورضى الله تبارك وتعالى عن الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم، ونضر الله وجه خليفته الأول السيد أحمد ماضى أبى العزائم.

أمـــا بعـــد:

فتقدم (دار الكتاب الصوفى) التابعة لمشيخة الطريقة العزمية الطبعة الثالثة من كتاب: "الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها " فى هذه الظروف العصيبة، والأزمات العنيفة التى تحل بعالمنا الإسلامي، وتأخذ بتلابيبنا وتهدد كياننا، كورثة دعوة وحملة رسالة خالدة خاتمة، وبناة حضارة في المشرق والمغرب لا يمكن تجاهلها والغض من شأنها، بل لابد من الاستجابة لها والسير على ضوئها إذا شاء الله لهذه الإنسانية التعسة الحائرة التى تتخبط فى دياجير الفتنة، وتتجاذبها أمواج الإلحاد والإباحية، وتنوء عليها لتلفظ آخر أنفاسها ثمرة للحضارة المادية التى عمت العالم كله حين وقف تيار المد الإسلامي، وانحسرت عنه ظلال رحمته الوارفة، وتعاليمه السمحة، وأخوته الحانية، ودولته الرحيمة العادلة .

إن المسلمين هم المسئولون وحدهم ــ دون غيرهم ــ في بناء هذا المجتمع الذي أغوته الرأسمالية، وأنهكته الشيوعية، ودمدمت عليه الأفكار الضالة، وهدمته العقول غير المعصومة.

وليس أمامنا لدرء هذا الفساد إلا بالعقيدة التى ترتكز على أن الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها، فهو الدين الواقى الكافى لكل محاولات الرأسمالية والشيوعية والصهيونية وغيرها من المبادئ والأفكار التى تريد هدم الكيان الإسلامى وبث روح التحلل بين المسلمين.

ونظرة إلى الهزات العنيفة التى يتعرض لها الإسلام كدين فى هذه الأيام من جراء طغيان المادة من جهة، ومن طفرة العلوم الكونية المادية من جهة أخرى .

لكل ذلك رأت مشيخة الطريقة العزمية أن الحاجة ماسة إلى إعادة طبع هذا السفر الجليل "الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها " .

وهذا الكتاب يحوى فى الباب الأول منه تعريفا بالدين، وحكمة اختصاص الإنسان بتحمل الأمانة، وأن الدين عند الله الإسلام، وحكمة إنزال الكتب السابقة . وفى الباب الثاني يتضمن أصول الدين الإسلامى، ويدور هذا الباب حول أبحاث أربعة :المبحث الأول فى العقيدة التى يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها والمبحث الثانى فى صفات الله تعالى، وهى :الوجود والقدم والبقاء ومخالفته للحوادث وقيامه تعالى بنفسه والوحدانية، وكذلك صفات المعانى السبعة وهى :القدرة والحياة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام .والمبحث الثالث فى علوم القرآن .والمبحث الرابع فى النبوات . كما تناول الإمام رضى الله عنه وأرضاه فى الباب الثالث العبادات، وينقسم هذا الباب إلى فصلين : الفصل الأول في التعريف بالعبادة وأقسامها من علم وعمل، وواجب ومندوب، وعن الغرض من العبادة، أما الفصل الثانى فيتناول بيان العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج .

وفى الباب الرابع يحدثنا الإمام ﷺ عن المعاملات، ويقصر هذا الباب على معاملة النساء، آداب عشرتهن، ويبين أن الزواج فرض مع الحاجة، وسنة مع الكفاية، كما يبين لنا أن النساء على أوصاف النفس، ويرشدنا إلى العدل بين الأزواج، وأساس المعاملة والسلوك بين الزوجين، وحكم الطلاق .

وباستقراء هذه الأبواب والفصول والمباحث نجد أن الإمام ﷺ يقرر أن الإسلام ليس دينا جديداً بل إنه الدين عند الله، وأنه فطرته التى فطر الناس عليها، فرضاً ومجموعاً فى كل مكان وفى

أى زمان، لأنه يتضمن اعترافاً من العقل والوجدان بأن للكون خالقاً ومدبراً حكيماً، وبهذا الاعتراف يكون كل ذى عقل من البشر راضياً بطاعته .

إن هذا الكتاب يكرم المرأة، ويرشد الناس جادا إلى النهج الأقوم لحل قضايا المرأة الاجتماعية بصورة واقعية وعملية .

وهو يوضح ويقرر ويؤكد أن دين الإسلام يغنينا عن كل دستور للحياة من وضع البشر، وأنه العروة الوثقى التى يجب أن تمسك بها في وسط هذا العالم الذى اشتدت فيه عواصف الفوضى العقائدية، وفسدت فيه القيم الروحية ،وأنه المخرج الوحيد من المأزق الذى وقع فيه العالم الآن من جراء اتباع المذاهب القصيرة النظر للإنماء الاقتصادى .

هذا هو كتاب :(الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها) أرجو أن يكون فيه ﴿ بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

أتوجه إلى الله أن ينفح قارىء هذا الكتاب بنفح منه ،وأن يطيب أنفاسه بعطر الرضا، وشذا القبول، لينعم بهذا السفر الجليل من آثار الإمام أبى العزائم .

فمرحى بالإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم وهو يدعو الناس فى كل زمان ومكان بدعوة الإسلام الخالدة ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢) .

ومرحى بدار الكتاب الصوفى وهى تؤدى واجبها نحو المسلمين فى كل مكان بنشر هذا التراث الإسلامى، وأسأل الله أن يصدق فينا قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : (مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجاديب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ...))

---

(١) سورة إبراهيم آية ٥٢.
(٢) سورة فصلت آية ٣٣ .

وأحب أن أنوه بجهد الأخ قنديل عبد الهادى الذى قام بمراجعة تصحيح الكتاب، فله مـــنى الشكر، ومن الله عظيم الأجر .

والله سبحانه وتعالى هو الموفق الهادى إلى سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، واعطنا الخير وادفع عنا الشر ونجنا واشفنا يارب العالمين .

دار الكتاب الصوفى

٨ ربيع الثانى ١٤١٣ هــ — **الخليفة الثاني**

٥ أكتوبر ١٩٩٢ م — **السيد عز الدين ماضى أبو العزائم** عليه السلام

التماس الطبعة الأولى
الخليفة الأول
السيد أحمد ماضى أبى العزائم عليه السلام

غرة جماد الأول ١٣٤٠ هـ – ٣١ ديسمبر ١٩٢١ م

الحمد لله الذى تفضل علينا بأن جعلنا من أمة حبيبه ومصطفاه، وأكرمنا سبحانه بدوام أنواره المحمدية لنا وفينا، فهو ﴿ ﷺ وآله﴾ خاتم الرسل حقا، ولا تزال معجزاته تترى إلى أبد الآبدين، وأنوار شمسه المحمدية تشرق فى كل حين . وكيف لا ؟ ونحن فىآخر الزمان يجدد الله لنا وبنا ما خفى من أنوار العلوم، وما اندرس من آثار أئمة الهدى، حتى نرى أننا فى عصر السلف الصالح رضى الله عنهم، الذى كان مشرقا بأنوار النبوة، وأسرار الفتوة، وأحوال الأئمة الهداة، كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾: (أمتى هذه أمة مرحومة مغفور لها، لا يدرى أولها خير أم آخرها) .

وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فضلا لله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(١) . والصلاة والسلام على الشمس المشرقة فى كل زمان، التى إذا غابت عن أفق أظهرت أنجمها المضيئة بنورها ،فاستبانت بهم الحجة ووضحت بهم المحجة .

وبعد، فيقول الخديم المسكين أحمد ماضى أبو العزائم : إنى لما نشأت من نعومة أظفارى فى حضانة سيدى و والدى الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم، متمتعا بسماع الحكمة، نمت فى نفسى همة الخدمة العامة، فظهر لى أن أنفع شيء أقوم به هو نشر تلك الأسرار العلمية، والحكم النبوية، بين إخوتى المؤمنين حفظا لآثار سيدى الوالد عليه السلام.

---

(١) سورة المائدة آية ٥٤ .

وبعد أن طبعت كتاب : (الإسلام وطن) وكتاب : (الإسلام نسب) اشتاقت نفسى أن أتمم طبع الكتب الثلاثة الجامعة لأسرار الشريعة الإسلامية، فالتمست من سيدى الوالد ﷺ، أن يأمرنى بطبع كتاب : (الإسلام دين الله) [1] فشرح الله صدره لطبعه، فاجتهدت لضبطه وتصحيحه، وسألت الله تعالى أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه الكريم، وبرا بوالدى وسيدى أطال الله عمره .

وها هو الكتاب قد أعان الله على تمام طبعه، جامعا لما كان عليه سلفنا الصالح من العقيدة الحقة، والعبادة المطلوبة، والمعاملات المحمودة، لتبتهج به نفوس أهل الإيمان، حتى يكون المتأخر مع المتقدم، بل ونكون جميعا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، بنص قوله تعالى :﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ... ﴾ [2] إلى آخر سورة الفتح .

فإن الله تعالى أثبت لكل متصف بتلك الصفات معية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وليس بيننا وبينه ﴿ ﷺ وآله﴾ بين، وإنما هو عزيمة على التشبه بالأئمة، فإقدام على العمل، فاتصال به ﴿ ﷺ وآله﴾، حتى نكون من أهل العزائم، وكلنا نتوجه إلى الله تعالى أن يطيل لنا عمر السيد الوالد، وأن ينفع بعلمه وينشر طريقه فى سائر البلدان، وأن يحفظ هذا النور المشرق لنا وبنا إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) تطلب جميع مؤلفات الإمام أبي العزائم من مكتبة دار الكتاب الصوفي التابعة لمشيخة الطريق العزمية – ١٤ ش مجلس الشعب – القاهرة.
(٢) سورة الفتح آية ٢٩.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله، بدور الهدى، وبحور الندى، وبعد، فيقول خديم الفقراء محمد ماضى أبو العزائم : إنى بعد أن أكرمنى الله تعالى بتأليف الكتب الجامعة للعقيدة والعبادات والأخلاق والآداب، والسير والسلوك، وبيان الإشارات الروحانية ومقامات المقربين وعلوم أهل اليقين، شرح الله سبحانه وتعالى صدرى لأن أكتب كتابا مبينا فيه ما خفى على أهل هذا العصر من أسرار الدين ،مفصلا فيه ما خفى من آثار السلف الصالح ،ليجدد أهل الله تعالى آثارهم الدارسة، وأسرارهم الخافية، وقد أعاننى الله تعالى على هذا العمل البار، فجمعت الحقائق الثلاث : الدين، والوطن، والنسب، ووضعت لكل حقيقة من تلك الحقائق كتاباً خاصا بها يبين روح الشريعة فيها، حتى يتحقق كل مسلم أن الدين هو الإسلام، وأن الوطن هو الإسلام، وأن النسب هو الإسلام، وأن يسارع إلى الخير الحقيقى الذى سارع إليه أصحاب رسول الله وتابعوهم بإحسان، طمعاً فى نيل العزة بالله، والسعادة فى الدنيا، والتمكين فى الأرض بالحق، والفوز برضوان الله الأكبر، والنعيم المقيم فى جوار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وهذا هو كتاب : (الإسلام دين الله، أتقرب به إلى الله تعالى وإلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وأسأل الله تعالى أن يتقبله بقبول حسن ،وأن ينفع به إخوتى المسلمين ،وإنى على يقين حق أن ما كان فيه من الحق فهو من الله تعالى بتوفيقه وحسن عنايته، وما كان من خطأ فهو منى لعجلتى ونسيانى، والله غفور رحيم، أسأله أن يتوفانى مسلماً ويلحقنى بالصالحين، وأن يغفر لى عجلتى ونسيانى ،وأن يجدد آثار سلفنا الصالح بمحو البدع والضلالات، وإعادة المجد لنا بإهلاك أعداء الله، وأعداء رسوله، وأعدائنا، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

خديم الفقراء

محمد ماضى أبو العزائم

الباب الأول

الــديـن

تعريف الديـــن :

الدين وضع إلهى، يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عن الرسول صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم . أو وضع إلهى سائغ لذوى العقول السليمة باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات .أو دين الله المرضى الذى لا لبس فيه، ولا حجاب عليه، ولا عوج له . أو هو إطلاعه تعالى عبده على قيوميته الظاهرة بكل ناد، وفى كل باد، وعلى كل باد، وأظهر من كل باد، وعظمته الحقية الـــتى لا يشير إليها اسم، ولا يحيزها رسم، وهى مداد كل مداد . هذه التعاريف التى بينا بها رســـم الـــدين ـــوإن اختلفت عبارتها ـــ فمدلولها فى الجملة واحد .

حكمة اختصاص الإنسان بتحمل الأمانة :

لاشك أن الإنسان ـــ كما بينا فيما سبق لنا من الكتب ـــ هو العالم الوسط الذى خلقه الله تعالى صالحا للدارين، مؤهلا لأن يتجمل بالكمالات حتى يكون فى أعلى الجنات، تتـــولى خدمتـــه الملائكة بعناية الله تعالى وحسن تدبيره، أو يتعشق الضلالات وتستعبده الشهوات، حتى يكـــون فى هاوية السخط والمقت أسفل سافلين فى العذاب الأليم مع الشياطين، ولهذا فإن الله سبحانه وتعـــالى جعله محل البلوى بنص قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَـــةَ... ﴾ (1) الآيـــة، وقولـــه ســـبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (2) وقوله سبحانه وتعالى :﴿ وَلَنَبْلُـــوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (3) وقوله سبحانه وتعالى :﴿ وَمَا خَلَقْنَـــا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (4) وقوله جلت قدرته :﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ

(1) سورة الأحزاب آية ٧٢.
(2) سورة المؤمنون آية ١١٥.
(3) سورة محمد آية ٣١.
(4) سورة الدخان آية ٣٨.

مِن لَّدُنَّا﴾[1] وقوله صلوات الله وسلامه عليه ((اعملُوا فكلٍّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ)) [2] وحيث أن الله سبحانه وتعالى خلقه صالحا للدارين، ركبه جلت قدرته من قوى متباينة، بعضها يفارقه، وبعضها لا يفارقه .

القوى التى لا تفارقه :

للنفس قوى تعمل أعمالها بالآلات الجسمانية كالغازية والمربية والمولدة، وتلك القوى لها الرئاسة على أنواع أخرى تخدمها، ومنها القوى المدركة وهى ظاهرة وباطنة، فالظاهرة منها هى الحواس . والباطنة هى المتخيلة والواهمة والذاكرة والمفكرة، والقوى المحركة الشهوانية والغضبية، والقوى التى تحرك الأعضاء، وكل تلك القوى التى ذكرناها تعمل أعمالها بآلة ــ وإن لم تر بعض الآلات ــ لأنه لابد من ذلك، وجميعها لا يفارق الإنسان .

القوى المفارقة :

هى كثيرة، منها العقل العلمى، وهو الذى يستنبط ما يجب فعله من الأعمال الإنسانية، ويقيس الأشباه والنظائر التى لم يرد بها نص صريح لا فى الكتاب ولا فى السنة بالجزئيات المستنبطة من الكتاب والسنة، ومن تلك القوى العقل العملى، وهو الذى يتم به جوهر النفس وتصير نفسا طاهرة زكية بالفعل، وتتفاوت مراتبه فقد يكون بالوهب أو بالكسب .

تلك القوى التى تدرك المعقولات روح مجردة ليست بجسم، ولكن لا تؤدى أعمالها الخاصة بها إلا بواسطة آلاتها الجسمانية، لأنها مفارقة للإنسان ليست من نوع قواه، تلك الروح تبقى بعد موت البدن لأنها ليست قابلة للفساد، وهى الروح المعنية بقوله.

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٧.

(٢) هذا حديث رواه البخارى فى كتاب القدر، باب جف القلم، وله فيه روايتان إحداهما عن عمران بن حصين : " قال رجل : يا رسول الله أيعرف أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم، قال : فلم يعمل العاملون ؟ قال : كل يعمل لما خلق له . أو لما ييسر له " والرواية الثانية عن على بن أبى طالب عليه السلام قال : كنا جلوسا مع النبى (ﷺ وآله) ومعه عود ينكت فى الأرض، وقال : ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة، فقال رجل من القوم : ألا نتكل يا رسول الله ؟ قال : لا، اعملوا فكل ميسر، ثم قرأ : وأما من أعطى واتقى ... الآية " وهذا الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى .

سبحانه وتعالى :﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (١) وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٢) وهذه الروح هى الإنسان على الحقيقة، وبدونها فهو كالأنعام بل أضل . وإنما تفاض من المنعم الوهاب عند إرادته ذلك بإيجاده سبحانه الشيء الصالح لقبولها وهو البدن الإنسانى الذى يمثل الكمالات الروحانية، وتتجلى به الأخلاق الربانية، وقليل ما هم .

عناية الله تعالى بالإنسان :

لكل تلك المعانى اقتضت حكمة الله تعالى العناية بهذا النوع حتى حمله الأمانة، وهى الخلافة عنه سبحانه وعبادته، والقيام بما أوجبه مشاهدا جماله العلى وجلاله الربانى فى كل عمل، حتى لا يغيب عن الحق ولا ينسى عهده ﴿أَلَسْتُ﴾ وهو العهد الذى أخذه الله على بنى آدم بقوله عز وجل ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (٣) فسخر له ما فى السموات وما فى الأرض فضلا منه سبحانه، وأمده تنزهت ذاته بما به يمكنه أن يتصرف فى الأرض، ويقوم بحقوق الخلافة عن الرب، مجاهداً نفسه وهواه فى ذات الله تعالى، ناهجا المنهج الذى وضعه الله لنا ضامنا لنيل سعادته فى الدارين، من العقيدة الحقة التى هى الحقيقة فى نفس الأمر، والعبادات الخالصة التى رضيها سبحانه لنفسه من عباده المخلصين، والمعاملات الحسنة التى بها يكون الإنسان أخا للإنسان، وعضوا متمما للجسد الذى تمثله كل أفراد بنى الإنسان، والأخلاق الربانية التى يكون بجميعها إنساناً روحانياً كاملاً فوق الملائكة منزلة، وإن كان فى الظاهر هو الهيكل الإنسانى الذى يأكل وينام ويمشى فى الأسواق .

إذا تقرر ذلك فبنو الإنسان ينتظرون من الله تعالى رسولا كريماً عليه يأتيهم من قبله سبحانه وتعالى، مبينا لهم جزئيات كل تلك المعانى التى لا ينالون السعادة الحقيقة إلابها، وكل من أتانا بنوع واحد من تلك الأنواع نعتبره يؤهلنا لشروق أنوار هذا الرسول الكريم، ويعدنا لأن نكون صالحين لنيل الكمالات العالية التى يأتينا بها من قبل ربنا سبحانه وتعالى، وبذلك يكون ما أتى به صلى الله عليه وسلم هو دين الله حقا، الذى لا يقبل الله تعالى بعد ظهوره من أحد صرفا ولا عدلا ما لم يؤمن به صلى الله عليه وسلم، ويتبعه صلى الله عليه وسلم، وقد بحث العقل بقواه كلها فى

(١) سورة ص آية ٧٢
(٢) سورة الفجر آية ٢٧-٣٠.
(٣) سورة الأعراف آية ١٧٢.

كل ما جاء به صلى الله عليه وسلم ــ بعد حكمه بأن الله أرسل رسلا كثيرين، وتصديقه بهم عليهم الصلاة والسلام أجمعين فى كل ما جاءوا به ــ فحكم حكما نهائيا أن كل رسول جاء قبل سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، إنما جاء ليعد بنى الإنسان لنيل تلك السعادة القصوى، التى لا تنال إلا بظهوره صلى الله عليه وسلم .

وهذه الأسفار السماوية لو تتبعها الحكيم الألمعى، لوجد بعضها يومئ إلى تكميل القوى الجسمانية وتقويمها دون نظر إلى النفس، وبعضها يبين طرق تزكية النفس مع إهمال ما يجب على الأبدان التى هى الآلات للنفس، وإغفال ما لابد أن يكون عليه الإنسان فى كل أنواع المجتمع الإنسانى صغيرها ووسطها وكبيرها، وترك بيان مرتبة الإنسان ومنزلته بين العوالم كلها، حتى أن بعض الكتب صرح بأن البعث بالنفس دون الجسم إهمالا للأجسام التى بها ظهرت تلك المعانى الروحانية، وقامت أعمالها الخاصة بها .

و لم يرسل الله تعالى رسولا يدعو الناس إلى الخير الحقيقى والسعادة الحقيقية فى الدارين، مبيناً أنواع الكمالات الإنسانية كلها عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقاً، وموضحاً الآداب التى تجعل الإنسان أهلا لأن يكون فى معية ربه فى الدنيا و الآخرة، وصورة كاملة مجملة بالأخلاق الربانية حتى يحصل له الخير الحقيقى وتتم له السعادة الحقيقية روحا وجسما، إلا سيدنا ومولانا محمداً صلى الله عليه وسلم .

إن الدين عند الله الإسلام :

لما تقدم يحق لى أن أقول : إن الإسلام هو الدين حقا، وإن الأديان التى جاءت بها الرسل قبل نبينا صلى الله عليه وسلم كانت أدياناً قبل بعثته صلى الله عليه وسلم، ثم نسخت بدينه الناسخ لكل دين قبله، فمثله ومثلهم صلى الله عليهم أجمعين كالأنجم الزاهرة التى يستضاء بها فى ظلمة الليل، فإذا أشرقت الشمس حجبت ما هنالك من النجوم، فمن غض بصره عن الشمس و لم يهتد بها جنى على نفسه أكبر جناية، وخسر خسرانا مبينا، لاسيما وأن تلك الشمس لا تغيب أبداً، لأنه صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ولا نبي بعده، ولا يزال نوره مشرقاً في الآفاق بأعمال وأقوال وأحوال خلفائه صلى الله عليه وسلم الهادين المهتدين الراشدين من العارفين والأئمة، فالعارفون والأئمة من المسلمين أمثال الأنجم المضيئة بنور الشمس فى أفقها .

حكمة إنزال الكتب السابقة :

لو تتبعنا كل ما جاء فى صحف وأسفار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بإمعان وروية، لظهر لنا جليا أن كل الكتب السماوية السابقة أنزلت لتنويع الأفكار، وتطهير الأخلاق ن النجاسات والنقائص، ليستعد الإنسان بالتخلى للتجمل بالجمال الحقيقى بعد الطهارة من الدنس والأرجاس .

وذلك لأنا نرى كل رسول من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أتى قومه يدعوهم إلى الاستغفار من خطاياهم، أو إلى ترك قبيح الأعمال التى تعودوها، شأن من يؤهل الناس ويعدهم للوصول إلى من يتكملون على يده بما به يكونون فى أمن وهداية وعزة وسعادة .

انظر إلى سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام، فلقد دعا قومه إلى أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه، فأبوا عليه أن يسمعوا ويطيعوا، حتى باغتتهم النقمة، وهى من كبريات الآيات، وكان ممن لم يقبل الهدى ابن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام حتى هلك بالطوفان .

وجاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى ترك الشرك بالله، وأقام الحجة بما تلين له الأحجار الصم فأبوا عليه .

وأتى سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى ترك الفاحشة . وأتى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام يدعو إلى ترك الظلم واستعباد عباد الله . وأتى سيدنا عيسى عليه السلام يدعو إلى الخلاص من الدنيا وترك العمل لها، والإقبال على الآخرة التى يسميها الملكوت .

يظهر كل ذلك لمن استقرأ ما ترمى إليه الكتب السماوية قبل القرآن المجيد، حتى أشرقت الشمس التى ظهر بنورها الحق، وتبين طريق السعادتين ببعثة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، ومع هذا كله فإنه ما من نبى ولا رسول إلا بشر بالرسول الذى يرسله الله كافة للناس، وسماه باسمه وبين لقومه كريم نعوته وشريف صفاته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وسأبين إن شاء الله تعالى فى آخر هذا الكتاب بشائر الأنبياء عليهم السلام فى صحفهم من التوارة والإنجيل، عند

دعوة النصارى واليهود إلى الإسلام، ونبوآتهم ببعثة خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، ولا يخفى كل ذلك إلا على مكابر .

الدين الجامع :

لاشك أن الدين الذى يجب أن يدين به العالم أجمع لابد أن يكون مستوفيا للأحكام التى تكون بها سعادة الإنسان دنيا وأخرى، وكمالاته النفسانية، وجمالاته الجسمانية متجملا بحقيقة الخلافة عن ربه، قائما بحسن رعاية ما استرعاه الله، عاملا من عمال الله فى أرض الله، حاضرا مع الله بروحه، قريبا من الله بأخلاقه وأعماله، مشاهداًالله بمراقبته ومحاسبته لنفسه، ذاكرا فاكرا، لا غافلا ولا ناسيا، يشهد بنور بصيرته الحق قبل أن تشهد عين بصره الخلق، يرضى الله فى خلقه ولو أغضبوه فى حظهم، ويعمل لله فى السر كما يعمل له سبحانه فى العلانية لأنه يراه بنور سره، أو يوقن أن الله يراه حيث كان، وهى مترلة عامة المؤمنين، لأن المؤمن الكامل مع الله فى كل حاله وشأنه، وغيره من المؤمنين موقن أن الله يراه فى حركاته وسكناته، وهو مقام الحفظ الإلهى وسر قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[1] ودون هاتين المترلتين غافل يدعى أنه مؤمن فيجب أن ينبه، أو ساه يجهل حقوق الإيمان فينبغى أن يذكر .

ولم يجمع تلك المعانى كلها إلا كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فظهرت جمالاتها جلية، وأسرارها علنا ،حتى بلغ المسلم مقاما من مقامات اليقين، يكاشفه الله بما كاشف به أنبياءه المقربين، من معانى صفاته القدسية، وأسرار تجليات أسمائه العلية ،ويهب له الحكمة وفضل الخطاب، فصار به وارثا من ورثة رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وبدلا من أبدال أولى العزم عليهم الصلاة والسلام، وهم كثيرون فى المسلمين لا يخلو منهم زمان، أسرارهم جلية، وأحوالهم علية، وأنوارهم مضيئة، وعزائمهم ماضية، لأن كل تلك المعانى لم يأت بها رسول قط، ولا أنزلها الله كاملة فى كتاب قط قبل سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، وقد تفضل الله بها علينا فضلا منه وكرما، له الحمد والشكر، لا نحصى ثناء عليه سبحانه، فهو كما أثنى على نفسه .

إذا تقرر ذلك ظهر جليا أن الإسلام هو الدين حقا، وأن الدين هو الإسلام، ولن يقبل الله من أحد ابتغى غير الإسلام دينا .

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٢.

على أنى معتقد أن القرآن المجيد أنزله الله تعالى جامعا لكل ما أنزله على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قبل سيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ وآلــه﴾، ثم تفضل فأتم نعمته علينا وأكمل لنا ديننا الذى ارتضى لنا، وبين لنا فى القرآن المجيد كل شىء لم يترله من قبل. فالكتب السابقة كانت كالتعليم فى الصغر الذى لابد أن يكون مناسبا لقوة العقل، حتى إذا تمكن من المبادىء الأولية ترقى فى مراقى المعارف والحكم والأحكام، حتى يبلغ مبلغا يمكنه فيه أن يتلقى العلوم العالية، حتى يبلــغ نهاية العلوم وغاية الفهوم ،فكأن الرسل السابقين كأساتذة للإنسان فى سن الطفولية ،يؤهلونه للتلقى عمن هو أرقى منهم، ذلك هو السيد الكريم والرءوف الرحيم إمام الأئمة ورسول الرسل علــيهم الصلاة والسلام، الذى جمع الله له العلم والمعلوم، والاسم والمسمى، واللفــظ والمعــنى، والــروح والجسد، فكان خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، ورسولا للناس عامة، فمن لم يؤمن بــه كفر، ومن ائتم بغيره هلك، ولو أدركه موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام مــا وســعهما إلا اتباعه، صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه وسلم .

الباب الثانى

أسس الدين الإسلامى

وهنا ينبغى أن أفصل ما أجملت، وأبين ما أبهمت، من أسس الدين الإسلامى التى هى : العقيدة، والعبادة، والأخلاق[1]، والمعاملات، وما يتجمل به المسلم بإتباعه للسنة والكتاب مبتدئا بالعقيدة .

المبحث الأول

العقيدة :

سبق لنا شرح ما يجب أن يعقد عليه القلب فى كتاب : (أصول الوصول) مما أجمع عليه أهل السنة، ثم بينا اختلاف الفرق الإسلامية فى بعض ما يجب اعتقاده، فيما ليس من الأصول الكلية فى أساس التوحيد، كالخلاف فى أفعال العبد وغيرها مما بينه أهل السنة والمعتزلة وغيرهما، ثم أعقبنا ذلك بمذهب السلف الصالح موضحا بتفصيل فىكتاب : (معارج المقربين) توضيحا لا يحتاج المطالع بعده إلى بيان .

ولما كان الغرض من هذا المختصر بيان بعض جمال الإسلام، وما يتكمل به المحافظ على حدود الله تعالى فى الدنيا، وما يفوز به من النعيم الأبدى فى الآخرة، أحببت أن لا أخليه من مزيد بيان يكون به النفع أعم، والخير أشمل، ولمزيد البيان أبتدىء بذكر نوع من طرق تعليم العقيدة .

قبل أن نبين الأصول التى يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها، أشرح الطريقة التى يجب أن يلاحظها المعلم عند إلقاء درس العقيدة .

---

(١) تناول الإمام المجدد رضى الله عنه موضوع الأخلاق فى كتابه : أصول الوصول لمعية الرسول (ﷺ وآله) وفى غيره منكتبه .

سبق لنا أن الإيمان مقدم على العلم، ووضح الحق بلا ريب بما قررناه فى كتاب :(معارج المقربين) فى موضع العلم والإيمان، قال سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه : كنا نتعلم الإيمان قبل القرآن، وأنتم تتعلمون القرآن قبل الإيمان .

ومعنى ذلك أن الصحابة رضوان الله عنهم كانوا يتعلمون التصديق قبل العلم، حتى إذا تعلم أحدهم القرآن بعد التصديق كان كما قال الله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾(١) فإن الإيمان برهان حق على صفاء جوهر النفس، والتكذيب دليل على مرض النفس ونجاستها، لأن النفس الصافية الجوهر تقبل الحق بسرعة لأنه جلى لها، ولكنها كالمهملة قبل إخبارها بالحق، وعندما يخبرها الصادق عن الحق بالحق تقبل مصدقة .

. الغرض من دراسة علم التوحيد

لما كان لابد من التصديق قبل العلم، لزم أن نبدأ بتعليم التصديق، حتى يكون العلم موجبا لليقين الذى يجعل النفس تستحضر تلك المعانى ــ استحضارا بقدرها لا بقدر الجناب المقدس ــ ويجعلها تنجذب إلى الحق بكليتها وتسارع فى مرضاته، وتفر من موجبات غضبه، حتى يبلغ بها العلم من استحضار تلك المعانى مبلغا يجعل المسلم حسن التوكل على الله، كامل الثقة بالله، عظيم الرغبة فى الله، شديد الرهبة من الله، مطمئن القلب بالله، لا تلم بقلبه لمة شيطان فيهم بمخالفة الشرع، ولا يهجس بسره هاجس شك فيتأول كلام الله برأيه، ويجرؤ على فعل القبائح والمنكرات، بل قد يبلغ به اليقين مبلغا حتى يكون إذا ألقى عليه درس فى التوحيد كأنه يرى تلك المعانى، لما تقتبسه نفسه من قبس الأنوار القدسية عند سماع صفات الحق سبحانه، وهذا هو الغرض من دراسة علم التوحيد، وليس الغرض منه تشكيك المسلم وتنمية قوة الإنكار والجدل، وتعليمه سوء الأدب مع الأئمة الهداة حتى يبلغ به الجهل مبلغا يجعله ينكر على العلماء .

وقد ظهر الفساد حتى صار بعض المعلمين يجلس فى مجلسه يقرر درسا من التوحيد ،وتدعوه نفسه إلى أن يظهر قدر علمه ومقدرته على إيراد الشبه وردها بالأقيسة، ويظن المسكين أنه أرضى ربه لما أظهر من أبواب الشبه وما أبدى من دقائق المباحث، وفى الحقيقة أنه أفسد عقول

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

المتعلمين وأبدل اليقين بالشك، والتصديق بالريب، ونجس الآذان بما لا يفيد، وأطفأ نور القلوب بما يظنه خيراً، فيجلس المعلم السنين الطوال يعلم الفقه والتوحيد والأصول، و لم يوفقه الله تعالى أن يقول فى درسه : قال الله، ولا : قال رسول الله . حتى يتخيل بعض المتعلمين أن القرآن الشريف إنما يحفظه أهل العاهات ليكون وسيلة للرزق، وأن كتب السنة يحفظها العامة لتكون تمائم فى بيوقم، فصارت مناهج الكتاب والسنة خفية، وأصبحت القلوب إذا تلى كتاب الله عليها لا تفهم له معنى، بعد أن كانت تقشعر له الجلود، وتلين له القلوب والجلود، ويزداد بتلاوته . الإيمان إذا قرىء، وإذا قرىء وجلت القلوب .

كان ذلك الحال فى السلف الصالح ، لأن العالم أو المفتى إذا ذكر حكما من أحكام الله تعالى قال :قال الله تعالى كذا . وكذلك كان المفتى بعد أن يقرر الجواب يقول :قال الله تعالى . بل كان الكاتب إذا كتب رسالة وُدٍّ يخللها بقال الله وقال رسول الله . والخطيب فى الصلح أو فى الزواج أو فى الحث على الفضائل أو فى بيان مكرمة يتخلل خطبته بقال الله وقال رسول الله، وصرنا فى زمان يجلس المتعلم أمام المعلم فلا يسمع إلا الشكوك والريب والاعتراض والجدل، ويجلس فى درس الفقه فلا يسمع إلا الخلاف، والتضعيف، ورأى فلان، واستحسن فلان، ونقل فلان .

مع أن السلف الصالح كانوا يقولون فى درس الطب : قال الله، وقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فكان الطبيب إذا نظر إلى ألطاف الله وأسرار الله كيف ركب الجسم وأودع لك الخواص فى النباتات افتتح كل موضع من الطب بقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء) .

كان البناء إذا ابتدأ يبنى افتتح فقال : قال الله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ (١) وقال :﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْر.....﴾ (٢)، وبذكر أحاديث عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وكان التاجر إذا دخل السوق قال : قال الله تعالى :﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾ (٣) حتى بلغ من ملاحظة القرآن وملاحظة كلام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى

(١) سورة النور آية ٣٦ .
(٢) سورة التوبة آية ١٠٩ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٧٥ .

جميع أعمالهم، أن بعض السلف مكث سنين لا يتكلم مع الناس إلا بالقرآن، حتى فى شؤونه الخاصة .

طريقة تعليم العقيدة :

فطريقة تعليم العقيدة أن يبدأ المعلم بتعليم المتعلمين التصديق والتسليم لما يلقيه، لأنه أمر بديهى للعقول بعد الإيمان به وبيان دلائله، فإذا أنس منهم التصديق والتسليم نبه فكرهم ـ بعد حفظ الصفات التى يجب أن يعقد قلبه عليها ـ إلى ما يراه فيما حوله من الأنواع الكثيرة التى خلقت لأجله، وأنه ينتفع بجميعها ولولاها لكان من المستحيل أن يكون الإنسان موجودا، خصوصا الأشياء الضرورية كالهواء والماء والأرض التى يمشى عليها والشمس التى تضىء له وتعطيه الحرارة، فإذا تنبه قلبه وحضر لبه يجب أن تنقله إلى مقام أرقى من هذا، فتبين له أن تلك الأشياء لابد أن يكون خلقها قادر حكيم، أراد أن يخلقها صالحة لنفعنا، حتى يتنبه إلى برهان العناية والإيجاد، فيطمئن قلبه، وينعقد على حب مولاه المتفضل عليه بالعناية والإيجاد ،لأنه لو لم يكن الموجد للكائنات قادرا حكيما مريدا أن يخلقها صالحة لنا ونافعة، بل وضرورية لوجودنا وبقائنا الزمن المقدر لنا، لم تكن تلك الأنواع مرتبة هذا الترتيب، ومنظمة هذا النظام .

فإذا أنس قلبه بأن هذا الكون أحدثه قادر حكيم بإرادة وتدبير، وأنه سبحانه وتعالى جعله مسخرا لنا بنى الإنسان، إذ ما من نوع من أنواع الكائنات إلا وهى لنفعنا وللذتنا ونعيمنا، ولتهذيب أخلاقنا وتزكية نفوسنا، فكان الكل مسخراً لنا حتى الوحش الضارى .

وبتلك الطريقة ترتقى بالمتعلم شيئا فشيئا، حتى يشتد تعظيمه وإجلاله لربه، وتقوى رغبته فيه سبحانه وتعالى، وحبه الحقيقى لمولاه سبحانه ،والمسارعة فى طاعة أمره، فلا يلقى درسا فى معانى الصفات إلا ويشرق على القلب نور اليقين، حتى لو كشف الحجاب لم يزدد يقينا .

فعلم التوحيد فى الحقيقة هو العلم الذى إذا اعتنى العلماء بدراسته على الوجه الذى كان عليه السلف، أصبح المسلم عزيزا عاملا للخير العام، لايخاف إلا الله، ولا يرغب إلا فى الله، وتشتد تلك المراقبة حتى يتمثل عظيم نعمة الله، وجميل عناية الله به، فيستحى أن يرى نفسه مخالفاً لربه، أو ذليلا لغيره، أو محتاجا إلى غيره، وما من صفة من الصفات الإلهية إلا ويمكن للعالم أن يشرح للمتعلم المقصود من العلم بها، فإن كانت صفة السمع بين له أن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيىء من

القول، ولا من العمل، فراقبه فى سرك وفى علنك، وهكذا فى كل صفة من الصفات يعتنى بتلك الحكم الجلية المرادة من دراسة هذا العلم ،ليقوى الإيمان، وتقوى مراقبة العبد ربه ومحاسبته نفسه، وإنى ـ والحمد لله ـ قد جاهدت نفسى على أن أنهج هذا المنهج فى إلقاء دروس التوحيد، وببركة الاقتداء بالسلف الصالح حصل الخير للمتعلمين .

علم التوحيد :

راس مال المؤمن، وحصنه الحصين، وذخيرته عند الشدة، ونجاته عند الفزع الأكبر، قال الله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (١) وبقدر إشراق أنواره على القلب يكون ارتفاع المسلم إلى درجات القرب، ومنازل الحب، قال تعالى : ﴿...وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢) إنما تكون مقامات اليقين كلها بقدر ذوق أسرار التوحيد ، وفهم غوامضه، والانتشال من أوحاله ،وقد أصبحنا فى زمان صارت دراسة علم التوحيد تسلب الخشية من القلوب وتمرض النفوس، وتجعل المؤمن ـ بعد أن كان مسلما يخاف مقام ربه ـ تعتوره الشكوك والريب، وبالإهمال فى هذا الركن ـ الذى هو أصل الأصول ـ تهاون المسلمون بحدود الله، وأهملوا فيما أوجبه سبحانه على المسلمين لجنابه المقدس، ولنبيه ﴿ ﷺ وآله﴾، ولأنفسهم ولأرحامهم، ولخاصة المسلمين وعامتهم، فكادت عروة الإخاء الإسلامى تنفصم ،ذلك كله من الجهل بطريقة تعليم علم التوحيد، وإنى أتقرب إلى الله تعالى بتلك العقيدة التى هى أنوار تسليم السلف، وحصون حيطة الخلف، متوجها إلى الله سبحانه وتعالى أن يقبلها وينفع بها ويجعلها خالصة لوجهه الكريم، ويغفر لى عجلتى الفطرية، وأعوذ بوجهه الكريم من هوى يعمى، ورأى يحجب، وحظ يقطع عن حضرته العلية، وأسأله سبحانه الحفظ والوقاية والسلامة فى الدين والدنيا والآخرة، إنه مجيب الدعاء .

العقيدة التى يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها :

معلوم أن العقيدة هى عقد القلب على علم بمعلوم عقدا قويا مؤكدا، وفى ذلك الإشارة إلى أن المسلم يجب عليه أن يكون علمه بالتوحيد عن يقين وتمكين، لأن الموقن حقا بالتوحيد هو الذى يسمى مسلما حقا لقيامه بشعائر الإسلام عن وجد وشهود . والعقيدة الإسلامية هى تصديق القلب

---

(١) سورة النساء آية ٤٨ .
(٢) سورة المجادلة آية ١١ .

بحقيقة ما عليه الأمر فى ذاته فى نفس الأمر، وطريق ذلك خبر الصادق الأمين، بعد أن يكون المتلقى صحيح الجسم، كامل العقل، سريع الفهم، قوى الفكر، معافى من أمراض الحظ وعمى الهوى، وبذلك يكون مؤمنا حقا قائما بما أوجبه الشرع، عاملا من عمال الله، خليفة من خلفاء ربنا سبحانه وتعالى، وبدون تلك الشروط لا يبلغ المسلم تلك الكمالات إلا بقدر ما تجمل به من تلك الشروط، التى هى كالآلات والأدوات لكشف أسرار الدين وفك رموزه، فإن المعانى الإلهية من الكمالات الربانية والجمالات والجلالات لا يدركها العقل ــ من حيث أنه عقل ــ إلا بقدر ما يتضح له من الدلائل .

الآثار كنوز لم تفك رموزها :

أكثر الدلائل معان قائمة بمبان مقيدة بأدوات وآلات وكيفيات، تتفاوت العقول فى إدراك خواصها فضلا عن غوامض أسرارها، وكيف لا ؟ والإنسان منذ سيدنا آدم عليه السلام وهو يجول بعقله فى ميدان الآثار، يرفع الخلف أسس السلف حتى عصرنا هذا، ولا تزال خواص الكائنات تنكشف شيئا فشيئا للعقول، وتظهر مكنوناتها مدهشة للمفكرين، محيرة للمتأملين، ولا عجب، فإن القادر البديع الحكيم خلق الكون كله وسخره للإنسان، قال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْه﴾ (١) وأمد الإنسان بالعقل، وجعل له السلطان على الآثار لتظهر حكمة التسخير .

ولو نظر الناظر إلى ما اكتشفه الإنسان من خواص النباتات والجمادات والمعادن لمعالجة المرضى، وما استخدمه ــ بما وهبه الله من قوة العقل ــ من البخار والكهرباء، وما اخترعه من أنواع الصناعات الغريبة والفنون العجيبة، التى كلها إما لراحة الإنسان وخيره، أو لراحة فئة وشقاء آخرين، فالأول : كعلم الطب والعمارات والتربية وعلوم الحكمة العملية، والثانى : كفنون السياسات وتدبير الممالك واختراع الآلات الجهنمية لقهر بنى الإنسان .

ومع هذا كله فلا تزال الآثار كنوزا لم تفك رموزها، وخزائن خيرات لم تفتح أبوابها، ورياض أفكار لم تفتق أكمامها، وهى بما فيها من الخواص معارج لمن سبقت لهم الحسنى، ومدارج لمن سبقت لهم السوءى، فالإنسان منذ سيدنا آدم عليه السلام إلى عصرنا هذا ــ مع ما بلغه من

(١) سورة الجاثية آية ١٣ .

الفنون والصناعات ـ عاجز عن الحيطة بخواص المادة مما أودعه المنعم المتفضل النافع المعطى الوهاب من فضله فى الآثار، ووهب لبنى الإنسان القوى التى تكشف الستار عنها للنفع العام .

هذا هو أفق العقل، فإذا انكشف للعقل هذا الأفق فصار مبينا، يوقن أن لهذه الآثار مبدعا حكيما بقدر ما أدرك من هذه الآثار لا بقدر ما يليق بالجناب العلى المقدس، ولا يكون الإنسان مسلما كامل الإسلام إلا إذا شهد بنور التسليم والإيمان ــ لا بعيون العقل والإمكان ــ آيات القادر الحكيم مشرقة أنوارها فى تلك المبانى، دالة على كمال التنزيه والعلو والعظمة والتقديس والكبرياء لذات الواحد الأحد سبحانه وتعالى، تنزيها وتقديسا يليقان بجناب الكبير المتعال، الذى لا تدركه سبحانه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، ولا تحوم حوالى عزته وجلاله أنوار عيون الروحانيين، ولا بصائر أولى العزم المكرمين ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١).

كيف يبلغ العقل والنفس درجة الإيمان الكامل ؟ :

لا يمكن للعقول ــ وإن كملت ــ ولا للنفوس ــ وإن تزكت ــ أن تبلغ درجة الإيمان الكامل إلا بخير الصادق المصدوق ﴿ ﷺ وآله﴾، والتسليم لحضرته المحمدية صلوات الله وسلامه عليه، وبشىء آخر لابد منه، وهو النور الذى يجعله الله تعالى فى القلب فضلا وكرما ،المعبر عنه بالعقل الموهوب، فإن العبارات لاتفى بالكمالات الإلهية، بل ولا بالكمالات المحمدية، إلا بمشاهدة بنور الإيمان، وتسليم حق وفقه للبيان، ولو أن كل فرد من بنى الإنسان وهبت له تلك المواهب لما اختلف اثنان فى الحق، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن تطالب الإنسان بمعرفة الله بقدر ما لو قصر عنه الإنسان لهلك، لأن أصغر إنسان مؤهل لأن يعرف الحق سبحانه معرفة تحصل بها النجاة من الهوال ،والسلامة من المقت والسخط، وتتفاوت بعد ذلك مقامات أهل الخصوصيات فى هذا المجد العلى والخير الحقيقى، فمن الأفراد الخصوصيين من يهب له الله مواهب يبلغ بها مكاشفة المقربين، حتى لايقع بصره إلا على وجه الله العظيم، ولا يسير به وطر إلا إلى الجناب المقدس، ولا تلم به لمة إلا ملكوتية .

(١) سورة الزمر آية ٦٧ .

قلنا : وشىء آخر هو النور، فإن هذا الفضل العظيم الذى يجعله الله للعبد بـه يكشف أسراراً هى الآن غيب وكانت شهودا قبل، وهى تجلى الرب سبحانه وتعالى يوم قوله سبحانه : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (١) وأخذه العهود على الإنسان بعد الاعتراف بالتوحيد، والإقرار لله سبحانه بالربوبية، فإن تلك الحضرة لا يشهدها العقل، وإنما تشهد بعيون الإيمان وبنور التسليم الذى يجعله الله فى قلب العبد، ولا شك أن ما ظهر عن تلك الآثار من الآيات الجلية إنما هى إشارات لكمالات المبدع الحكيم القادر، ومراء تمثل للقلوب السليمة كالمثل الذى يضرب لتقريب الحقيقة وإيضاحها بقدر ما قال تعالى :﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٢) وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾(٣) .

فكل إنسان لم يجعل الله له النور تسترت عنه الآيات، وحجبت عنه البينات، وصار ضالا فى فيافى الحظوظ والأهواء، وعاملا مجداً للفوز بحظه العاجل ولذته الفانية، لأنه لم تنكشف له آيات الحق الدالة على كمال قدرته، وعجائب حكمته، وجميل إيجاده وإمداده، وما أعده من الكمالات والنعيم الأبدى لمن اهتدى بهدى سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وعمل بسنته، فيكون الذى حرمه الله من هذا النور كالأنعام بل هو أضل سبيلا .كل تلك المقدمات أرى أنها لابد منها، ولولا أن هذا المختصر لا يسع البيان ــ كل البيان ــ لاستوفيت الموضوع، وقد شرحت بعض أسرار من الآيات المنبلجة فى الآثارفى كتاب : (معارج المقربين) وجملا من الكمالات والمقامات التى ينالها الإنسان بحسن الاقتداء برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى كتاب : (أصول الوصول لمعية الرسول) وأشرت إلى شىء من وجوه التفكر فى السموات والأرض وما فيهن ،ببيان يجعل القارىء يشهد من أسرار الآيات ما يجعله فى مزيد من الإيمان، وكمال الإقبال على الله سبحانه وتعالى المنعم بكل تلك النعم فى كتاب : (النور المبين لعلوم اليقين) (٤) فأكتفى هنا بما بينته .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٢) سورة النور آية ٣٥ .

(٣) سورة إبراهيم آية ٢٥ .

(٤) تطلب هذه الكتب وغيرها من مؤلفات الإمام المجدد أبى العزائم من مكتبة دار الكتاب الصوفى ١١٤ ش مجلس الشعب _القاهرة.

ويحسن أن أقول : إن العقل لا يستقل بإدراك تلك الأسرار، ولا يمكنه أن يبلغ مبلغا بالإنسان يجعله مع الذين أنعم الله عليهم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بل ولا يقتدر أن يجعل الإنسان سعيداً فى مجتمع مدنى سعادة معقولة يعم خيرها أفراد بنى الإنسان، فإن له منطقة خاصة به لا يتعداها، وإن كان هو الآلة لكل الخيرات فإنما يجول فى مادة موجودة ليخترع ما يلائمه، أو يستنتج منها نتائج معنوية تدل عليها بطريق الالتزام مما قد يخطىء فيه أو يصيب، فلم يبق طريق يبلغ به الإنسان السعادة الحقيقية والخير الحقيقى فى الدنيا والآخرة إلا خبر الصادق، الذى يقيم الحجة للعقل أنه صادق حقا فيسلم له ويستسلم، لديها يفوز بكل خير عاجل وآجل، ولا يمكن أن تتلقى العقيدة التى بها النجاة إلا من هذا الطريق، وقد شرحت جملا فى كتاب : (أصول الوصول) ولكن لابد أن أبين ما الحاجة ماسة إليه، حتى لا يخلو هذا المختصر من أصل الأصول فأقول وبالله التوفيق :

العقيدة المأخوذة من كتاب الله تعالى وبيان رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ :

مأخذها كتاب الله تعالى، وبيان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وما قرره بعد ذلك أئمة الهدى رضوان الله عليهم، وقام بتدوينه أهل العلم المخلصون خدمة للأصل الأول من أصول الدين الذى هو رأس المال لكل مسلم، قال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1] وقوله سبحانه وتعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2] وقوله جل شأنه :﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [3] وقوله تعالى :﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[4] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ ((مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِٱللهِ شَيْئًا دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ))[5] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ((مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِٱللهِ شَيْئًا حَرَّمَهُ ٱللهُ عَلَى ٱلنَّارِ)) .

---

(١) سورة النساء آية ٤٨
(٢) سورة الأنبياء آية ٢٥ .
(٣) سورة الزمر آية ٣٨ .
(٤) سورة الزخرف آية ٩ .
(٥) هذا جزء حديث أورده ابن كثير فى تفسيره ، وقد رواه عن أبى ذر حث جاء فى الصحيحين بلفظ ((... ذلك جبريل عرض لى فى جانب الحرة فقال : بشر أمتك أنه من مات لايشرك بالله شيا دخل الجنة ، قلت : يا جبريل ،وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم ، قلت : وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم ، قلت : وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم ، وإن شرب الخمر)) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ص ١٩٥ ، المعارف.

وقد أجمع المسلمون جميعا عليها إلا ما اختلف فيه، والخلاف بينهم رضى الله عنهم فىأمور جزئية اقتضتها مقاماتهم من العلم بالله تعالى، وكلهم خائفون من الله سبحانه وتعالى، ومراتب الخوف متفاوتة، فالسلف الصالح رضوان الله عليهم خافوا وسلموا علم ما ورد ــ مما يقف العقل دون إدراكه ــ إلى الله تعالى، إجلالا لكلام الله تعالى الذى هو صفة من صفاته، والخلف خافوا فتأولوا ما ورد للوسعة فى ذلك، إجلالا للجناب المقدس أن تتصوره العقول، و ((إِنَّما الأعْمالُ بالنيَّاتِ))[1] وكلهم مؤمنون ،بذلوا وسعهم فى خدمة العلم وتقرير الحق والله واسع عليم، وإنى أحب الكل، وأسأل الله تعالى أن يتقبل أعمالهم بقبول حسن، وأن يغفر لى ولهم، وأحب أن كل مسلم يتعلم ويعمل، فإذا تعلم وعمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، وهذه هى العقيدة .

---

(١) هذا حديث متفق عليه ورواه الجماعة انظر البخارى باب بدء الوحى .

المبحث الثانى

تقديس اللّه تعالى

أشرح فى هذا الموضوع ما يجب على كل مسلم أن يعلمه علم يقين مما لا يسع المسلم جهله، حتى يستحضر الجناب المقدس العلى بنوع ما من الكمال الإلهى الذى يمكن للنفس الإنسانية الكاملة أن تكاشف به، فإن جهل تلك المعانى من هذا العلم نقص للإيمان أو محو له ـ نعوذ بالله تعالى ـ ولما كان ما أحب أن أشرحه تحت هذا العنوان قد اعتنى أئمة هذا العلم ببعض صفات منها لحكمة لا تخفى على مسلم، اقتديت بهم رضى الله عنهم فى أن أخص تلك الصفات بالذكر، وأعرف كل صفة منها، وأقيم الدليل بآى القرآن، ثم أسرد جميع معانى التتريه عقب ذلك.

والصفات التى اعتنى بها الأئمة فى مقام التتريه هى : الوجود ،والقدم، والبقاء ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه، والوحدانية .

١ـ الوجود:

الوجود هو التحقق والثبوت، ولما كان علم التوحيد ومعرفة صفات الله تعالى لايمكن أن يشهد إلا بعيون الإيمان، حتى تنكشف أسرار جلية بعد الإيمان للقلوب فتطمئن بذكر الله، لأن الاعتراف بوجود الله سبحانه وتعالى أمر بديهى، تجلت حقيقته للعقل بما ظهر من الآيات البديعة فى الآثار الجلية الناطقة بلسان حالها ومآلها أن قادرا بديعا حكيما واجب الوجود لذاته أبدعها من العدم، ودبرها بحكمة وقدرة، وأنشأها إنشاء .

فإن العقل إذا شهد سر ارتباط مراتب الوجود بعضها ببعض، واستعداد كل مرتبة لنفع خاص، وتأهل كل مرتبة لإظهار ما خصها الله تعالى به من الخصوصيات التى هى خاصة بها دون غيرها، لا يشرك معها غيرها فيها من أصغر ذرة فى الوجود إلى ما فوق العرش العظيم، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ۝الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ

حَسِيرٌ﴾(١) فكل العالم بأجمعه دلائل قاطعة على وجود صانع قادر حكيم، لا يجهل ذلك ذرات الثرى ،ولاما وراء العرش العظيم من الكروبيين وعوالم عالين، فإن كل مرتبة من مراتب الوجود ناطقة بحالها ومآلها بإثبات وجود الواحد المصور البديع الخلاق الرزاق سبحانه ،قال تعالى :﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٢) فالتكلم فى صفة الوجود ينبغى أن يكون بطريق تستنير به القلوب، وتزكو به النفوس، وتتروح به الأرواح .

وما نهج عليه علماء الكلام من البدع التى ابتدعوها والشبه التى فتحوا أبوابها على المسلمين لم يكن من الحكمة التى سجد العقل لأول نظرة نظرها فى هذا الكون البديع ،معترفا أن له محدثا أحدثه، وموجدا أوجده، وحكيما دبره، وقادرا أبرزه، وإنما بحث العقل عما يجب أن يكون لهذا الموجد واجب الوجود من الكمالات والجمالات والجلالات، وما الذى يقرب إليه من العبادات والمعاملات، وما الذى ينال به المسلم رضوان الله الأكبر من الأخلاق .

أما البحث فى أن الوجود عين الموجود أو غير الموجود، أو أن له صفة لها وجود أو صفة اعتبارية، وما يلزم على ذلك، مما أوجب العداوة والبغضاء بين أهل المذاهب والآراء، والتفريق بين جماعة المسلمين، حتى صار يذم بعضهم بعضا، ويكفر بعضهم بعضا، فكل ذلك من البدع فى الدين .

وهل بعد أن سجد العقل معترفا بوجود واجب الوجود نأتى فنبتدع تلك البدع التى جعلت المسلمين شيعا وأحزابا ؟ ! هل بعد أن خلق الله الإنسان، وقبل إبرازه فى الكون أهل الكون له، من شمس مشرقة بالنور والحرارة، وهواء مناسب لصحته، وماء نافع له، وأرض تنبت له النباتات، وحيوانات تعينه وتغذيه بألبانها ولحومها، يرجع الإنسان فيشك فى وجود هذا الصانع ؟ ! أو يفتح أبواب البدع فيقول : وجوده عين ذاته أو غير ذاته ؟ ! ما لأصول التوحيد وللخوض فى مثل هذه البدع ؟ ! .

ولو أنك سألت الإنسان الذى لا دين له، الذى تربى فوق شاهق جبل مع الأنعام الراتعة وقلت له : من الذى خلق السموات والأرض وخلقك ؟ لقال : موجود قادر حكيم، لا تدركه

(١) سورة الملك آية ١ ـ ٤
(٢) سورة الزمر آية ٣٨

الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . ولو سألت عابد الصنم : من الذى خلقك وخلق الصنم ؟ لقال : الله، ولو قلت له : لم تعبد الصنم ؟ لقال لك : ليقربنى إلى الله .

فوجود الله لا شك فيه عند كل طبقة من طبقات الناس، والله تعالى ليس كمثله شـــىء فى ذاته ولا فى صفاته ولا في أفعاله، فكيف يمثله شيء وهو ليس كمثله شيء ؟ تلك أنوار لا تشهدها إلا عيون الإيمان، ولا تكاشف بأنوارها إلا عيون الإحسان واليقين ،

وإنما العقل يعترف بواجب الوجود لما ظهر له من آياته وبيناته .

معنى صفة الوجود :

إذا تقرر ذلك، فما علينا إلا أن نبين معنى صفة الوجود بما بينه الله لنا فى كتابه العزيز، فقد ذكر الله تعالى من الآيات الدالة على وجوده وعظيم قدرته وبدائع صنعه ما فيه عبرة لمعتبر، وحجة قاطعة لمن أراد التقرب إليه سبحانه بمعرفة وجوده، فقال جلت قدرته : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُم بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعَالِمِينَ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾(١) .

وقال تعالى فى بدائع جوده وعلامات وجوده سبحانه :﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) .

وقال أيضا فى الآيات الدالة على وجوده جل وعلا : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ ۞ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۞ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ

(١) سورة الروم آية ٢٠ ـ ٢٥ .
(٢) سورة فصلت آية ٥٣ .

تَفَكَّهُونَ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (1) .

وقال أيضا فى الآيات الدالة على وجوده سبحانه : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (2) وقال سبحانه حاثا على التفكير فى مصنوعاته حتى يستدل بها على وجوده تعالى ومعرفة ذاته العلية : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (3) وقال أيضا فى العلامات الدالة على وجوده : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (4) .

وقال تعالى فى بيان طريق النظر الموصل إلى معرفته سبحانه ووجوده : ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (5) وقال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْأِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ (6) وقال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْأِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً﴿وَعِنَباً وَقَضْباً﴿وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ﴿وَحَدَائِقَ غُلْباً ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (7) .

هذه الآيات البينات المحكمات، والبراهين الناصعة الجلية، لم يحتج إنسان _ حفظه الله من المسخ _ بعدها إلى بحث وتنقيب لطمأنينة قلبه، ولكن من مسخهم الله فجعل منهم القردة والخنازير وعبدة الطاعوت وأضلهم وأعمى أبصارهم كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ

(1) سورة الواقعة آية ٥٧ ـ ٧٤ .
(2) سورة الذاريات آية ٢٠ ـ ٢١ .
(3) سورة الروم آية ٨ .
(4) سورة البقرة آية ١٦٤ .
(5) سورة الغاشية آية ١٧ _ ٢٠
(6) سورة الطارق آية ٥ _٨ .
(7) سورة عبس آية ٢٤ ـ ٣٢ .

أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [(١)] لم تتجل لهم أنوار تلك البراهين القدسية والدلائل الربانية، تجليا تطمئن به قلوبهم، فمـالوا عـن الإسلام بعقول مكسوفة بالهوى واتباع آبائهم، ولو أنهم صدقوا الله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ لكان خيرا لهم، والله غفور رحيم .

الإيمان سابق العلم :

قد سبق لنا أننا بينا الفرق بين العلم والإيمان فى كتاب : (معارج المقـربين) وقررنـا أن الإيمان سابق العلم، وأنه لا علم بعد الشك فى خبر الصادق، وكيف يكون ذلك وقد سجد العقـل للآيات التى أعجزته حتى تحقق صدقه ﴿ ﷺ وآله﴾ ؟ ! فلو أن الإنسان صدق الله تعالى ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾ لانشرح صدره، وتجلت له براهين الصفات ودلائل معانيها بالقرآن الشريف كمـا تتجلـى الشمس فى السماء الصافية، وكان طريق الصحابة رضوان الله عنهم أن يتعلموا الإيمان قبل القرآن، كما قال سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه : كنا نتعلم الإيمان قبل القرآن.

ومعنى ذلك أنهم كانوا يتعلمون كيف يصدقون الله ورسوله تصديقا يجملهم الله به بالعلم اليقينى، علم البيان والبرهان بأدلة القرآن وآياته البرهانية التى هى عين اليقين لأهل الإحسان ، وحق يقين لأهل الإيقان، أسال الله تعالى أن يتفضل علينا بالإيمان الذى يشرح صدورنا لفهم القرآن .

وليس وراء تلك البراهين العلية ما تطمئن به القلوب، وتسكن به النفـوس إلى منفسـها سبحانه، وهل بعد الحق إلا الضلال ؟ حفظنى الله وإخوانى المؤمنين من البدع المضـلة، والأهـواء المضلة، ومن الالتفات عن كتاب الله تعالى الذى ورد من الله، وعن سنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ التى هى الأمن فى الدنيا والآخرة .

هذا كله لا يجعل حيا يظن أنى أكره له تعليم العلوم الرياضية، التى ترتـاض بهـا الـنفس وتتأهل للنظر فى الكائنات نظر عبرة وفكرة، فإن تلك العلوم كلها طريق إلى مشـاهدة آيـات الله المنبلجة فى الكائنات، لا طريق إلى تصور الجناب المقدس بصورة ما والحكم عليه بما تقتضيه تلـك الصورة ، تنزه ربنا وتعالى علوا كبيراً عما يصفه الواصفون، وأشكر الله تعالى على ما مَنّ بـه مـن

(١) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

النور، وما تفضل به من الهدى، وأسأله سبحانه وتعالى أن يشرح صدرى وييسر أمرى ويحلل عقدة من لسانى ليفقهوا قولى .وهذه الآيات التى أوردناها فى مختصرنا هذا نور مبين لذى بصر يبصر، وسمع يسمع، وقلب يفقه، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ (١) رزقنا الله الهداية والنور، إنه مجيب الدعاء .

٢ _ القـــدم :

هو نفى سبق العدم على الوجود، وبعبارة أخرى : هو نفى الأولية للوجود ، أو : هو عدم الأولية، قال الله تعالى فى ثبوت تلك الصفة لنفسه سبحانه : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢) لم تكن تلك الصفة من الصفات التوقيفية وإن كانت وردت فى بعض الأحاديث بطرق حسنة، وإطلاقها على الله سبحانه وتعالى من جهة مدلولها الذى بيناه لا حظر عليه عند العلماء، وقد أشرقت أنوارها جلية لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٣) فمُشىء الشؤون سبحانه لم يشأ أن يجعلها شؤونا تتغير وتتحول إلا ليقيم الحجة على العقول أنه أزلى أبدى، لا افتتاح لأوليته، ولا بداية لأزليته، حتى سجد العقل بعد إشراق أنوار البرهان على أزليته سبحانه وتعالى، واعتقد أن كل محدث كائن بقدرة قادر وحكمة حكيم، مشهود محسوس، وكل مستنبط من الغيب معقول محسوس ،وأن واجب الوجود وحده هو الأزلى الصمد، الواحد الأحد، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٤) ومن نظر بعين الإيمان إلى هذا الخلق الجديد لم يحصل له لبس، ولكنه يحصل له اليقين الحق أنه ممكن محدَث، وأن محدِثه واجب الوجود أزلى لا افتتاح لأوليته، قديم لا افتتاح لأزليته .

ومن تعلم الإيمان قبل القرآن كانت آيات القرآن بردا وسلاما عليه، ومعراجا لوصوله إلى حضرة القدس الأعلى . ومن تعلم القرآن قبل الإيمان اعتورته الشكوك والريب، ونهج مناهج البدع، وحكم بعقله المكسوف على من ليس كمثله شيء، ونظر بعيون رمداء وآذان صماء وقلوب مقفلة إلى تلك الآيات المنبلجة أنوارها، المشرقة أسرارها، قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٥ .
(٢) سورة الحديد آية ٣ .
(٣) سورة الرحمن آية ٢٩ .
(٤) سورة ق آية ١٥ .

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (١) وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

٣ – البقـــاء :

هو صفة سلبية معبر بها عن سلب معنى لا يليق به تعالى، وهو عدم الآخرية .

وبعبارة أخرى : فهو نفى لحوق العدم للوجود، أو : هو نفى الآخرية، قال الله تعالى فى بيان أنه باق لا آخر له سبحانه أبدى لا نهاية له : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٤) تلك المعانى التى يعبر عنها بالصفات السلبية لا يشك فى إثباتها للجناب المقدس شاك مهما كان، ولو أنه من غير بنى الإنسان، فالبهيم الأعجم لو أننا أمكنا أن نفهم منه ويفهم منا، وسألناه عن إثبات تلك الصفات الكمالية لله تعالى، لأجابنا : هذا أمر بديهى، لا يسأل عنه حى يرزق، يحتاج فى كل نفس إلى معونة من مبدع الكون ومن بيده الإيجاد والإمداد سبحانه وتعالى .

ومن اعتور قلبه الشك والريب فأظلم أفق قلبه عن مكاشفة تلك الآيات الجلية، والأنوار الساطعة والأسرار المجلوة، لا يقع به العلم على عين اليقين، بل يهوى به الوهم فى مكان سحيق، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل لنا نورا نمشى به فى الناس، نشهد به آياته فى الآفاق وفى أنفسنا حتى يتبين لنا أنه الحق، إنه مجيب الدعاء .

٤ _ مخالفته تعالى للحوادث :

هى نفى المماثلة لها فى الذات والصفات والأفعال، فلا يماثله تعالى شىء منها مطلقا ،وبعبارة أخرى أنه تعالى لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود، ليس كمثله شىء . ولا هو مثل شىء،

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٣ .
(٢) سورة البقرة آية ١٦٤ .
(٣) سورة القصص آية ٨٨ .
(٤) سورة الرحمن آية ٢٦ _ ٢٧ .

قال تعالى منزها جنابه العلى عن الشبيه والمثيل : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (١) وقال تعالى أيضا فى نفى المثلية وتنزيهه سبحانه عن الشبيه والمثيل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢) وقال تعالى فى نفى صفات الحوادث عنه تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (٣) وقال الله تعالى فى نفى المماثل وتنزيهه عن الصاحبة والولد : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ۞ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ۞ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ۞ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ۞ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ۞ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾ (٤) وقال تعالى فى تنزيهه عن الخطأ والنسيان مما هو شأن الحوادث : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۞ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ۞ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ۞ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ۞ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى ﴾ (٥) وقال فى بيان أنه سبحانه مستغن عن كل من سواه وأن كل ما سواه مفتقر إليه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٦) كل تلك الآيات القرآنية برهانية للمؤهل لفهم البرهان وإقامة البرهان .

حقيقة بديهية :

إليك حقيقة من الحقائق بديهية : مبدعٌ قوىٌ قادر حكيمٌ أعجز العقول عن أن تحيط علما بخواص ما أبدعه من الكائنات، فضلا عن نسبة ارتباط كل مرتبة من مراتب الوجود وأخرى، وفضلا عن مكاشفة أسرار الحكمة المنبلجة فيها من كيفية رفع السماء بلا عمد ترونها، وانتثار الكواكب فى الجو الفسيح من غير أن يختل نظامها، أو تنحرف عن مدارها، أو تختلف نسبتها، وكيفية خلق الإبل وما بث على الأرض من دابة، وكيفية إنبات النبات وتصريف الرياح وتسخير

(١) سورة الإخلاص .
(٢) سورة الشورى آية ١١ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٥٥ .
(٤) سورة مريم آية ٨٨ _ ٩٥ .
(٥) سورة طه آية ٤٨ _ ٥٢ .
(٦) سورة فاطر آية ١٥ .

السحاب وجرى الأنهار، فضلاعن الآيات المنبلجة فى غضون تلك الكيفيات، مما يشهد سر سريان القدرة والحكمة فىكل كائن من الكائنات، فضلا عن معانى التجليات التى هى كمالات مقتضى الأسماء والصفات ،فضلا عن أنوار الأسماء والصفات عن تعليق الأسماء والصفات بالذات، فضلا عن كمالات الذات الأحدية، فإذا عجز العقل عن الخصوصيات المسخرة له فى الكائنات لنيل كمالاته، ومما يتنعم به فى دنياه وينتفع به فى حياته، فكيف يدرك العقل كمالات الذات ؟ أو يحكم أن لها نظيراً أو مثيلا تمثل به أو تشبه به ؟ تنزهت وتعالت علوا كبيرا .

وكل حى من بنى الإنسان ــ ولو كان ناقص العقل ــ لايشك فى أن ممد الكون بالإيجاد والإمداد لا يماثل شيئاً منه أو يشبهه، تعالى الله علوا كبيرا، قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١). أساله سبحانه وتعالى أن يواجهنا بأنواره مواجهة تسكن بها نفوسنا إلى جنابه العلى، وتطمئن بها قلوبنا بذكره، ويعيننا به سبحانه حتى نكون من الذاكرين الفاكرين الحاضرين فى معيته سبحانه وتعالى، حتى لا نتيه فى مهاوى الأهواء والضلال وتحجبنا الأوهام عن الآيات الجلية، إنه مجيب الدعاء .

٥- قيامه تعالى بنفسه :

معناه سلب افتقاره إلى شىء من الأشياء تنزه وتعالى، فلا يفتقر سبحانه إلى ذات سوى ذاته، يوجد فيها كما توجد الصفة فى الموصوف، وهو الغنى عن كل من سواه، المغنى لكل من عداه، والله تنزهت ذاته، وتقدست صفاته، ذات موصوفة بجميع صفات الكمال والجمال والجلال، وليس جل وعز صفة تحتاج فى ظهورها إلى القيام بالغير، كما زعم النصارى الذين قادهم الشيطان فقالوا : إن الله مركب من ثلاثة أقانيم، أقنوم الوجود ويعبرون عنه بالآب، وأقنوم العلم ويعبرون عنه بالابن، وأقنوم الحياة ويعبرون عنه بروح القدس، ويعنون بالأقنوم الصفة، والصفة لا تقوم بنفسها، ويقولون : إن أقنوم العلم الذى هو جزء الإله انتقل لجسد سيدنا عيسى عليه السلام

(١) سورة الزمر آية ٦٧ .

وامتزج به فاتحذ اللاهوت (١) بالناسوت (٢) . وما أبلد هؤلاء حيث ادعوا أن العلم إله ،والوجود إله، والحياة إله، ثم صار مجموع الأقانيم الثلاثة إلها واحد !!!.

وهنا يحسن بى أن أذكر ما ورد : بعد أن رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء، خاف أصحابه من اليهود فاختفوا منهم، فجاءهم إبليس – لعنة الله عليه – فقال لهم :ماذا تقولون فى المسيح ؟ فقالوا : نقول عنه : إنه رسول الله أرسله الله يبين لنا ما اختلفنافيه، ويهدينا الله به إلى الحق، فقال الشيطان لعنة الله عليه : إنى سائلكم فأجيبونى، فقالوا : من أنت ؟ فقال : إنى رجل آمنت بالمسيح وصدقت به فقال لهم : الذى خلق آدم من الطين ماذا يكون ؟ قالوا : إلها، قال : والذى يجعل الأكمه بصيرا ماذا يكون ؟ قالو : إلها، قال : والذى يحى ويميت ماذا يكون ؟ قالوا : إلها، قال : والذى يشفىمن الأمراض ماذا يكون ؟ قالوا : إلها، قال : فالمسيح فعل كل ذلك فهو إله.

فصدقه أكثرهم، وكان الحزن على المسيح والشوق إليه شديدين، وانزعج بعضهم لما يعلمه من اعتراف المسيح بأنه عبد، ومن تتريهه للجناب العلى .

فخشى إبليس لعنة الله عليه أن يتأثروا بمن أنكر منهم فيخيب فى سعيه، فقال لمن انزعجوا : ماذا تقولون فى المسيح ؟ هل الإنسان الذى خلق من الطين طيرا ونفخ فيه فصار حيا يمكنه أن يفعل ذلك بإنسانيته ؟ و لم يفعل ذلك إلا الإله سبحانه الذى خلق آدم من الطين ونفخ فيه، فماذا تقولون أنتم فى المسيح ؟ أنا أقول: إن المسيح حل فيه الإله، فصدقه بعض المترعجين وقالوا: حل فيه الإله .

وأنكر رجل منهم كان مؤمنا فقال له إبليس: هذه الأعمال لا يعملها إلا الإله،والمسيح لا أب له، إذاً فأبوه الله .

فأضلهم لعنة الله عليه، فصار بعضهم يقول: هو الإله، وبعضهم يقول: حل فيه الإله، وبعضهم يقول : هو ابن الله .

---

(١) اللاهوت : الروح .
(٢) الناسوت : الجسم .

وتتره مبدع الكون الذى وسع كرسيه السموات والأرض، أن يحيط بعظمتـه وكبريائـه وجلاله عرش أو كرسى، فضلا عن جسد إنسان يحيط به الثوب من المنسوج القطنى .

ولو أن الإنسان نظر نظرة بعقل صحيح من أمراض التقليد والتعصب للآباء لوقع به العلم على عين اليقين، واهتدى إلى تتريه الحق سبحانه وتعالى عن أن يجعل له نظيرا أو مثيلا أو والـدا أو ولدا، تعالى الله علوا كبيرا، ولا نجلت له الحقيقة بأجلى مظاهرها وتحقق أن الجناب المقـدس غـنى بذاته عن الاحتياج إلى المكان والزمان المخصص، قائم بذاته سبحانه وتعالى قيلما لا يعلمـه غـيره سبحانه، من لا يعلم قدره غيره، ولا يبلغ الواصفون صفته.

اللهم إنى أشهدك أنى آمنت بالصفات كما وردت، وكما وضحتها فى كتابك سبحانك، وبينها حبيبك ورسولك ﴿ ﷺ وآله﴾، اللهم إنى أسألك أن تحفظنى من الشرك الخفى، ومـن كـل ضلال وغى، إنك مجيب الدعاء.

٦- الوحـدانيـة:

هى نفى الكمية المتصلة والمنفصلة، ونفى الشريك فى الأفعال عموما، أو بعبارة أخرى: هى عدم التعدد فى الذات والصفات والأفعال، فالله سبحانه وتعالى واحد فى ذاته، واحـد فى صـفاته، واحد فى أفعاله، قال الله تعالى مشيرا إلى تفرده سبحانه فى الذات وعـدم الشـريك والمعـين لـه سبحانه:﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى فى بيان وحدانيته وتفرده سبحانه بالإيجاد مستدلا علـى ذلـك بمصـنوعاته ومخلوقاته: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَـرَارًا وَجَعَـلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُـونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّـهِ قَلِيلًـا مَّـا تَذَكَّرُونَ ۞أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّـعَ

(١) سورة الأنبياء آية ٢٢.

اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

وقال تعالى فى بيان وحدانيته تعالى فى الذات والصفات والأفعال: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾(٢) وقال جل ثناؤه فى بيان وحدانيته وصمدا نيته تعالى ونفى كونه والداً أو مولودا وتتريهه عن المكافىء والمماثل: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد ﴾ (٣) وقال جل وعلا فى نفى اتخاذه الولد والشريك وإقامة الدليل على ذلك: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٤) وقال جل شأنه ردا على بطلان دعوى من يقول بوجود آلهة غير الله تعالى:﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (٥) وقال تعالى فى عدم فلاح من أشرك مع الله تعالى غيره فى العبادة : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٦) .

هذه الدلائل نور مشرق، يمحق ظلمات الأوهام، وظلال الخيال الحاجبة عن مشاهد غيب الوحدانية عن القلوب المطمئنة بذكر الله تعالى، والنفوس الساكنة إلى الله تعالى، ونار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة فتحرق رجس الشرك الخفى ورجز الشكوك والريب، حتى تستعد النفوس للفلاح والفوز بمشاهدة أنوار وحدة واجب الوجود سبحانه، ومشاهدة أسرار حقيقته فى الذات والصفات والأفعال ، حتى يتجمل العبد بحق يقين أهل لا حول ولا قوة إلا بالله، ويكون من أهل عين يقين من شهدوا ملكوت ربهم فى السموات والأرض، بقدر ما تفضل الله به على المسلمين من سر قوله

(١) سورة النمل آية ٦٠ ـ ٦٤ .
(٢) سورة الفرقان آية ١ ـ ٣ .
(٣) سورة الإخلاص .
(٤) سورة المؤمنون آية ٩١ .
(٥) سورة الإسراء آية ٤٢ ـ ٤٣.
(٦) سورة المؤمنون آية ١١٧ .

تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾(١) ونور قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٢) وليست الحيرة فى دلائل الوحدانية لأنها جلية ناصعة بينة، وإنما حيرة المؤمن ودهشته فى غرائب كمالات القدرة، وعجائب جمالات الحكمة، ومعانى صفات الربوبية .

التوحيد هو رأس المال :

رأس المال فى الحقيقة إنما هو التوحيد، ومن لم يستنر قلبه بنور التوحيد حقا ؛ ويتطهر من كل شوائب الشك والريب، والحكم على الحق بما تقتضيه أحوال الخلق ؛ كان قلبه خربا من أنوار التوحيد مؤهلا لنفثات الشيطان الرجيم، ومتى أشرقت شمس التوحيد فى أفق لطائف القلب شهدت عين القلب أسرار ما فى السموات والأرض، وشهدت ملكوت الرب سبحانه، وحكمة النبوات، وشهدت سر فضل القضاء ،والجنة والنار، قال الله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣) وقال سبحانه : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ (٤) .

كل تلك المشاهد العلية والمكاشفات الملكوتية نتيجة من نتائج نور التوحيد المشرق على القلب، وآية من آيات التنزيه المبينة لسبل الله تعالى، ومتى تجمل القلب بنور التوحيد أشرقت أنوار الحكمة والمعرفة على الجوارح المجترحة والأعضاء العاملة، فنطق اللسان بالحكمة العالية، وشهدت عيون الرؤوس الآيات المنبلجة فى الآثار، وصغت أذنا الرأس إلى نغمات تسبيح الأكوان، وشم الأنف شذا عبير نسيم الآيات، وبسطت اليدان بالعمل فى طاعة الله، وثبتت القدمان فى مواطن البأس، إحياء لكلمة الله سبحانه وتجديد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحفظت البطن من أن يصل إليها ما حرم الله تعالى، وحفظ الفرج من معصية الله، فكان نور التوحيد فى القلب حصنا حصينا من الوقوع فى معصيته، وتلقى القلب بنور التوحيد عن الله ما به يكون هاديا مَهْدِياً راضيا مَرْضِياً .

(١) سورة الحج آية ٧٨ .
(٢) سورة الأنعام آية ٧٥ .
(٣) سورة الزمر آية ٦٩ .
(٤) سورة التكاثر آية ٥ ـ ٧ .

هذه بعض نتائج التوحيد عن عين اليقين، فإذا بلغ التوحيد حق اليقين لا تفى العبارة بشرح حالة المتحقق بهذا المقام، وكيف تفى العبارة ببيان أحوال من رفع الله قدرهم، وقربهم منه سبحانه قربا حتى طوى سره عن العقول ؟ قال تعالى : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ذنوب من كمل التوحيد فى قلوبهم :

ولا تجد مسلما كمل التوحيد فى قلبه يعمل صغائر الذنوب ــ فضلا عن كبائرها وإن وقعت منهم الذنوب فإنما تحصل منهم لا لأنها ذنوب قاموا بها مخالفة للحق، وإنما تحصل منهم لتأويل تأولوه اجتهادا منهم معتقدين أن عملهم هذا هو الحق، فيقعون فى المعصية من حيث لا يعلمون أنها معصية، فإذا تذكروا أبصروا خطأهم فتابوا إلى الله، وأنابوا إليه مسلمين، فقبل الله توبتهم، وإلا فهم ليسوا بمعصومين من الخطايا، ومن هنا تفهم سر معصية أبينا آدم عليه السلام، فإنه ما ارتكب المعصية إلا متأولا مجتهدا فغفر الله له وقَبِله، ولكن معصية إبليس كانت عن قصد، والمؤمن لا يقع فى معصية الله إلا متأولا أو فاقدا الإدراك، لأن كمال التوحيد يقتضى شهود الحق سبحانه، قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ (٢) فالتصديق بهذه الآية الشريفة يؤدى إلى العلم بأسرارها، والعلم بأسرارها يؤدى إلى مشاهدة أنوارها، ومشاهدة أنوارها حصن الله وحفظه لعبده، قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٣) .

ميزان التوحيد :

إنما يوزن الرجال بميزان التوحيد، فمن رأيته متساهلا فى دينه فاعلم أنه لم يبلغ من التوحيد درجة يحفظه الله بها، قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٥) هذا ما يمكن أن يسطر فى مثل هذا المختصر ترويحا لأرواح الواصلين، وريحانا لنفوس السالكين، وزجرا

(١) سورة السجدة آية ١٧ .
(٢) سورة المجادلة آية ٧ .
(٣) سورة الأنعام آية ٨٢ .
(٤) سورة العنكبوت آية ٢ .
(٥) سورة محمد آية ٣١ .

لأهل الغواية المدعين، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمنحنا اليقين حتى نكون على كمال التوحيد والتنزيه والتجريد، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تقديس الجناب المقدس عما لا يليق به سبحانه :

الله جل جلاله وتقدست ذاته وصفاته وأسماؤه، واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا ضد له، متوحد لا ند له، وأنه قديم لا أول له، أزلِيٌّ لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدِيٌّ لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآماد وانقراض الآجال، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، وأنه تعالى ليس بجسم مصور، ولا جوهر محدود مقدر، وأنه لا يماثل الأجسام لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام، وأنه تعالى ليس بجوهر ولا تحله الجواهر، ولا بعرض ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجودا، ولا يماثله موجود، وليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء .

وأنه تعالى لا يحده المقدار، ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه السموات، وأنه مستو على العرش على الوجه الذى قاله، وبالمعنى الذى أراده، استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والتحول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون فى قبضته، وهو فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء، بل هو رفيع الدرجات على العرش كما أنه رفيع الدرجات على الثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ،وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام .

وأنه تعالى لا يحل فى شيء، ولا يحل فيه شيء، تعالى عن أن يحويه مكان، كما تقدس عن أن يحده زمان، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان، وأنه تعالى بائن بصفاته من خلقه ،ليس فى ذاته سواه، ولا فى سواه شيء من ذاته . وأنه تعالى مقدس عن التغيير والانتقال، لا تحله الحوادث، ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال فى نعوت جلاله منزها عن الزوال . وأنه تعالى فى ذاته معلوم الوجود بالعقول، مرئى بالأبصار نعمة منه ولطفا بالأبرار فى دار القرار، وإتماما للنعيم بالنظر إلى الوجه الكريم .

هذا ما يمكن أن يسطر على صفحات الأوراق مما يقرب للعقول فهمه، وتطمئن به القلوب، وترتاح له النفوس، وما وراء ذلك من شهود عين اليقين ومكاشفات حق اليقين لا تفى به عبارات أهل التعبير، ولا إشارات أولياء الله المقربين، لأنه من غوامض أسرار عجائب القدرة وغرائب الحكمة، وغيب كمالات الذات الأحدية، وجمالات صفاتها العلية، وجلال أسمائها المقدسة الصمدية .

ومن سبقت له الحسنى من الله تعالى لحظته عين العناية فعمل بما علم، فإذا عمل بما علم ورثه الله من غوامض تلك الأسرار علم ما لم يعلم، قال سيدنا أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام : (إنَّ فى صدرِى هذا لَعُلوماً لو أبحثُ بها لقُطع مِنِّى هذا الحلقوم) وقال سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه : (ملأتُ من رسولِ الله ﴿ ﷺ وآله﴾ جرابين بثثت فيكم أحدَهما ولو بثثتُ الآخرَ لقطعتُم ما بين كتفى) وأسرار الغيب المصون حظر أن تباح إلا للأرواح، أو تكشف إلا لمن زكت نفسه، قال الله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ (١) .

أهل الملكــوت :

والمريد المخلص الصادق إذا تجمل بمعانى ما وضحت، وصدق الله ورسوله والأسرار التى بينت، كان مؤهلا لشهود الأنوار التى لا تتجلى فى المُلْكِ لمن وقفوا عنده، ولكنها تلوح لأهل الملكوت، وأهل الملكوت قليلون، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ وقال تعالى : ﴿ اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٤) فمن سبقت له الحسنى بفضل الله تعالى أخرجه الله سبحانه من كون الفساد أو الظلمة إلى فسيح الملكوت الأعلى، فشهد من عجائب

---

(١) سورة الشمس آية ٧ـ ٩ .
(٢) سورة الأنعام آية ٧٥ .
(٣) سورة العنكبوت آية ٦٩ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٥٧ .

القدرة وغرائب الحكمة ما ينجذب به قلبه إلى حضرة القدس الأعلى، ويفر إلى الله سبحانه، قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [1] .

ومن قصر به العزم عن أن يذوق حلاوة العقيدة كما وضحت، وحجبت عنه الأسرار، ورأى غيره قد مَنَّ الله سبحانه عليه بمشاهد تلك الأنوار حتى تبين له الحق، فعليه أن يجاهد نفسه فى ذات الله تعالى حتى يكاشف بأسرار هذا الكون من أنوار المُكَوِّنِ سبحانه، ولأهل هذا المشهد علامات جمعها الله فى كتابه العزيز، قال تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [3]. وقد بينت جملا فى الطريقة المستقيمة ووضحت ما ينبغى أن يكون السالك عليه الراغب فى نوال فضل الله الأكبر فى كتاب : (معارج المقربين)، وألمعت فيه إلى تزكية النفوس ومعرفة أمراضها، وطريق إعادة الصحة لها وحفظها عليها، فمن مالت نفسه أن يكون من أهل هذا المشهد العلى فليتعلم، وليجاهد نفسه عاملا بسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ (مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ وَرَّثَه اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [4] والله سبحانه أسأل أن يجعل لنا نورا نمشى به فى الناس يستبين لنا به الحق إنه مجيب الدعاء .

صفات المعانى السبعة :

هى : القدرة، والحياة، والعلم، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام .

١ـ القـدرة :

هى صفة قديمة يوجد الله بها ما يشاء أن يوجده، ويعدم بها ما يشاء أن يعدمه وفق إرادته، قال تعالى فى بيان آثار قدرته تعالى فى مخلوقاته : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

(١) سورة الذاريات آية ٥٠.
(٢) سورة البقرة آية ١١٥ .
(٣) سورة الأنفال آية ٢ ـ ٤ .
(٤) رواه أبو نعيم عن أنس ، ورواه الغزالى فى الإحياء فى باب آفات العلم ج ١ ص ٧١ .

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ۝ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (١) وقال جل وعلا فى إثبات كمال قدرته تعالى وعجز ما سواه وأنه مستحق للعبادة دون سواه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ۝ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢) وقال جلت قدرته فى بيان كمال قدرته بما أودعه فى عالم المخلوقات من أرض وسماوات وإحياء ونبات وفلك وأفلاك وليل ونهار ورياح وسحاب من العبر والآيات :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٣) وقال تعالى فى بيان كمال قدرته وتمام عظمته: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْس بَعض انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (٤) .

وقال جل شأنه فى بيان كمال قدرته وعجز من سواه وفيه الرد على منكرى البعث :﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ (٦) وقال تعالى فى بيان كمال قدرته وخلقه الإنسان من الماء : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾(٧)وقال تعالى فى بيان قدرته وأنه إذا أراد فعل

(١) سورة ق آية ٦ ـ ١١.
(٢) سورة الحج آية ٧٣ ـ ٧٤ .
(٣) سورة البقرة آية١٦٤ .
(٤) سورة الأنعام آية ٦٥ .
(٥) سورة الأحقاف آية ٣٣ .
(٦) سورة النبأ آية ٦ ـ ١٦ .
(٧) سورة الفرقان آية ٥٤.

فعل أى شىء لا يمكن غيره أن يعارضه أو يمانعه : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ۞ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١).

هذه الآيات نور مشرق على قلوب جملها الله بعيون البصيرة شهدت عجائب القدرة وغرائب تصريفها فى الكائنات، فاستبان به للبصائر غيب القدرة، فانجذب العبد المتجمل بعيون البصيرة إلى جناب القدس الأعلى فارا من جانبه، وتحقق كمال اضراره واحتياجه إلى القادر سبحانه وتعالى، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، تحققا جعله عدما فى عين نفسه، موجوداً بقادر حكيم، وأن الكون وما فيه سر من أسرار قدرة الله تعالى، وفيض عميم من فضل قدرته تتره وتعالى .

شهد المؤمن من تلك الآيات العلية التى رفعت له الستارة عما انطوى فى هذا الكون الفسيح من أسرار الرب الفريد، فتحقق كمال التحقيق بوحدانية الله ذاتاً وصفة وفعلا، وقد تشرق عليه من وراء حجب الكائنات أنوار سريان القدرة، حتى قد يقوى هذا النور فيجعله لا يشهد شيئاً من الموجودات إلا ويذوق حلاوة الإيمان بوحدانية الله ذاتاً وصفة وفعلا، وقد يقوى هذا النور فتنبعث أشعته على الكائنات فتحجب الكون وما فيه عن عين المشاهد، فلا يرى إلا قدرة قادر مريد، فيغيب عن نفسه وحسه وعن كونه، وهو المجذوب إلى حضرة القدس بسابقية الحسنى، وهو الناقص فى عين العارف لغيبته عن شهود الحكمة وتدبيرها، حتى إذا أشرقت عليه أنوار الحكمة أثبت ما أثبت الحق فشهد المرتبتين بنور اليقين، رتبة ممكن الوجود من الكون وما فيه، ورتبة واجب الوجود سبحانه، فيكمل كمالا يجعله عبدا صرفا لا يغيب عن معية الله تعالى، ولا يغيب الله سبحانه عنه، فلا تقوى أنوار القدس عليه فتحجب الخلق عن عين رأسه، ولا الكائنات المحسوسة فتحجب أنوار الحق عن عين بصيرته، وهو الفرد الكامل المشاهد للحضرتين بالحضرتين .

فوق الأنوار أسرار :

ووراء تلك الأنوار أنوار، وفوق تلك الأنوار أسرار لا ينبغى للعارف أن يسطرها فى الأوراق، وفيما أشرنا إليه كفاية لأولى الألباب، وإنما هى غوامض أسرار القدرة، وخفى غرائب الحكمة لا تشهد بعين البصيرة، ولا تكاشف بعيون السريرة، وإنما هى أنوار تواجه الروح التى هى

(١) سورة الأنعام آية ١٧-١٨.

نفخة الرحمن، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (كُنْ مَعَ ٱللّهِ ترَ اللّهَ مَعَكَ) . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (١) وليست تلك الأسرار ــ وإن خفيت ــ والأنوار ــ وإن غمضت ــ بشيء يذكر فى جانب ما وراء ذلك من أنوار الكمالات الذاتية، وغيب غوامض مجلى الذات الأحدية ﴿ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢) ومن حرم العيون التى تشهد آيات القدرة فى الكائنات فهو بهيم وأضل، يتمنى يوم القيامة أن يكون ترابا، أعوذ بالله من العمى فى هذه الدار الدنيا، وقال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (٣) أسأله سبحانه أن يجعل لنا نوراً نمشى به فى الناس إنه مجيب الدعاء، وأن يهدينا الله وإياك يا أخى صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

٢ــ الحيـــاة :

الحياة هى صفة قديمة ذاتية لله عز وجل، قال تعالى فى إثبات صفة الحياة له عزوجل : ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤) وقال تعالى فى إثبات أنه حى لا يموت : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾(٥) .

تفصيل ذلك أنه تعالى حى قادر، جبار قاهر، لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت، وأنه ذو الملك والملكوت، والعزة والجبروت، له القدرة والسلطان والقهر، والخلق والأمر، والسموات مطويات بيمينه، والخلائق مقهورون فى قبضته، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع، المتوحد بالإيجاد والإبداع، خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا يشذ عن قبضته مقدور ،ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور، لا تحصى مقدراته، ولا تنتهى معلوماته . .أنوار تلك الآيات جلية لأن مفيض الحياة على هذا الكون يفيضها فضلا منه سبحانه وكرما، لا لحاجة إليها لغناه المطلق سبحانه عن كل من سواه، وافتقار كل من عداه إليه سبحانه،

(١) سورة النحل آية ١٢٨ .
(٢) سورة البقرة آية ١٠٥ .
(٣) سورة الإسراء آية ٧٢ .
(٤) سورة غافر آية ٦٥ .
(٥) سورة الفرقان آية ٥٨ .

برهان حق على أن مفيض الحياة هو الحى القيوم، وممد هذا الوجود الممكن بالحياة حى أبدى أزلى، إذ حياة كل رتبة من المراتب بقدرها، فالحياة الممكنة مقيدة بالنسبة لما قامت به ومن قامت به، ومفيض الحياة وممد الكائنات حياته ليس كمثلها شىء، وإنما جعلت الكائنات لتشرق أنوار الحى القيوم على القلوب، فتشهد عيون السر أن ممد الكون بالحياة حى حياة لا تتصورها الخيالات، ولا تدركها عيون البصائر ،ولا تحيط بكنهها الأرواح الطاهرة الملكية .

وصفات الله سبحانه وتعالى تُعلم لنا بقدر ما نشهد من معناها المتجلى لا بقدر ما هى عليه فى نفس الأمر، إذ ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى، وما على المؤمن الكامل إلا أنيقول : آمنت بمعانى الصفات كما وردت .

وإذا كان كلام الله الذى نتلوه ليلا ونهاراً لا يعلم تأويله إلا الله سبحانه وقد تعبدنا به سبحانه وتعالى، فكيف يمكن لعيون السريرة ــ وإن أشرقت بكمال التوحيد ــ أو لعيون الروح ــ وإن واجهت وجه العلى الكريم ــ أن تدرك معنى من الصفات و قد قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ﴾ [1] وهو كلام متلو مقروء، وقال تعالى مخبرا عن أحبابه المقربين : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ ﴾ [2] فاللهم أشهد أنى بحول منك وقوة عقدتُ قلبى على أنك حى أبدى بما أشهدتنى من فيض الحياة التى تفضلت بها علّى وعلى كل موجود، وأنى أعتقد حق الاعتقاد أن صفاتك سبحانك لا يعلمها علماً حقيقيا على ما هى عليه فى نفس الأمر إلا أنت سبحانك، وأعوذ بك اللهم من غفلة تجعلنى أبحث بقوة فكرى أو بعيون سرى عن دليل يثبت صفة من صفاتك، بعد أن أَثْبَتَّ ذلك بكلامك المقدس، وأظهرت لعيون السر من آثار قدرتك ومعانى تجليات صفاتك، فأعنِّى اللهم على العمل بما عَلّمْتنى لينكشف لى علم ما لم أعلم، أنك مجيب الدعاء .

٣ ــ العــــلم :

هو صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض، قال تعالى فى إثبات العلم له سبحانه و لو بأخفى الخفيات حتى بما يهجس على خاطر الإنسان وتوسوس به نفسه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا

---

(١) سورة آل عمران آية ٧ .
(٢) سورة آل عمران آية ٧ .

تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [١] وقال تعالى فى بيان كمال علمه بدلالة الخلق عليه: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ۞ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [٢] وقال تعالى فى بيان أنه سبحانه عالم بكل شىء فى السماء والأرض حتى الحديث الذى يسره المرء لأخيه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم ﴾ [٣] وقال تعالى فى ذكر أنه سبحانه عالم بالإنسان فى حال كونه جنينا فى بطن أمه وفى حال نشئه: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [٤] .

تفصيل ذلك أن الله سبحانه وتعالى عالم بجميع المعلومات، محيط بما يجرى فى تخوم الأرضين إلى أعلى السماوات، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ،بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر فى جو الهواء، ويعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر، بعلم قديم أزلى لم يزل موصوفا به فى أزل الآزال، لا بعلم متجدد حاصل فى ذاته بالتحول والانتقال .

أنوار صفة العلم :

إذا لاحظت عين العناية الإلهية عبداً فوقعت به عين اليقين على معنى صفة العلم الإلهى ؛ وتمثل تلك الصفة المنزهة بمعنى ما من معانيها التى تليق بكمالاتها ؛ كان العبد المشاهد تلك المعانى فى معية ربه حاضرا لا يغيب، متجملا بجمال أهل المراقبة، وكيف لا ؟! والمؤمن الذى يعتقد أن الله يعلم السر وأخفى يسارع إلى أن يعمل ما يرضى ربه عنه الذى يعلمه فى كل حال من أحواله، ويتباعد عن معاصيه وعن مواطن سخطه ومقته لأنه يعلم أنه يعلمه ويراه، ويكره أن يراه ربه سبحانه حيث يكره أن يراه فى مواطن مخالفة أمره ومعصيته كما يكره أن يقذف به فى نار جهنم، وإن جهنم أخف على المؤمن المتمكن من معصية الله تعالى، وكيف لا؟! وهو عند المعصية إذا تحقق

---

(١) سورة ق آية ١٦.
(٢) سورة الملك آية ١٣ ـ ١٤ .
(٣) سورة المجادلة آية ٧ .
(٤) سورة النجم آية ٣٢ .

بأن الله يراه فيها ويعلم به فيها يشعر بأنه استهان بربه فخالف أمره، وهو يعلم قدر عظمة ربه وقدر موجبات غضبه وسخطه، فالمؤمن يتمنى أن يكون فى نار جهنم ولا يقع فى معصية الله ومخالفة أمره، لأن غضب الله وسخطه أشد عليه من عذاب جهنم، والجاهل بهذا المقام لا يخاف مقام ربه ولكن يخاف عذاب ربه، فقد يقع فى المخالفة لنسيان يوم الحساب، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (1) وقال تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ (2).

فمن كان خوفه من المنتقم القهار الكبير المتعال، كان فى حصون الأمن من الوقوع فى المخالفة، ومن كان خوفه من عذاب النار والحرمان من الملاذ والشهوات قد ينسى — لما ينال من ملاذ الدنيا وزهرتها الفانية — نعيم الآخرة، فيقع فى المخالفات وينسى العقوبات حتى يلقى فى هوة النار، نعوذ بالله من جهل مقام ربنا ومن نسيان يوم الحساب .

نتج من هذا أن الموقن بصفة العلم لله القادر، المتحقق بأن الله يعلم سره ونجواه ،ويعلم ما توسوس به نفسه، ويعلم أنه معه حيث كان وكيف كان، لا يتعدى حدود الله، ولا يعمل ما يخالف سنن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، واللص لا يسرق المتاع إلا إذا غاب صاحبه، والرجل لا يأتى زوجته أمام ابنها حياء منه، فكيف يعمل المؤمن المعصية مع علمه بأن الله معه ويعلم سره ونجواه ولا يخاف جلاله ولا يخشى عظمته وكبرياءه ؟! . فالمرتكب المعصية نسى يوم الحساب، وجهل معنى صفة العلم لله، أعوذ بالله من جهل يوقع فى معصية الله، ومن نسيان يلقى صاحبه فى هوة النار يوم القيامة، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يشهدنى أنوار صفة العلم حتى لا تحجب عين بصيرتى عن شهوده معى سبحانه، فأكون مراقباً لجلاله، حاضراً معه سبحانه، حييا منه سبحانه، راهباً عظمته، راغباً فى فضله العظيم .

---

(1) سورة ص آية ٢٦ .
(2) سورة الجاثية آية ٣٤ .

٤ـــ الإرادة :

هى صفة قديمة تخصص الممكن بالوجود أو بالعدم، وبالطول أو القصـــر، وبالحســـن أو القبيح، وبالعلم أو الجهل، إلى غير ذلك من الشؤون والأحوال، قال جل ذكره سبحانه فى بيان أنه تعالى مالك الملك يتصرف فى ملكه كيف يشاء وفق ما أراد وقدر : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَاب ﴾ [١] .

وقال تعالى فى بيان أنه فاعل مختار يتصرف بقدرته البالغة حد النهاية ما شاء و كيف شاء : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّـــهِ شَـــيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَـــا بَيْنَهُمَـــا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٢] .

وقال تعالى فى بيان أنه حكيم فى صنعه يفعل بحكمته واختياره ما تقتضيه إرادته ومشيئته حسبما تقضى به المصلحة : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّـــا يَشَاء إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [٣] .

وقال جل ثناؤه فى بيان كمال إرادته وعظيم قدرته : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [٤]. وقال تعالى فى بيان أنه فاعل مختار يفعل ما يشاء أن يفعله بمقتضى إرادته ومشيئته : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَـــلُ مَـــن

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) سورة المائدة آية ١٧ .

(٣) سورة الشورى آية ٢٧ .

(٤) سورة يس آية ٨٢ ـ ٨٣ .

يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (١) وقال سبحانه وتعالى فى بيان أنه فاعل مختار : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) وقال جلت قدرته فى بيان أن خلقة الإنسان وتصويره فى الرحم على صورة متنوعة و أشكال متباينة إنما هو بمحض إرادته ومشيئته : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٣) .

وقال سبحانه فى كمال تتريهه عن الولد ، وكمال اختياره: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٤) .

وقال جل شأنه فى بيان أن الهداية والضلال إنما هما بمحض إرادته ومشيئته: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٥) .

وقال تبارك اسمه فى بيان أنه إذا تعلقت إرادته تعالى بإهلاك قوم سلط عليهم أنفسهم بالفسق ومخالفته تعالى فيما أمر به ونهى عنه : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الشورى آية ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) سورة القصص آية ٦٨ .

(٣) سورة آل عمران آية ٦ .

(٤) سورة الزمر آية ٤ .

(٥) سورة الأنعام آية ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٦) سورة الإسراء آية ١٦ .

تفصيل ذلك أن الله تعالى مريد للكائنات ، مدبر للحادثات ، فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل ولا كثير ، ولا صغير ولا كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، إيمان أو كفر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسر ، زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره ، وحكمه ومشيئته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد ، لاراد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة له على طاعته إلا بمعونته وإرادته ، لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته عجزوا عن ذلك ، وأن إرادته قائمة بذاته فى جملة صفاته ، لم يزل كذلك موصوفا بها ، مريداً فى أزله لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدرها ، فوجدت فى أوقاتها كما أراد فى أزله من غير تقدم ولا تأخر ، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير ، دَبَّر الأمور بلا ترتيب أفكار ، وتربص زمان ، فلذلك لا يشغله شأن عن شأن .

كمال اليقين بمعانى إرادة الله :

المؤمن المتحقق بأنوار صفة إرادة الله تعالى متجمل بحلة الرضا عن الله سبحانه لاعتقاده أن كل الأمور والشؤون والأحوال بإرادته سبحانه وبتقديره أزلا ، فيكون منشرح الصدر بمواقع القضاء ، راضيا عن الله فى كل شأن من شؤونه ، مقبلا على الله بكليته وبذلك يفوز برضوان الله الأكبر ، فإن رضا العبد عن الله فضل من الله عظيم ينبيء عن رضاء الله عن العبد، قال تعالى : ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (١) . وليس المراد من اليقين بإثبات الإرادة لله أن يكون المؤمن عالما بالأشكال المنتجة، ولكن ليكون المؤمن مطمئنا بقضاء الله وقدره، راضيا عن الله فى كل شؤونه، راغبا فيما عند الله من الفضل العظيم، خائفا مما قدر أزلا مما لم يكاشف به، فيكون ممن أثنى الله سبحانه عليهم فى كتابه العزيز بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البينة آية ٨ .

(٢) سورة فاطر آية ٢٨ .

وليس العلم الذى يجعل الألسنة زلقة بإقامة الحجة، ويجعل القلوب مفعمة بحب الجدل والمناظرة والعناد علما عند العلماء بالله تعالى، ولكنه جهل، لأن العلم عندهم هو الذى يوجب الخشية من الله تعالى، والمراقبة لجنابه عز و جل، والحضور معه سبحانه .

ومن يتناول عن طهور العلم بالإرادة حقا لا يشهد فى الوجود فاعلا مختارا غير الله تعالى، وتمنعه الخشية من الله سبحانه أن يسيء الظن به سبحانه، أو يعترض عليه فى قضائه وقدره، ولا يكون عدم الرضا إلا من الجهلاء الذين يظنون أنهم علماء وليسوا علماء، فإن الله حصر العلم فى خشيته لا فى شقشقة اللسان والجدل والمناظرة، دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ فعالم عند الناس لا يخشى الله هو جاهل عند الله، ولو أنه كان عالما حقيقة لما احتجب عن معانى الصفات المخوفة للعلماء العارفين، ولما غاب عن مشاهدة عظمة وكبرياء وجلال الله، غيبة تجعله يعصى الله تعالى بعلمه وقد وصف الله العلماء فى كتابه العزيز، وأثنى عليهم، وجعلهم هم الأحياء وغيرهم أمواتا، قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِمِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (٢) فبين سبحانه وتعالى أن أولى الأمر فينا هم العلماء الذين يستنبطون من كتاب الله عز وجل، وهم أهل الخشية الذين أمرنا الله بطاعته والاقتداء بهديهم .

وأنت يا أخى إذا تحققت أن مولاك الذى خلقك مريد فاعل مختار، لا يكون شىء إلا بإرادته وتدبيره، كيف تغضب أو تعترض عليه سبحانه ؟ أسأل الله تعالى أن يجملنا بكمال اليقين بمعانى إرادته وجميع صفاته التى وردت عنه سبحانه، إنه مجيب الدعاء.

٥، ٦ ــ السمع والبصر :

السمع هو صفة قديمة تنكشف بها المسموعات، ولكن لا بأذن وصماخ، تعالى الله عن صفة الحوادث علوا كبيرا .

---

(١) سورة الزمر آية ٩ .

(٢) سورة النساء آية ٨٣ .

كما أن البصر هو صفة قديمة تنكشف بها المبصرات، ولكن لا بعين ولا حدقة ولا جارحة لا غير ذلك فإن ذلك من صفات الحوادث المتره عنها الله تعالى .

قال تعالى فى صفة السمع لنفسه : ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى۝ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى۝ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى ۝ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾(١) وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُون﴾(٢) وقال تعالى فى ثبوت صفة البصر لنفسه تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(٤) تفصيل ذلك أن الله سبحانه وتعالى سميع بصير، يسمع ويرى، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى، ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق، ولا يحجب سمعه بُعد، ولايدفع رؤيته ظلام، يرى من غير حدقة ولا أجفان، ويسمع من غير أصمخة ولا آذان، كما يعلم من غير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة ،إذ لاتشبه صفاته صفات الخلق، كما تشبه ذاته ذات الخلق .

من ذاق حلاوة الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى سميع بصير، وتصور معنى السمع والبصر بالتتريه الذى يليق بالجناب العلى، وتحقق العجز عن إدراكهما لعلو صفات الحق سبحانه وتعالى عن أن يكون لها مثيل تمثل به، أو نظير تشبه به، أو كيف تكيف به، تعالى الله علوا كبيرا ؛ من تحقق بكل تلك الحقائق أمتلأ قلبه خشية من السميع لكلام نفسه فى نفسه، البصير بجولان الهم والخواطر بقلبه، فكان كأنه على صراط أدق من الشعرة وأحد من السيف، لو مال قدر الشعرة هوى فى مكان سحيق، وراقب السميع البصير مراقبة من يعلم قدر عقوبة الجبار المنتقم شديد البطش ممن خالف أمره أو فعل ما نهاه عنه، فيكون تصديقه بإثبات الصفات لجنابه العلى كما علم، يوجب

(١) سورة طه آية ٤٣ ـ ٤٦ .

(٢) سورة الزخرف آية ٨٠ .

(٣) سورة الشورى آية ١١ .

(٤) سورة الأنعام آية ١٠٣ .

الخشية من الجلال الإلهى، ويحمل العالم بمراقبة الله تعالى ومحاسبة نفسه على الخاطر الذى يخطر على القلوب، واللمة التى تلم بها بل وعلى النفس الواحد وطرفة العين .

وكلما قرب العبد من الله كلما اشتد خوفه من عظمته وجلاله، وكلما انكشفت له أسرار معانى الصفات كلها كانت خشيته أشد ورهبته أقوى، وتمثلت له الجحيم بما فيها من أنواع العذاب وآلام العقوبات، فيكون وهو مع الناس يمشى على الأرض مشاهداً للملكوت الأعلى، ناظرا إلى نعيم الجنة وأنواع الملاذ التى لا توصف فيها، وإلى جحيم النار وآلام العذاب الذى لا يطاق، فيكون كما قال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۞ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢) . وهذه الصفات التى أثنى الله بها على المؤمنين هى ولا شك صفات من كمل علمه بكمال الصفات، فاطمأن قلبه بذكر الله تعالى، قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٣) .

أسأل الله أن يمنحنى وأهلى وأولادى وإخوانى مشاهد أهل مقام الإحسان، ويمنحنا درجات القرب ومشاهد الحب، قال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٤) إنه مجيب الدعاء .

٧ ـ الكـــلام :

كلام الله تعالى القائم بذاته هو صفة أزلية ليس بحرف ولا صوت، ولا يقبل العدم وما فى معناه من السكوت، ولا التبغيض ولا التقديم ولا التأخير، ثم هو مع وحدته دال أزلا وأبدا على

(١) سورة الفرقان آية ٦٣ ـ ٧٠ .

(٢) سورة المؤمنون آية ١ ـ ١١ .

(٣) سورة الرعد آية ٢٨ .

(٤) سورة المجادلة آية ١١ .

جميع معلوماته التى لا نهاية لها، وهو الذى عبر عنه بالنظم المعجز المسمى أيضا بكلام الله تعالى، وهو معجزة رسول الله القائمة الدائمة .

والقرآن هو الدعوى والحجة، وكل نبى دعوته غير حجته، فكانت المعجزة فى كل زمان تناسب أهله، فسيدنا موسى عليه السلام لما اشتهر فى زمنه السحر وكثر، جعل الله معجزته انقلاب العصا ثعبانا يأكل غيره، وسيدنا عيسى عليه السلام لما كان فى زمن كثر فيه الأطباء جعل الله معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، الأمر المعجز، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لما كثر فى زمنه الفصحاء والبلغاء كانت معجزته القرآن المعجز لهم عن معارضته بالإتيان ولو بمثل أقصر سورة منه، قال تعالى فى ثبوت تلك الصفة لنفسه سبحانه : ﴿ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (٢) .

وتفصيل ذلك أن الله جل جلاله متكلم آمر، ناه، واعد، متوعد، بكلام أزلى قديم قائم بذاته، لا يشبه كلام الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، فليس بصوت يحدث من تموج الهواء واصطكاك الأجرام، ولا حرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المترلة على رسله عليهم الصلاة والسلام، وأن القرآن مقروء بالألسنة، مكتوب فى المصاحف، محفوظ فى القلوب، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى، لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق، وان موسى عليه السلام سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف، كما نرى ربنا سبحانه وتعالى إن شاء الله يوم القيام من غير جوهر ولا شكل ولا لون ولا عرض، وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا، متكلما بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، لا بمجرد الذات .

---

(١) سورة النساء آية ١٦٤ .

(٢) سورة الشورى آية ٥١ .

مزيد بيان فى صفة الكلام لله سبحانه وتعالى :

الإيقان بإثبات صفة الكلام لله سبحانه متعين على كل مسلم لما بينا من اللأدلة القرآنية، ولأمر آخر لا يتم إيمان المؤمن إلا به، وهو التصديق بكتب الله التى أنزلها على رسله التى جعلها الله تبيانا لكل شيء، وهدى ونورا وذكرى، بين بها سبحانه ما يجب أن تنعقد عليه القلوب، وما يجب أن يقوم به المسلم لله من العبادات وما يجب عليه لوالديه وأولاده وإخوانه المؤمنين ولأهل ذمة الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وذمة المسلمين، وما يجب أن يكون عليه المسلم من الأخلاق، فإن إثبات صفة الكلام تجعل المسلم يتقبل أحكام كتاب الله بكمال الإيقان، ويسارع إلى العمل بما أمره الله وترك ما نهاه الله عنه، وليس على المسلم أن ينظر إلى صفة من صفات المعانى بعيون عقله التى تحكم نفسه ونظرائه وأشباهه، ولكن عليه أن يؤمن إيمانا لا يشوبه شك لشهوده حسا دلائل إثبات الصفات، وينزه صفات الله تعالى عن حد يحدها أو كيف يكيفها، تعالى الله عما يصفه الواصفون .

حتى إذا انعقد قلبه على اليقين الحق كاشفه الله بأنوار صفة الكلام، فيقرأ القرآن سامعا له من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بخشوع وهيبة من الله تعالى، فيكون بين وجل من آيات الإنذار، ومزيد إيمان من الآيات الدالة على معانى صفات الله تعالى، ويتجمل بالتوكل على الله تعالى من الآيات الدالة على أنه الفاعل المختار الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فيكون التالى للقرآن مع المراقبة كأنه يسمع الكلام عن الله تعالى، بعد أن يستحضر أنه يسمعه عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

المبحث الثالث

من علوم القرآن[1]

تلاوة القرآن حق تلاوته :

ولما كان لابد لنا أن نبين ما لابد منه لمن يتلو القرآن حق تلاوته من الأصول التي تجعلـه ملاحظا لمعاني كلام الله تعالى حال التلاوة، فاهما ما لابد من فهمه للتالي المتأمل، حتى يكون أحـى ممن يتلو كتاب الله حق تلاوته، فإن التالي إذا فهم معنى ما يتلوه من كتاب الله سارع إلى العمل بما فهمه مما مدحه الله ورغب فيه، وتباعد عما نهى عنه القرآن مما ذمه الله وكرهه، وبذلك يمكنـه أن يفهم ما يتلوه ويفسر لغيره ويبين وجوه التأويل .

قال الإمام أبو طالب المكى رضى الله عنه : فأما ظاهرُ الكلامِ فعلى معنـيين عجيـبين : وهو مجمل مختصر ومفصل مكرر، فإجماله واختصاره للبلاغة والإيجاز قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [2] ومكرره وتفصيله للإفهام والتذكار قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُـمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [3] . وقال عز وجل فى المبهم المجمل والتوحيد المفصل : ﴿الر﴾فهذه ثلاثة أسماء، الله لطيف رحيم، وقيل : هى حروف من اسم الرحمن، ثم أظهر السبب فقال : ﴿ كِتَـابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُه ﴾يعنى بالتوحيد ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾أى : بالوعد والوعيد، ثم قال : ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيم ﴾ أى : للأحكـــــــــــــــــــــــــــام

---

(١) راجع كتاب : (قوت القلوب) للإمام أبى طالب المكى رضى الله عنه .

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠٦ .

(٣) سورة القصص آية ٥١.

﴿ خَبِيرٍ ﴾ أى : بالأحكام، خبير بالتفصيل للحلال والحرام ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ هذا هو التوحيد الذى أحكمه ﴿ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [1] هذا هو الوعد والوعيد الذى أعلمه .

المختصر للإيجـــاز :

فمن المختصر للإيجاز قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْبِهَا ﴾ [2] ففى هذا مختصر ومحذوفان فالمضمر قوله : ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ المعنى : آية مبصرة فأضمر ومحذوفاه قوله : ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ المعنى : ظلموا أنفسهم بالتكذيب بها، فاختصرت كلمتان من كلمتين للإيجاز . ومثله قوله :

﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [3] الخواء : الخلاء، والعروش : السقوف وهى جمع عرش، فكيف تكون خاوية من العروش والعروش موجودة فيها ؟ فهذا من المختصر المحذوف، ومعناه : وهى خاوية من ثمرها أو من أهلها، واقعة على عروشها . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [4] حذف الفعل وأقيم الاسم مقامه، فالمعنى فيه : ولكن البر من آمن بالله وبمثل هذا المعنى .

قوله عز وجل ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ [5] أى : حب العجل، ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ [6] و لم يذكر قتله، والمعنى : بغير نفس قتلها فحذف

---

(١) سورة هود آية ١ ـ ٢ .

(٢) سورة الإسراء آية ٥٩ .

(٣) سورة الكهف آية ٤٢ .

(٤) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٥) سورة البقرة آية ٩٣ .

(٦) سورة الكهف آية ٧٤ .

الفعل . ومثله : ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ ﴾ (١) ضمر قوله :﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ قتلها أو بغير فساد فى الأرض فاكتفى عنه بذكر غير الأولى . وكذلك قولـه : ﴿ مَـن فِـي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (٢) معناه : ومن فى الأرض . وكذلك قوله : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالـدِّينِ﴾ (٣) متصل بقوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٤) وفصـل بينـهما النعـت والاستثناء، والمعنى : فما يكذبك بعد هذا البيان أيها الإنسان بالديانة، فأى شيء يحملـك علـى التكذيب بأن تدين لله تعالى وهو أحكم الحاكمين.

المبدل المضمـــر :

ومن المبدل المضمر : ﴿ إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ (٥) المعنى : ضعف ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى، فأضمر ذكر العذاب وأبدل الأحياء والمـوتى بـذكر الحياة والممات، فأقام الوصف مقام الاسم، ويصلح أيضا أن يترك الوصف على لفظـه ويضـمر : أهل، فيكون ضعف عذاب أهل الحياة وضعف عذاب أهل الممات، كما أضمر : أهـل، فى ذكـر القرية وذكر العير فقال : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَـا ﴾ (٦) والمعـنى : واسأل أهل القرية وأسأل أهل العير .

ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ هو من المبدل المضـمر، مبدله : ثقلت، ومعناه : خفيت، أبدل بدلالة المعنى عليه لأن الشيء إذا خفى علمه ثقل . وكذلك

---

(١) سورة المائدة آية ٣٢ .

(٢) سورة آل عمران آية ٨٣ وسورة الأنبياء آية ١٩ .

(٣) سورة التين آية ٧ .

(٤) سورة التين آية ٤ .

(٥) سورة الإسراء آية ٧٥ .

(٦) سورة يوسف آية ٨٢ .

قوله : ﴿ فَى السّمَوَاتِ ﴾ معناه : على، ومضمر : أهل، والمعنى : خفيت على أهل السموات وأهل الأرض ﴿ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ﴾ (١) يعنى فجأة .

ومنه قوله عز وجل : ﴿ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ (٢) فيه مضمر ومحذوف، فمحذوفه : تزال، ومضمره : لا، التى هى جواب القسم، والمعنى : قالوا تالله لا تزال تفتؤ تذكر يوسف، فأضمرت لا وأبدلت تزال لقوله : ﴿ تَفْتَؤ ﴾ وهى من مختصر الكلام وفصيحه وبليغه وهى لغة لبعض العرب، وفى القرآن من كل لغة . ومن هذا قوله عز وجل : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُون﴾ (٣) وقوله سبحانه : ﴿ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا ﴾ (٤) معناه تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون، وكذلك بدلوا شكر نعمة الله كفراً بها . ومثله : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ (٥)، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ (٦) معناه : أهل القرية، مثل قوله : ﴿ وَالْعِيرَ ﴾ المعنى : أهل العير، والعير هى الإبل المجهولة، وهذا الذى يسميه النحويون المجاز وهكذا قوله ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (٧) معناه : للطريقة التى هى أقوم . ومثل قوله عز وجل : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٨) أى : يقولوا الكلمة التى هى أحسن . ومثل هذا قوله : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ

(١) سورة الأعراف آية ١٨٧ .

(٢) سورة يوسف آية ٨٥ .

(٣) سورة الواقعة آية ٨٢ .

(٤) سورة إبراهيم آية ٢٨ .

(٥) سورة الحج آية ٤٥ .

(٦) سورة الحج آية ٤٨ .

(٧) سورة الإسراء آية ٩ .

(٨) سورة الإسراء آية ٥٣ .

أَحْسَنُ ﴾ [1] السيئة : أى : بالكلمة أو بالفعلة التى هى أحسن، أو مثل قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى ﴾ [2] أى : الكلمة الحسنى، والوجه الآخر أن الحسنى اسم لا نعت ومعناه الجنة، وهكذا قوله : ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [3] أى : على عهد ملك سليمان، فأضمر قوله : عهد . ومثل قوله : ﴿ وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ [4] أى : على ألسنة رسلك، فأضمر ألسنة .

المكنى المضمر :

ومن المكنى المضمر قوله تعالى . ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ ﴾ [5] أضمر الحوت وذكره واسم موسى للاختصار، والمعنى : وما أنسانى ذكر الحوت لك إلا الشيطان . ومثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾[6] فكنى عنه و لم يتقدم له ذكر، وكذلك قوله : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [7] يعنى توارت الشمس بحجاب الليل، فكنى عنها و لم يجر لها ذكر .

المبدل المختصر :

ومن المبدل المختصر قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ ﴾ [8] معناه حملته العزة على الإثم، أى : حمله التعزز والأنفة على الإثم و لم يبال، فأخذته بمعنى : حملته،

---

(١) سورة فصلت آية ٣٤.

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠١ .

(٣) سورة البقرة آية ١٠٢ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٩٤ .

(٥) سورة الكهف آية ٦٣ .

(٦) سورة القدر آية ١ .

(٧) سورة ص آية ٣٢ .

(٨) سورة البقرة آية ٢٠٦ .

وبالإثم بمعنى : على الإثم . ومن هذا قوله : ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾[1] أى : لا تحمله سنة ولا نوم، لأن السنة تحمل العبد، أى : تذهب به عن التيقظ .

المنقول المنقلب :

ومن المنقول المنقلب قوله عز وجل : ﴿ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ [2] اللام فى ﴿ لَمَن ﴾ منقولة، والمعنى يدعو من لضره أقرب من نفعه . ومثله : ﴿ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ [3] معناه لتنوء العصبة بها، أى: لتثقل بحملها لثقلها عليهم . .

المضمر المختصر :

ومن المضمر المختصر أيضا قوله عز وجل : ﴿ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ [4] ضميره إحدى كلمتين : كفروا نعمة ربهم، كفروا توحيد ربهم، فأضمر للاختصار وانتصاب الاسم لسقوط الخافض. وفيها وجه غريب إلا أنه محمول على المعنى أى : غطوا ربهم، التغطية أى : غطوا آياته وما دعا إليه من الحق، والمعنى : كفرهم غطى عليهم بما غطوا، هكذا حقيقة فى التوحيد إذا الأولية فى كل فعل منه وهم ثوان فيما بعد، فهو بمعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [5] اللبس : التغطية .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٥.

(٢) سورة الحج آية ١٣.

(٣) سورة القصص آية ٧٦ .

(٤) سورة هود آية ٦٠ .

(٥) سورة الأنعام آية ٩ .

ومن المضمر قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُون ﴾ (١) ليس أنه يجعل من البشر ملائكة، ولكن معناه لجعلنا بدلا منكم ملائكة، ويصلح : لجعلنا، فبدلكم بمعنى : منكم .

المبدل منه :

ومن المبدل منه قوله عز وجل : ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (٢) اللام بدل من الباء، المعنى وهم بها سابقون، لأنهم لو سبقوها لفاتتهم، ومثله : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ (٣) معناه على جذوع، وكذلك : ﴿ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) معناه أى : مع القوم الظالمين، وبمعناه : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ (٥) أى : عليه ويصلح به، وكذلك قوله : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾ (٦) أى : عنه، يعنى عن القرآن فعلى هذا مجاز، قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ (٧) أى : سل عنه فحروف العوامل يقوم بعضها مقام بعض، ومثله قوله : ﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ (٨) أى : فيه، يعنى فى اليوم، وبمعناه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ﴾ (٩) أى : مع أموالكم،

---

(١) سورة الزخرف آية ٦٠ .

(٢) سورة المؤمنون آية ٦١ .

(٣) سورة طه آية ٧١ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٩٤ .

(٥) سورة الطور آية ٣٨ .

(٦) سورة المؤمنون آية ٦٧ .

(٧) سورة الفرقان آية ٥٩ .

(٨) سورة المزمل آية ١٨ .

(٩) سورة النساء آية ٢ .

أموالكم، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [1] أى : مع المرافق لأنها داخلة فى الغسل، الغسل، والحروف العوامل ينوب بعضها عن بعض، ولو أظهر مثل هذا المضمر ووصل مثل هذا المحذوف لكانت القراءة ضعيفة .

الموصول المكرر :

ومن الموصول المكرر للبيان والتوكيد قوله عز وجل : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾[2]، قوله : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ مردود رده للتوكيد والإفهام، كأنه لما طال الكلام أعيد ليقرب من الفهم، والمعنى : ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن، أى : اتباعهم الشركاء ظن منهم غير يقين، ونحوه من المكرر المؤكد : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ [3] اختصاره الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا، فلما قدم الذين استضعفوا وكان المراد بعضهم كرر المراد بإعادة ذكر من آمن منهم للبيان .

المكرر المؤكد :

ومن المكرر المؤكد قوله عز وجل : ﴿ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّمِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [4] فقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّمِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فوصل بمن ووكد بكانوا أشد، وقراءها فى مصحف ابن مسعود : عَاقِبَةُ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدّ قُوّةً، ليس فيها ﴿ كَانُوا ﴾ ولا قوله : ﴿ هُمْ ﴾ . وبمعناه ـــ وإن قصراً ـــ قوله تعالى :

---

(١) سورة المائدة آية ٦ .

(٢) سورة يونس آية ٦٦ .

(٣) سورة الأعراف آية ٧٥ .

(٤) سورة غافر آية ٢١ .

﴿ لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ ﴾ [1] وهذا مما طال للبيان، والمعنى : لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، فلما قدم (من) وهى أسماء من يكفر، أعيد ذكر البيوت مؤخرا .

المكنى المبهم المشتبه :

ومن المكنى المبهم المشتبه قوله عز وجل : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [2] الشىء فى هذا الوضع الإنفاق مما رزق الله، وقوله تعالى بعده : ﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ ﴾ [3] الشىء فى هذا الموضع الأمر بالعدل والاستقامة على الهدى، وكذلك قوله : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ ﴾ [4] الشىء فى هذا الوضع وصف مخصوص من وصف الربوبية من العلم الذى علمه الخضر عليه السلام من لدنه لا يصلح أن يسأل عنه حتى يبتدىء به فلذلك كنى عنه .

وكذلك العلم على ضربتين : ضرب لا يصلح أن يبتدىء به حتى يسأل عنه، وهو مما لا يضيق علمه، فلذلك وسع جهله وحسن كتمه . وعلم لا ينبغى أن يسأل عنه من معنى صفات التوحيد ونعوت الوحدانية، لا يوكل إلى العقول، بل يخص بها المراد المحمول، فعلم الخضر الذى شرط على موسى عليهما السلام أن لا يسأل عنه حتى يبادئه به من هذا النوع، والله غالب على أمره.

وقوله عز وجل : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ [5] يعنى الله أى : كيف يكون خلق من غير خالق ؟ ففى وجودهم ثبوت خالق فهم دلالة عليه أنه خلقهم، وروينا ذلك عن ابن عباس وعن

---

(١) سورة الزخرف آية ٣٣ .

(٢) سورة النحل آية ٧٥ .

(٣) سورة النحل آية ٧٦ .

(٤) سورة الكهف آية ٧٠ .

(٥) سورة الطور آية ٣٥ .

زيد بن على رضى الله عنهما قالا فى قوله عز وجل : ﴿ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أى : من غير رب، كيف يكون خلق من غير خالق ؟ وقوله عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْــرِّزْقِ ﴾ (١) فالبعض الأول المفضل فى الرزق هم الأحرار والبعض الآخر المفضول هم المماليك، ومثله قوله تعالى ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيد ﴾ (٢)قرينه هذا هو الملك الموكل بعلمه أحضر ما عنده مما علمه من فعله، وقوله عز وجل : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ (٣) قرينه هذا هو شيطانه المقرون به . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴾ (٤) الهاء والميم المتصلة ب(إخوان) أسماء الشياطين، والهاء والميم المتصلة ب (يمدون) أسماء المشركين، أى : الشياطين إخوان المشركين يمدون المشركين فى الغى ولا يقصرون عنهم فى الإمداد . وبمعنى هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُــلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (٥) الهاء الأولى المتصلة ب (يتولون) كناية عن إبليس، إبليس، والهاء المتصلة بالباء من قوله : ﴿ هُم بِهِ ﴾ هى اسم الله عز وجل، وقد قيل أيضــاً : إنهــا عائدة على إبليس أيضاً فيكون المعنى : هم به قد أشركوا فى التوحيد، أى : أشركوا بعبادة الله عــز وجل .

ومثل هذا قوله عز وجل : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ (٦) الهاء الأولى كناية عن عن الحوافر، وهن الْمُورِيَات قَدْحاً يعنى الخيل تقدح بحوافرها فتورى النار، فأثرن به أى : بالحوافر النقع، يعنى التراب، والهاء الثانية كناية عن الإغارة، فوسطن أى توسطن به أى : بالإغارة، وهــن المغيرات صبحا وسطن جمع المشركين أغاروا عليهم بجمعهم والمشركون فارون .

---

(١) سورة النحل آية ٧١ .

(٢) سورة ق آية ٢٣ .

(٣) سورة ق آية ٢٧ .

(٤) سورة الأعراف آية ٢٠٢ .

(٥) سورة النحل آية ١٠٠ .

(٦) سورة العاديات آية ٤ - ٥ .

وبهذا المعنى قوله عز وجل : ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (١) الهاء الأولى عائدة على السحاب أى : أنزلنا بالسحاب الماء، وفى قوله : (به) مبدل ومكنى، فالمكنى هو ما ذكرناه من أسماء السحاب، والمبدل أن به بمعنى منه، ومثل هذا قوله : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ (٢) أى : منها، وهو صريح قوله فى المفسر : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا ﴾(٣) يعنى السحاب، وهو قوله : ﴿ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾(٤) وقوله فى الهاء الثانية : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ يعنى بالماء، فجمع بين اسم السحاب والماء بالهاء فأشكل .

ومن البيان الثانى والثالث للخطاب المجمل قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (٥)فلم يفهم منه إلا أن القرآن أنزل فى شهر رمضان و لم يدر أنهارا أنزل فيه أم ليلا ؟ فقال فى البيان الثانى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ (٦) فلم يفهم إلا أنه أنزل ليلا فى ليلة مباركة، و لم يدر أى ليلة هى ؟ فقال فى البيان الثالث : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٧) فهذا غاية البيان .

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٧ .

(٢) سورة الإنسان آية ٦ .

(٣) سورة النبأ آية ١٤ .

(٤) سورة الأعراف آية ٥٧ .

(٥) سورة البقرة آية ١٨٥ .

(٦) سورة الدخان آية ٣ .

(٧) سورة القدر آية ١ .

الموحد ومعناه الجمع :

ومن الموحد ومعناه الجمع قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ   إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [(١)] أى : إن الناس لفى خسران، لقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [(٢)] ولا يستثنى جماعة من واحد، وإنما يستثنى جماعة من جماعة أكثر منهم، وإنما وحد الاسم للجنس .

الجمع المراد به الواحد :

ومن الجمع المراد به الواحد قوله عز وجل : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [(٣)] يعنى نوح وحده لأنه لم يرسل لقوم نوح غيره، ودل عليه قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ [(٤)] فوحد الجمع .

الجمع المكنى :

ومن الجمع المكنى قوله عز وجل : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [(٥)] يعين فى هذا الموضع الدجال، ونزل ذلك فى ذكر الدجال واستعظامهم لوصفه، والعرب تجمع الواحد للجنس .

المقدم والمؤخر والمعطوف وما حمل على المعنى :

ومن المقدم والمؤخر لحسن تأليف الكلم ومزيد البيان والإظهار، قوله عز وجل : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ [(٦)]

---

(١) سورة العصر آية ١-٢ .

(٢) سورة العصر آية ٣ .

(٣) سورة الشعراء آية ١٠٥ .

(٤) سورة الشعراء آية ١٠٦ .

(٥) سورة غافر آية ٥٧ .

(٦) سورة النحل آية ١٠٦ .

اختصاره ومؤخره من كفر بالله بعد إيمانه وشرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان، ﴿وَلَكِن﴾ وكد بقوله ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ لما استثنى المكره وقلبه مطمئن بإيمانه، و لم يجعل المكره آخر الكلام لئلا يليه قوله : ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (1) فيتوهم أنه خبره وجعل آخر الكلام : ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ وهو فى المعنى مقدم خبر الأول من قوله :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ ﴾ فأخّرَ لِيَلِيه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾ (2) لأنه من وصفهم فيكون هذا أحسن فى تأليف الكلام وسياق المعنى .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ ﴾ (3) هذا من المعطوف المضمر ومن المقدم والمؤخر، فعاطفه قوله : ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ (4) وضميره قوله وعلم قيله، والمعنى : وعنده علم الساعة وعلم قيله يا رب، هذا على حرف من كسر اللام، فأما من نصبها فإنه مقدم أيضا ومحمول على أن المعنى أى : وعنده علم الساعة ويعلم قيلَه يا رب، فأما من رفع اللام فقرأ : وقيلُه، فتكون مستأنفة على الخبر وجوابها الفاء من قوله : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾(5) أى: قوله : إن هؤلاء لا يؤمنون فاصفح عنهم . وقد تكون الواو فى قوله : (وقيله) للجمع مضمومة إلى علم الساعة، والمعنى وعنده علم الساعة، وعنده قيلة يا رب جمع بينهما بـ (عند)، فهذا مجاز هذه المقارىء الثلاث فى العربية .

---

(1) سورة النحل آية ١٠٦ .

(2) سورة النحل آية ١٠٧ .

(3) سورة الزخرف آية ٨٨ .

(4) سورة الزخرف آية ٨٥ .

(5) سورة الزخرف آية ٨٩ .

ومما حمل على المعنى قوله عز وجل : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ ثم قال : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ [1] فلو لم يحمل على المعنى لكانت والشمس والقمر خفضا اتباعا للفظ قوله : (فَالِقُ) (وجاعل) ولكن معناه وجعل الشمس والقمر حسبانا وهى على قراءة من قرأ : ﴿ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ متبعة لـ (جعل) ظاهرا . وبمعناه قوله تعالى : ﴿ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ [2] فى قراءة من نصب اللام محمولا على معنى الغسل من قوله عز وجل : ﴿ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ [3] وأرجلكم أيضاً، ومن قرأ ﴿ وَأَرْجُلِكُمْ ﴾ خفضا حمله على اتباع الإعراب من قوله عز وجل : ﴿ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ ﴾ فأتبع الإعراب بالإعراب قبله، لأن مذهبه المسح لا الغسل.

واختيارنا نصب اللام فى المقروء على نصب الغسل واتباع الوجه واليدين، إلا أنه روى عن ابن عباس وأنس بن مالك : نزل القرآن بغسلين ومسحين وسن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ غسل الأقدام، فنحن نفعل كما فعل .

وقوله عز وجل : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ [4] من المقدم والمؤخر، فالمعنى فيه : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجلٌ مسمى لكان لزاما، وبه ارتفاع الأجل، ولولا ذلك لكان نصبا كاللزام، فأخر لتحسين اللفظ . وبمعناه قوله عز وجل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [5] المعنى يسئلونك عنها كأنك حفى بها أى : ضنين بعلمها، ومثله قوله تعالى : : ﴿ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [6] أى : نأت منها بخير، فقدم (بخير) وأخر (منها)

---

(١) سورة الأنعام آية ٩٦ .

(٢) سورة المائدة آية ٦.

(٣) سورة المائدة آية ٦.

(٤) سورة طه آية ١٢٩ .

(٥) سورة الأعراف آية ١٨٧ .

(٦) سورة البقرة آية ١٠٦ .

فأشكل . . ومن المؤخر بعد توسط الكلام قوله عز وجل : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [1] فى قراءة من وحد الفعل، هو متصل بقوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [2] ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أى : حالا بعد حال فى البرزخ، فأخر الأحوال للقرار فى الدار، وكذلك هو فى قراءة من جمع فقال : لتركبن أيها الناس، فيكون الإنسان فى معنى الناس كما ذكرناه آنفا،ويكون الجمع عطفا على المعنى، وإنما وحد للجنس فكأنه قال : يا أيها الناس لتركبن طبقا عن طبق، فأخر هذا الخبر لما توسطه من الكلام المتصل بالقصة ومعناه التقديم .

ومثل هذا قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ ﴾ وقوله :
﴿ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[3] هو متصل بقوله : ﴿ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[4] إلا قليلا، وآخر الكلام ﴿ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ ﴾ وقد قيل : إن قوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلا﴾مستثنى من الأول فى قوله : ﴿ وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ ﴾[5] إلا قليلا منهم، وفى هذا بعد، والأول أحب إلىّ . وعلى هذا المعنى قرأ ابن عباس فى رواية عنه : ﴿ لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ [6]جعله متصلا بقوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾[7] إلا من ظلم، ظلم، وصار آخر الكلام : ﴿ لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ فاصلا .

---

(١) سورة الانشقاق آية ١٩ .

(٢) سورة الانشقاق آية ٦ .

(٣) سورة النساء آية ٨٣ .

(٤) سورة النساء آية ٨٣ .

(٥) سورة النساء آية ٨٣ .

(٦) سورة النساء آية ١٤٨ .

(٧) سورة النساء آية ١٤٧ .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ﴾[1] وكذلك قوله فى أول السورة : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ۞ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾[2] ليس هذا من صلة الكلام، وإنما هو مقدم ومتصل فى المعنى بقوله : ﴿ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [3]، ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى: فصارت فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راض بإخراجك وهم كارهون، فاعترض بينهما الأمر بالتقوى والإصلاح والوصف بحقيقة الإيمان والصلاح فأشكل فهمه. وعلى هذا قوله عز وجل : ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [4] إنما هو موصول بقوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [5]، ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ لأنها نزلت فى قولهم : فقد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك عند قوله لأستغفرن لك ربى، فقالوا : فهلا نستغفر لآبائنا المشركين، فنزلت هذه الآية ليستثنى القدوة فى إبراهيم فى هذا، ثم نزلت الآية الأخرى معذرة له : ﴿ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ إلى أن علم موته على الكفر فقال : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [6] وكذلك قوله عز وجل : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ [7] وهذا

(١) سورة الأنفال آية ٧٣ .

(٢) سورة الأنفال آية ٤ - ٥ .

(٣) سورة الأنفال آية ١ .

(٤) سورة الممتحنة آية ٤.

(٥) سورة الممتحنة آية ٤.

(٦) سورة الممتحنة آية ٤.

(٧) سورة التوبة آية ١١٤ .

متصل بقوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ ﴾ (١) إلى آخر المحرمات، ثم قال : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾ يعنى : فى مجاعة .

نبهنا بيسير على كثير :

ومثل ما ذكرناه من علم القرآن كثير، وإنما نبهنا بيسير على كثير، ودللنا بنكت على جم غفير، لُيستدل بما ذكرناه على نحوه، ويتُطرق به إلى مثله، وهذا كله على ضروب كلام العرب، ومعانى استعمالهم، ووجوه استحسانهم أنه فى كلامهم، المطول للبيان، والمختصر للحفظ، والمقدم والمؤخر للتحسين، وكله فصيح بليغ ، لأن وصف البلاغة عندهم رد الكثير المنثور إلى القليل المجمل، إلى المبثوث المفسر .

فالمقصر من الكلام عندهم مع الحاجة إلى المعانى المتفرقة عجز، والمطول منه مع الاكتفاء بالمعنى الجامع عنه عى، فلما خاطبهم بكلامهم أفهمهم بعقولهم ومستعملاتهم، ليحسن ذلك عندهم، فيكون حجة عليهم من حيث يعقلون، لأنه أمرهم بما يعملون وما يستحسنون حكمة منه ولطفا .

هذا مشهد العموم من أهل العلم بمحاسن كلام العرب، وعلى هذه المعانى يفهم الخصوص من مكانهم ومشهدهم على علو مقامهم فى مكان ما أظهر لهم من العلم به، ونصيب ما قسم لهم من العقل عنه، فهم متفاوتون فى الإشهاد والفهوم، حسب تفاوتهم فى الأنصبة من العقول والعلوم، إذ القرآن عموم وخصوص ومحكم ومتشابه وظاهر وباطن، فعمومه لعموم الخلق، وخصوصه لخصوصهم، وظاهره لأهل الظاهر، وباطنه لأهل الباطن، والله واسع عليم ﴿ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة المائدة آية ٣ .

(٢) سورة البقرة آية ٢١٣ .

أهل الله وخاصته :

فإذا صفا القلب بنور اليقين، وأيد العقل بالتوفيق والتمكين، وتجرد الهم من التعلق بالخلق، وتأله السر بالعكوف على الخالق، وخلت النفس من الهوى، سرت الروح فجالت فى الملكوت الأعلى، وكشف للقلب بنور اليقين الثاقب ملكوت العرش عن معانى صفات موصوف، وأحكام خلاق مألوف، وباطن أسماء معروف، وغرائب علم رحيم رءوف، فشهد عن الكشف أوصاف ما عرف، فقام حينئذ بشهادة ما عرف، فكان ممن قال فيهم سبحانه : ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[1] فحق التلاوة للمؤمنين لأنه إذا أعطاه حقيقة من الإيمان أعطاه مثلها من معناه ومعدلها حقيقة من مشاهده، فكانت تلاوته عن مشاهدة، وكان مزيده عن معنى تلاوته، وكان ذلك على معيار حقيقة من إيمانه كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾[2] فيكون العبد بوصف من نعت بالحضور والإنذار، وخص بالمزيد والاستبشار فى قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾[3] وفى قوله عز وجل : ﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[4] ويكون من نعت من مدحه بالعلم وأثنى عليه بالرجاء ووصفه بالخوف فى قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[5] وقال عز وجل : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[6] فكان هذا من أهل الله

(١) سورة البقرة آية ١٢١ .

(٢) سورة الأنفال آية ٢ .

(٣) سورة الأحقاف آية ٢٩ .

(٤) سورة التوبة آية ١٢٤ .

(٥) سورة الزمر آية ٩ .

(٦) سورة السجدة آية ١٦ .

وخاصته، ومن محبيه وخالصته، كما روينا عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (أهل ٱلْقُرْآنِ أَهْلُ ٱللَّـهِ وَخَاصَّتُهُ مِنْ خَلْقِهِ) [1] .

وقال ابن مسعود رض الله عنه : لا على أحدكم أن يسأل عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله وهذا كما قال، لأنك إذا أحببت متكلما أحببت كلامه، وإذا كرهته كرهت مقاله، وقال محمد أبو سهل رحمه الله : من علامة الإيمان حب الله عز وجل، ومن علامة حب الله حب القرآن، ومن علامة حب القرآن حب النبى عليه الصلاة والسلام، وعلامة حب النبى ﴿ﷺ وآله﴾ اتباعه وعلامة اتباعه الزهد فى الدنيا . وعن بعض العارفين : لا يكون المريد مريدا حتى يجد فى القرآن ما يريد، ويعرف منه النقصان والمزيد، ويستغنى بالمولى عن العبيد .

وأقل ما قيل فى العلوم التى يحويها القرآن من ظواهر المعانى المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم وثمانمائة علم، إذ لكل آية علوم أربعة : ظاهر وباطن وحد ومطلع، وقد يقال : يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتين من العلوم، إذ لكل كلمة علم، وكل علم عن وصف، فكل كلمة تقتضى صفة، وكل صفة موجبة أفعالا حسنة وغيرها على معانيها، فسبحان الفتاح العليم . . وتماما للموضوع المتعلق بصفة الكلام أبين طرق الأئمة فى تلاوة كلام الله المقدس .

معاملة العبد فى التلاوة :

قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (أَفْضَلُ عِبَادَةِ أُمَّتِى قِرَاءَةُ ٱلْقُرْآنِ) [2] وقال عليه الصلاة والسلام : (لَوْ كَانَ ٱلْقُرْآنُ فى إهَاب مَا مَسَّتْهُ النّارُ) [3] وقال عليه الصلاة والسلام : (مَا مِنْ شَافِع

---

(١) هذا جزء حديث أورده صاحب كشف الخفاء وتمامه : " إن لله أهلين من الناس ، قالوا : يا رسول الله من هم ؟ قال : هم أهل القرآن أهل الله وخاصته " ورواه النسائى وابن ماجه وأحمد والدارمى عن أنس مرفوعاً ، وصححه الحاكم وقال : إنه روى من ثلاثة أوجه عن أنس كلها وهذا أمثلها .

(٢) هذا الحديث أخرجه أبو نعيم فى فضائل القرآن من حديث النعمان بن بشير وأنس .

(٣) أخرجه الطبرانى وابن حبان من حديث سهل بن سعد ، ورواه ابن عدى والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث عصمة بن مالك .

أفضل مَنْزِلَةً عند اللّهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْقرْآنِ لاَ نَبِىٌّ ولاَ مَلَكٌ وَلاَ غَيْرُهَ) [1] وقال عليه الصلاة والسلام : (يقول الله سبحانه وتعالى : مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنْ دُعَائِى وَمَسْأَلَتِى أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ثَوَابِ الشّاكِرِينَ) [2] وعن ابن مسعود رضى الله عنه : إن لهذا القرآن مناراً كمنار الطريق فما عرفتم منه فاعملوا به، وما لم تعلموا فكلوه إلى عالمه .

أستحب للمريد أن يختم القرآن فى كل أسبوع مرتين ختمة بالنهار وختمة بالليل، ويجعل ختمة النهار يوم الاثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما، ويختم ختمة الليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما، ليستقبل بختمته أول النهار وأول الليل فإن الملائكة تصلى عليه إن كانت ختمته ليلا حتى يصبح، وتصلى عليه إن كان ختمه نهارا حتى يمسى، فهذان الوقتان يستوعبان الليل والنهار . وفى الخبر : (لَمْ يَفْقَهْ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآن فِى أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ) وأمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عبد الله بن عمر أن يقرأ القرآن فى كل أسبوع، وكذلك جماعة من الصحابة يختمون القرآن فى كل جمعة . وروينا عن يحى بن الحارث الانصارى [3] عن القاسم بن عبد الرحمن [4] قال : كان سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالانعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس، وكذلك كان زيد بن ثابت [5] وأبى [6]

---

(١) هذا الحديث رواه عبد المالك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً .

(٢) هذا الحديث أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب .

(٣) هو التابعى الجليل : أبو سعيد يحى بن سعيد بن قيس الأنصارى المدنى ، قاضى المدينة ، أجمعوا على توثيقه وجلالته ، وقال ابن سعد توفى سنة ١٤٣ هـ .

(٤) هو أبو عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن الشامى الدمشقى مولى خالد بن يزيد بن معاوية ، كان من فقهاء دمشق ، توفى سنة ١١٢ هـ.

(٥) هو الصحابى الجليل أبو سعيد زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصارى النجارى المدنى، كاتب وحى رسول الله (ﷺ وآله)، وكاتب المصحف، كان أحد الثلاثة الذين جمعوا المصحف، توفى سنة ٥٤ هـ بالمدينة.

(٦) هو أبىّ بن كعب بن قيس الأنصارى الخزرجى ، صحابى جليل ، توفى سنة ٣٠ هـ بالمدينة .

يختمان القرآن فى كل سبع . وروينا عن ابن مسعود أنه سبع القرآن فى سبع ليال فكان يقرأ فى كل ليلة سبعه . وجماعة يذكر عنهم ختم القرآن فى كل يوم وليلة، وقد كره ختمه فى أقل من ثلاث ليال طائفة، والتوسط من ذلك ما ذكرناه وهو أن يختم فى كل سبعة أيام لمن يحتاج فى فهمه إلى تفكير، وثلاث لمن كوشف بأسراره بلا تفكير، وإلا فالأولى أن يختم فى كل عشر ليال .

وصف التالين للقرآن :

هذه الأصول التى ذكرت، بمراعاتها يحصل للتالى مزيد فضل من الله تعالى بفهم ما يتلوه، وبعد الفهم يبلغ التالى مبلغا حتى يعقل عن الله ما يشاء الله أن يحيطه به علما، قال الله تعالى : ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (١) ومن أحاطه الله علما بشىء من أسرار القرآن كان من أهل الله لأنه يكون تاليا للقرآن عاملا به فى سره وعلنه فيما أحبه أو كرهه، وتالى القرآن العامل به من أهل القرآن، وأهل القرآن أهل الله، ومن وفقه الله وجعله من أهله كان ممن وصفهم الله تعالى فى آخر الفتح وأثنى عليهم وبشرهم، والمريد المخلص يعرض أحواله على القرآن فما أقره القرآن دوام عليه، وما لم يقره القرآن تركه جملة واحدة، ومتى كثر أهل الله فى الوجود الذين ينصرون الله تعالى بمجاهدة أنفسهم وقهرها على العمل بالقرآن نصرهم الله ومكن لهم فى الأرض وأعزهم، قال الله تعالى : ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٢) وقال سبحانه وتعالى : ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (٤) أسأل الله سبحانه وتعالى أن يفهمنا أسرار القرآن، وأن يوفقنا للعمل بالقرآن، إنه مجيب الدعاء .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥.

(٢) سورة محمد آية ٧ .

(٣) سورة المجادلة آية ٢٢ .

(٤) سورة النساء آية ١٤١ .

المبحث الرابع

فى النبوات

تقدم الكلام على قسم النبوات فى كتاب : (معارج المقربين) وبَيّنّا اختلاف المذاهب فيه، وعرفنا النبى والرسول والولى والملك وأنواع النفوس، وأقمنا الحجة على حقيقة مذاهب أهل السنة والجماعة ووجه احتياج الإنسان إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والحكمة المقتضية لبعثتهم عليهم الصلاة والسلام، بما أغنى عن تقرير هذا الموضوع فى هذا المختصر، ومريد الله وطالب النجاة من الهول يوم الفزع الأكبر يجب عليه أن يحقق هذا الموضوع، حتى يأمن من استطراق الشكوك والريب إلى عقيدة التوحيد، وسهل عليه أن يراجعه فى موضعه فى كتاب : (معارج المقربين) ولما كان لابد من مزيد فائدة فى مختصرنا هذا والتوضيح لأهل طريقنا أحببت أن لا أخلى مختصرى هذا من فوائد، تكون جمالا للواصل، وعلما للسالك .

الإنسان إجمالا :

معلوم أن حكمة الحكيم القادر اقتضت أن يكون الإنسان عالما وسطا بين عوالم الملك والملكوت، فأبرزته القدرة كأنه صورة لجميع العوالم مع صغر حجمه، فالإنسان كون صغير، والكون كله إنسان كبير، فأودع الله سبحانه وتعالى فيه كل معانى الأنواع، فالإنسان جماد من حيث أنه من طينة ويميل إلى السكون والراحة، ونبات من حيث أنه يتغذى وينمو، وحيوان من حيث أنه يحس ويتحرك، ومَلَك من حيث أنه يشهد الغيب بدلائل المشهود ولا يعصى الله ما أمره ويفعل ما أمره الله سبحانه به إذا صفا وتكمل، وإبليس إذا نزع إلى هواه ورأيه وحظه ونسى الحساب، وخليفة عن ربه إذا تجمل بأخلاق الربوبية .

الإنسان هو الكل فى الكل – فسبحان القادر الحكيم – يبلغ بكمالاته النفسانية إلى أن يكون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وينحط باتباع حظه وهواه إلى أن يكون فى هاوية السخط والمقت ولظى الجحيم، وبينهما دركات أو درجات، قال الله تعالى فى التنبيه بقدر الإنسان : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن

رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [1] . وقال سبحانه وتعالى فى بيان مترلة الإنسان العلية وما انحط إليه من البلية : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾[2] وقال الله تعالى فى بيان أن الإنسان قد يكون شيطانا : ﴿ شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [3] .

فالإنسان وهو الهيكل الصغير الضعيف كما قال الله تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [4] وقال الله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [5] جامع لكل حقائق الكائنات، يبلغ من المقامات فى القرب من الله تعالى ما به يطيعه الله ويحببه، وينحط بالمعصية والمخالفة إلى أسفل الدركات حتى يتمنى أن يكون ترابا، هذا هو الإنسان إجمالا، وقد فصلنا طرفا من هذا الموضوع فى كتاب : (النور المبين لعلوم اليقين) فليراجعه الراغب فى العلم .

حكمة بالغة :

لما كان الإنسان هو صورة الكون أجمع، وهو المقصود بالذات من كل الكائنات، كان لابد له أن يعرف الله بقدر ما أهله الله لمعرفته لا بقدر الجناب المقدس، تتره الله ذاتا وصفة واسما عن أن يدركه مخلوق، أو يعلمه حق العلم مربوب مقهور، وقد اقتضت الحكمة لكمال تتريه الله ذاتا وصفة واسما عن الإدراك والتحديد والكيف والتشبيه، أن يجعل لكل رتبة من مراتب الوجود العاليات معلما مخلوقا مشهودا، يُظهر سبحانه بهذا المخلوق ما لابد لأهل تلك الرتبة من العلم به سبحانه ومشاهدة آياته وأسمائه، فجعل سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام معلما للملائكة، وآية

---

(١) سورة الحجر آية ٢٨ ـ ٢٩ .

(٢) سورة التين آية ٤ ـ ٥ .

(٣) سورة الأنعام آية ١١٢ .

(٤) سورة النساء آية ٢٨ .

(٥) سورة غافر آية ٥٧ .

أشهدهم بها غرائب حكمة الحكيم، وعجائب قدرة القادر البديع، فسجد الملائكة كلهم أجمعون عندما علموا بسيدنا آدم عليه السلام، وشهدوا فى آدم من بديع الحكمة وعجيب القدرة، فكان الملائكة الروحانيون - مع طهارتهم من الشهوات والحظوظ والأهواء وعلوهم عن التدنس برذائل الشهوات - فى حاجة إلى معلم يعلمهم ما يجب أن يعلموه، ونور يبين لهم ما لابد لهم أن يشهدوه .

حكمة بالغة، سرها مقتضى تنزيه الذات الأحدية وكمال تقديسها عن الإدراك والتحديد وكمال التشبيه، فكان سيدنا آدم عليه السلام وهو روحانى جسمانى تخفى أنوار روحانيته بقيود جسمانيته، إظهاراً لقدرة القادر الحكيم، ودلائل حق على كمال القدرة وجمال الحكمة، فلما كسفت ظلمات الجسم أنوار الروح هبط من درجات العلو إلى السفل، حتى أناب إلى الله تعالى بالتوبة التى تلقاها من ربه عز وجل، قال الله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1] ولما كانت طرق العلم : الخبر الصادق والحس الصحيح والعقل الكامل، معنى قوله تعالى : ﴿ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2] فجعل سبحانه وتعالى الأسماع للخبر الصادق، والأبصار لشهود الأكوان الدالة على مكونها سبحانه، والقلوب لفقه الآيات الدالة على القادر الحكيم المصور البديع المنعم المتفضل المعطى الوهاب، ولمقتضى تلك الحكمة كان من فضل الله تعالى على الإنسان أن يدله عليه سبحانه، ويبين له سبله سبحانه، ويرشده لما فيه خيره وصلاحه فى الدنيا والآخرة، وكانت سنة الله فى خلقه أن يعلمهم ما لابد لهم منه من العلوم بمعلم مخلوق كما قدمنا .

الرسل أنوار تضىء لمن هداهم الله :

بعث الرسل عليهم الصلاة السلام معلمين لعباده مرشدين لخلقه، مبينين لسبله سبحانه بأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٧ .

(٢) سورة النحل آية ٧٨ .

ولما كان تعليم الخلق لابد أن يكون بالقول والعمل والحال، اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الرسول إنسانا مثلنا يعلمنا كيف نأكل ونشرب وننام ونبيع ونشترى ونعامل الناس، ويعمل أمامنا أنواع العبادات التى تقربنا لربنا سبحانه وتبعدنا عن كل ما يغضب ربنا، ويبين لنا وجوه الحكمة فى كل مأمور به أو منهى عنه، وهى سنة الله الماضية وحكمته الدالة على فضله وإحسانه وكرمه، فكانت الرسل عليهم الصلاة والسلام أنوارا تضىء لمن هداهم الله سبحانه، ويقيمون الحجة على من أضلهم الله حتى تكون الحجة البالغة لله جل جلاله، ويتجلى الحكم العدل بالحجة على الخلق، والمنعم الوهاب ذو الفضل العظيم بالإحسان والحنان لمن سبقت له الحسنى من عباده الذين هداهم الله واختارهم. حكمة عجزت الأرواح الطاهرة عن إدراك غوامضها، وسر سجدت العقول على أعتابه، لا يُسأل عما يفعل سبحانه وتعالى وهم يُسألون، وهو الحكم العدل، وهو ذو الفضل العظيم، وهو القهار المنتقم، وهو الغفور الرحيم، وهو القوى المتين، وهو اللطيف الخبير، سبحان من لا يعلم قدره غيره، ولا يبلغ الواصفون صفته، نحمده ونشكره على أن جعلنا من أمة حبيبه ومصطفاه ﴿ﷺ وآله﴾، وأكرمنا سبحانه وتعالى بأن جعلنا خير أمة أخرجت للناس وجعلنا أمة وسطا، نسأله سبحانه وتعالى أن يَمُنّ علينا بأجمل مواهبه فى الدنيا والآخرة، وأن يجعلنى وأهلى وأولادى وإخوانى المسلمين ممن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

معرفة خاتم الأنبياء :

لما كان هذا المختصر إنما وضعته لأبين فيه أن الإسلام دين، وكان الواجب على المسلم أن يكون على بينة من معرفته خاتم الأنبياء وخاتم رسل الله عليهم الصلاة والسلام، والشفيع الأعظم يوم الهول الأعظم، والوسيلة العظمى لكل مخلوق من الملائكة والإنس والجن سيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ وآله﴾، اختصرت على أن أبين للمسلم ما يجب أن يعتقده بالنسبة لسيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ وآله﴾، وما يحسن أن يعلمه، وبذلك يكون قد آمن بكل رسل الله سبحانه، وصدق بكل كتب الله سبحانه، فأبتدىء بنسبه الشريف ﴿ﷺ وآله﴾.

نسبه الشريف ونشأته ﴿ﷺ وآله﴾ :

هو سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصى، بن حكيم (المشهور بكلاب) بن مرة، بن لؤى، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركه، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان .

ولد ﴿ ﷺ وآله﴾ بمكة يوم الاثنين (لاثنى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل) فى عهد كسرى أنو شروان فى ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام، فنشأ ﴿ ﷺ وآله﴾ يتيما فقيرا فآواه الله وأغناه بمصداق قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى۞ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ [١] وتولى سبحانه تربيته وتأديبه ﴿ ﷺ وآله﴾ بمصداق قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ أَدَّبنِى رَبِّى فَأَحْسَنَ تَأدِيبِى ﴾ [٢] فنشأ ﴿ ﷺ وآله﴾ على الأخلاق الفاضلة، والصفات الكاملة من العفة والمروءة والكرم والسخاء والشجاعة وحسن الخلق وصدق الحديث وحفظ الأمانة، والبعد عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال، إلى غير ذلك من سائر الكمالات والمزايا والفضائل، حتى صح أن يخاطبه الله تعالى بقوله سبحانك : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [٣] ولما بلغ ﴿ ﷺ وآله﴾ أربعين سنة أرسله الله تعالى للناس

كافة بشيراً ونذيرا، قال الله تعالى له : ﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [٤] وقال تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [٥]

---

(١) سورة الضحى آية ٦ ـ ٨ .

(٢) هذا الحديث روى عن على بن أبى طالب عليه السلام، وجزم به ابن الأثير فى مقدمة النهاية، وقال ابن حجر : إنه غريب ولكن معناه صحيح .

(٣) سورة القلم آية ٤ .

(٤) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٥) سورة يس آية ٦ .

دعوته صلى الله عليه وسلم :

قام ﴿ ﷺ وآله﴾ يصدع بأمر ربه سبحانه وتعالى، ويدعو جميع الخلق إلى توحيد الله سبحانه وتعالى وتتريهه جل وعلا، وتفريده سبحانه وحده بالعبادة لا شريك له، ويأمرهم ﴿ ﷺ وآله﴾ بما فيه خيرهم وصلاحهم، والفوز بالسعادة الدنيوية والأخروية، فمن ذلك اتحاد الكلمة وعدم التفرق، ونبذ التنازع والتباغض والتحاسد، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [١] وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [٢]

ومن ذلك بر الوالدين ومعاملتهما بالملاطفة والمجاملة والإحسان إليها وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [٣] وصلة الرحم بالإحسان إليهما إن كانت من ذوى الفاقة، وإلا فبالتودد بالكلام، أو الزيارة، أو البدء بالسلام، أو بغير ذلك مما يجلب المودة ويزيد فى المحبة، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ [٤] والتعاون على الخير وجلب المنفعة لأخيه المسلم ودفع الضرر عنه، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [٥]

وأداء الأمانة، وذلك فى قوله جل وعلا : ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ [٦] وإنجاز الوعد والوفاء بالعهد وذلك فى قوله تعالى :

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

(٢) سورة الأنفال آية ٤٦ .

(٣) سورة النساء آية ٣٦ .

(٤) سورة النساء آية ١ .

(٥) سورة المائدة آية ٢ .

(٦) سورة النساء آية ٥٨ .

: ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ (٢)
والعفو وترك المجازاة على الذنب مع القدرة عليها، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ۞ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣)

ومواساة الفقير والإحسان إليه ومساعدته بقدر الطاقة، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٤)

والسعى فى الصلح بين الناس وإزالة البغضاء والشحناء فيما بينهم وذلك فى قوله تعالى : ﴿ لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٥)

والعدل والإحسان، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٦)

والاقتصاد والتوسط فى الأمور وعدم الإسراف فيها، وذلك فى قوله جل شأنه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (٧) . والمسارعة إلى فعل الخيرات والمبادرة

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٤ .

(٢) سورة النحل آية ٩١ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٣٣ ـ ١٣٤ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٦٧ .

(٥) سورة النساء آية ١١٤ .

(٦) سورة المائدة آية ٨ .

(٧) سورة الفرقان آية ٦٧ .

إلى انتهاز الفرصة قبل فواها، وذلك بقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [1] إلى غير ذلك من كل خصلة حميدة وصفة جميلة وينهاهم عن الكفر واتخاذ الشريك لله تعالى، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ [3] وعن الفسق وعصيان الله تعالى فيما أمر به أو نهى عنه، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُون ﴾ [4] وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [5] وعن الرياء وهو وهو العمل الذى يعمله الإنسان لأجل أن الناس يمدحونه ويثنون عليه خيرا وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [6] أى : لا يرائى فى عمله، وقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ۝الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾[7] وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ ﴾ [8]وعن قتل النفس بغير حق وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [9] وعن الزنا بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً ﴾[10] . وعن الكبر بقوله تعالى :﴿ وَلاَ

---

(١) سورة المائدة آية ١٤٨ .

(٢) سورة النساء آية ٣٦ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٥١ .

(٤) سورة الأنعام آية ١٢٠

(٥) سورة الأنعام آية ١٥١ .

(٦) سورة الكهف آية ١١٠

(٧) سورة الماعون آية ٤-٦

(٨) سورة البقرة آية ٢٦٤

(٩) سورة الأنعام آية ١٥١

(١٠) سورة الإسراء ٣٢

تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (1) وعن الربا وذلـــك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ (2) . وعن شرب الخمر والقمار وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (3) وعن السخرية بالناس والاستخفاف بهم واستحقارهم وعن عيب المرء أخاه ودعوته بغير ما سمى سمى به وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْـــرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَـــابِ﴾ (4) وعن التجسس والغيبة وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًـــا أَيُحِـــبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (5)وعن الكلام فيما لا يعنى وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (6)

وعن المن بالصدقة بقوله تعالى : ﴿ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى﴾ (7) وعن الخيانة بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(8) .

.

---

(1) سورة الإسراء آية ٣٧ .

(2) سورة البقرة آية ٢٧٥ .

(3) سورة المائدة٩٠ .

(4) سورة الحجرات آية ١١ .

(5) سورة الحجرات آية ١٢ .

(6) سورة المائدة ١٠١.

(7) سورة البقرة آية ٢٦٤ .

(8) سورة الأنفال آية ٢٧ .

إلى غير ذلك مما يضر بالهيئة الاجتماعية أو النفس أو المال أو العرض أو العقل . فلما دعاهم صلى الله عليه وسلم إلى ما دعاهم إليه، وأمرهم بما أمرهم به، ونهاهم عما نهاهم عنه، نفروا من قبول دعواه صلى الله عليه وسلم، وعادوه أشد المعاداة، وهجره منهم الأهل والخلان، وكذّبه الشيوخ والشبان، وتحول له صلى الله عليه وسلم الأوداء أعداء، والرفقاء خصوما الدّاء فقام صلى الله عليه وسلم دونهم يسفه أحلامهم، ويقبح أعمالهم، ويدحض أقوالهم، كل ذلك براهين قاطعة، وأدلة ساطعة، وآيات بينات، ومعجزات باهرات على صدق دعوته عليه الصلاة والسلام .

دلائل نبوته ﴿ ﷺ وآله﴾ :

من دلائل نبوته وعلامات رسالته ﴿ ﷺ وآله﴾، ما ترادفت به الأخبار عن الرهبان والأخبار وعلماء أهل الكتاب من صفته وصفة أمته، واسمه وعلاماته، وذكر الخاتم الذى كان بين كتفيه ﴿ ﷺ وآله﴾، وما وجد من ذلك في أسفار الموحدين المتقدمين من شعر تبع (١)، والأوس بن حارثة، وشبهه، وكعب بن لؤى، وسفيان بن مجاشع، وقس بن ساعدة (٢) وما ذكر عن سيف بن ذى يزن (٣) وغيرهم، وما عرف به من أمره زيد بن عمرو بن نفيل (٤)، وورقة بن نوفل (٥)

---

(١) هو تبع الحميرى الذى سار بالجيوش وبنى سمرقند ، كان مؤمنا وقومه كافرين ، وكان يكتب فى عنوان كتابه : بسم الله الذي ملك بحرا وبحرا ، أي بحاراً كثيرة . وقيل : لملوك اليمن التبابعة نسبة إليه . انظر تفسير أبى السعود ، ج٥ ، ص٥٥ .

(٢) هو قس بن ساعدة الإيادى ، كان خطيب العرب وشاعرهم وحكيمهم فى الجاهلية ، يقال : إنه أول من آمن بالبعث فى الجاهلية واعتنق النصرانية ، أدركه النبى ﷺ وسمعه يخطب بعكاظ فأعجب بكلامه ، وكان يعتمد فى خطبه على الفقرات القصيرة .

(٣) هو سيف بن ذى يزن ، كان سليل بيت من ملوك حمير ، طرد الأحباش من جنوب البلاد العربية ، وأطاح بحكمهم على اليمن ، ولقد آمن سيف بن ذى يزن بالتوحيد .

(٤) هو أبو سعيد زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو ابن عم عمر بن الخطاب ، كان أحد من اعتزل عبادة الأوثان ، وامتنع عن أكل ما ذبح باسمها ، قال عنه رسول الله ﷺ : " يأتى يوم القيامة أمة وحده " .

(٥) هو ابن عم السيدة خديجة أم المؤمنين ، تنصر وحفظ التوراة والإنجيل ، بَشّر بنبوة سيدنا محمد ﷺ ، وقال للسيدة خديجة حين أخبرته بقصة الوحى ونزوله على الرسول ﷺ : إن هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى ، وإن محمدا لنبى هذه الأمة . توفى فى السنة الثالثة للبعثة .

وعثكلان الحميرى، وعلماء يهود، وشامول عالمهم تبع من صفته وخبره، وما ألفى من ذلك فى التوراة والإنجيل مما قد جمعه العلماء وبينوه ونقله عنهم الثقات ممن أسلم منهم ابن سلام [1]، وبنى سعية، وابن يامين، ومخيريق، وكعب، وأشباههم ممن أسلم من علماء يهود وبحيراء، ونسطور، وصاحب بصرى، وأساقف الشام، والجارود، وسلمان، والنجاشى، ونصارى الحبشة، وراهب بصرى، وأساقف نجران، وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى، وقد اعترف بذلك هرقل وصاحب رومة عالما النصارى ورئيساهما، والقوقس صاحب مصر، والشيخ صاحبه، وابن صوريا، وابن أخطب وأخوه، وكعب بن أسد، والزبير بن باطياء، وغيرهم من علماء اليهود، وممن حملهم الحسد والنفاسة على البقاء على الشقاء .

والأخبار فى هذا كثيرة لا تنحصر، وقد قرع أسماع اليهود والنصارى بما ذكر أنه فى كتبهم من صفته وصفة أصحابه، واحتج عليهم بما انطوت عليه من ذلك صحفهم وذمهم بتحريف ذلك وكتمانه، وليهم ألسنتهم ببيان أمره، ودعوتهم إلى المباهلة على الكاذب، فما منهم إلا من نفر عن معارضته، وأبدى ما ألزمهم من كتبهم إظهاره، ولو وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من بذل النفوس والأموال، وتخريب الديار، ونبذ القتال، وقد قال لهم : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [2] .

إلى ما أنذر به الكهان مثل شافع بن كليب، وشق، وسطيح [3]، وسواد بن قارب، وخنافر، وأفعى نجران، وجدث بن جذل الكندى، وابن خلصة الدويسى، وسعيد بن بنت كرير، وفاطمة بنت النعمان، ومن لا يعد كثرة . . إلى غير ذلك مما أظهر على ألسنة الأصنام من نبوته، وحلول وقت رسالته، وسمع من هواتف الجان، ومن ذبائح النصب ، وأجواف الطيور، وما وجد من اسم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ والشهادة له بالرسالة مكتوبا فى الحجارة والقبور بالخط القديم، مما أكثره

---

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى الأنصارى الخزرجى ، أسلم أول قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة ، توفى سنة ٤٣ ه .

(٢) سورة آل عمران آية ٩٣ .

(٣) وهو كاهن من غسان ، من المعمرين ، كان العرب يحتكمون إليه ، يروون عنه أنه كان يعرف الغيبيات ويتكهن بها ، مات فى الجابية على مشارف الشام بعد مولد رسول الله ﷺ بقليل .

مشهور، وإسلام من أسلم بسبب ذلك معلوم مذكور . فدلائل نبوته صلوات الله وسلامه عليه لا تحصى عدا، ولا تستقصى حدا، وكيف لا ؟ وهو رحمة الله التي عمت الملائكة والإنس والجن، ونعمته العظمى التي شملت كل مخلوق خلقه، ورسول الله الذي افتتح به الوجود، وختم به الرسالة صلوات الله عليه، أرسله عامة للناس إعلاما بقدر مقامه العلى عند ربه سبحانه، و لم يكن رسول قبله من أولى العزم إلا وهو مرسل لقومه خاصة، ينسخ شرعه عند انتقاله من الدنيا، وهذا السيد صلوات الله وسلامه عليه نَسخ شرعُه الشريف كلّ الشرائع، ومحت شمسهُ المضيئةُ كلّ أنجم ظهرت .

إمداده صلى الله عليه وسلم بأنواع المعجزات :

لما كان هو المراد لذات الله تعالى ﴿ ﷺ وآله﴾، وكان الرسل قبله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم نوابه ينتظرون ظهوره عليه الصلاة والسلام، وآيات الكتب السماوية- التي تأولها من أعمى الله بصائرها، وأصم أسماع قلوبهم، حتى صار أكثرهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يفقهون- صريحة بالبشائر ببعثته ﴿ ﷺ وآله﴾، ناطقة بفضله صلوات الله وسلامه عليه، مبشرة بإشراق أنواره المحمدية، وهو جوهرة العقد المقصود بالذات، ولذلك أمده الله تعالى بأنواع المعجزات التي أمد بها رسله صلوات الله وسلامه عليهم، دليل ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[1] فإن بعض أهل العلم فسر الكوثر بالخير الكثير الشامل لنهر في الجنة، وللمعجزات ودلائل النبوة، ولنعم الله العظمى التي أفاضها الله به ﴿ ﷺ وآله﴾ على جميع خلقه .

مقابلة بين معجزاته ومعجزات الرسل السابقين :

لما كان القرآن المجيد معجزة المعجزات، وآية الآيات، ونور الله الذى بيّن به سبله، وهدى به من أحبهم من عباده، أحببت أن أفتتح به المعجزات التي وردت إما بطريق التواتر، أو بطريق صحيح أو حسن، مقابلا بين معجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ ومعجزات الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، فله ﴿ ﷺ وآله﴾ كل معجزة كانت لغيره من الأنبياء المشهورين :

---

(١) سورة الكوثر آية ١ .

١- فكتاب سيدنا آدم عليه السلام كان كلمات، كما قال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ [(١)] وكتاب سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى عليهما السلام كان كلمات وصحفاً، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ [(٢)] وقال تعالى : ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [(٣)] وكتاب نبينا وسيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ مهيمنا على الكل كما قال تعالى : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [(٤)]

٢ - وأن سيدنا آدم عليه السلام تحدى بالكلمات والأسماء، قال تعالى : ﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء ﴾ [(٥)] وسيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ إنما تحدى بالمنظوم، قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [(٦)]

٣- وأما سيدنا نوح عليه السلام فإن الله أكرمه بأن أمسك سفينته على الماء، وفى حق سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ وقف الحجر على الماء، فقد روى أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ كان على شاطيء ماء ومعه عكرمة بن أبى جهل [(٧)] فقال : إن كنت صادقا فادع ذلك الحجر الذى هو فى الجانب فليسبح ولا يغرق، فأشار الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ إليه فانقلع الحجر من مكانه، وسبح حتى صار بين يديه ﴿ ﷺ وآله﴾ وشهد الحجر له عليه الصلاة والسلام بالرسالة، فقال له ﴿ ﷺ وآله﴾ : " يكفيك هذا " ؟ قال : حتى يرجع إلى مكانه، فأمره النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فرجع إلى مكانه .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٧ .

(٢) سورة البقرة آية ١٢٤ .

(٣) سورة الأعلى آية ١٩ .

(٤) سورة المائدة آية ٤٨ .

(٥) سورة البقرة آية ٣١ .

(٦) سورة الإسراء آية ٨٨ .

(٧) هو الصحابى ابن عدو الله أبى جهل، واسمه أبو عثمان عكرمة بن أبى جهل، كان من أشد الناس عداوة لرسول الله (ﷺ وآله) ، هداه الله للإسلام فأسلم بعد الفتح بقليل، استشهد بأجنادين بين الرملة وفلسطين سنة ١٣ هـ .

٤ - وأكرم سيدنا إبراهيم عليه السلام فجعل النار برداً وسلاما عليه، وروى محمد ابن حاطب [١] قال: كنت طفلا فانصب القدر من على النار عليّ فاحترق جلدى كله، فحملتنى أمى إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾، وقالت : هذا ابن حاطب احترق كما ترى، فتفل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى جلدى ومسح بيده على المحترق، وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : ﴿ أَذْهِبِ الْبَأْسَ رَبَّ النَّاسِ﴾ [٢] فصرت صحيحاً لا بأس بى .

٥ - وأكرم سيدنا موسى عليه السلام بفلق البحر فى الأرض، وأكرم سيدنا ومولانا محمداً ﴿ﷺ وآله﴾، ففلق له القمر فوق السماء .

٦ - وفجر لسيدنا موسى عليه السلام عيون الماء من الحجر، وفجر لسيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ أصابعه عيونا .

٧ - وأكرم سيدنا موسى عليه السلام بتظليل الغمام فى زمن نبوته، وأكرم سيدنا محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ بذلك قبل ظهور نبوته .

٨ - وأكرم سيدنا موسى عليه السلام باليد البيضاء، وأكرم سيدنا ومولانا محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ بالقرآن العظيم، الذى هو نور من الله وبرهان .

٩ - وقلب الله عصا سيدنا موسى ثعبانا، ولما أراد أبو جهل أن يرميه ﴿ﷺ وآله﴾ بالحجر رأى على كتفيه ﴿ﷺ وآله﴾ ثعبانين فانصرف مرعوبا .

---

(١) هو الصحابى ابن الصحابى والصحابية رضى الله عنهم ، هو أول من سمى في الإسلام محمداً ، ولد بأرض الحبشة فى الهجرة ، توفى بمكة سنة ٧٤ هـ ، شهد مع سيدنا علىّ كرم الله وجهه الجمل وصفين والنهروان .

(٢) هذا الحديث رواه أحمد وأبوداود وابن ماجه عن ابن مسعود ، ورواه الشيخان عن عائشة بلفظ : " إن النبى ﷺ كان يعود بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول : " اللهم رب الناس أذهب البأس واشف وأنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما " وحديث محمد بن حاطب هذا الذى نحن بصدده رواه ابن أبى الدنيا عن سيدنا علىّ أيضا ولكن بلفظ يخالف هذا يسيراً ، وله طرق أخرى غير هذه .

١٠ – وسبّحت الجبال مع سيدنا داود عليه السلام، وسبّحت الأحجار فى يده عليه الصلاة والسلام، ويد أصحابه رضوان الله عنهم .

١١ – وكان سيدنا داود عليه السلام إذا مسح الحديد لان، وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ حين مسح الشاة الجدباء درت .

١٢ – وأكرم سيدنا داود عليه السلام بالطير المحشورة، وأكرم سيدنا ومولانا محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ بالبراق .

١٣ – وأكرم سيدنا عيسى عليه السلام بإحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص، وأكرمه عليه الصلاة والسلام بإحياء الشاة المسمومة وبتكلمها أنها مسمومة . روى جابر [١] أن يهودية [٢] من أهل خيبر سمّت ذراع شاة، ثم أهدتها إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فأخذ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الذراع فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ ارْفَعُوا أَيْدِيكُمْ ﴾ وأرسل إلى اليهودية فدعاها، فقال : ﴿ سَمَمْتِ هَذِهِ الشّاة ﴾ فقالت : من أخبرك ؟ قال : ﴿ أَخْبَرَتْنِى هَذِهِ فِى يَدِى ﴾ يعنى الذراع، قالت : نعم، قلت إن كان نبيا فلن تضره، وإن كان غير نبى استرحنا منه، فعفا عنها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولم يعاقبها . . وروى أن معاذ بن عفراء كانت له امرأه برصاء، فشكت ذلك إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فمسح عليها بغصن فأذهب الله عنها البرص . وحين سقطت حدقة قتادة [٣]، أى : عين قتادة، يوم أحد رفعها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فردها إلى مكانها .

---

(١) هو جابر بن عبد الله الصحابى بن الصحابى رضى الله عنهما ، وهو أحد المكثرين عن رسول الله ﷺ ، استشهد أبوه يوم أحد ، توفى جابر بالمدينة سنة ٧٣ هـ .

(٢) قال النووى فى تهذيب الأسماء : المرأة اليهودية التى أهدت لرسول الله ﷺ الشاة المسمومة اسمها : زينب بنت الحارث ، أخت مرحب اليهودى . ولمزيد الإيضاح ارجع إلى دلائل النبوة للبيهقى .

(٣) هو قتادة بن النعمان الصحابى الجليل رضى الله عنه ، شهد قتادة مع النبى ﷺ العقبة وأحداً وبدراً والخندق وسائر المشاهد كلها ، قلعت عينه يوم أحد فردها رسول الله ﷺ فكانت أحسن عينيه ، توفى قتادة بالمدينة سنة ٢٣ هـ وصلى عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

١٤- وكان سيدنا عيسى عليه السلام يخبر بما فى بيوت الناس، والرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ عرف ما أخفته أم الفضل [١] فأسلم العباس [٢] لذلك، روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لسيدنا العباس رضى الله عنه حين أسر فى أسارى بدر، وطلب النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ منه فداء نفسه وابن أخيه عقيل بن أبى طالب [٣] فادعى العباس العجز عن الفداء، فقال له ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أين المال الذى وضعت بمكة عند أم الفضل وليس معكما أحد، وقلت : إن أصبت فلعبد الله كذا، وللفضل كذا) فقال العباس : ما علم أحد غيرى، والذى بعثك بالحق إنك رسول الله، وأسلم هو وعقيل رضى الله عنهما.

١٥- ورد لسيدنا سليمان الشمس مرة، والرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ كان نائما ورأسه فى حجر على عليه السلام، فانتبه وقد غربت الشمس فردها الله له حتى صلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

١٦- وعلم سيدنا سليمان منطق الطير، وفعل ذلك فى حق سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، روى أن طائرا فجع بولده، فجعل يرفرف على رأسه ويكلمه، فقال : (أيكم فجع هذه بولدها ؟ فقال رجل : أنا، فقال : اردد ولدها) وكلام الذئب والناقة معه ﴿ ﷺ وآله﴾ مشهور .

١٧- وأكرم سيدنا سليمان عليه السلام بمسير شهر فى غدوه ورواحه، وأكرمه ﴿ ﷺ وآله﴾ بالإسراء إلى بيت المقدس فى ساعة .

١٨- وكان له ﴿ ﷺ وآله﴾ يعفور (حمار) يرسله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى من يريد عليه الصلاة والسلام ليجيء عليه .

---

(١) هى لبابة بنت الحارث الصحابية ، وتكنى أم الفضل ، أخت ميمونة أم المؤمنين ، وهى زوجة العباس بن عبد المطلب وأم أولاده ، ويقال : إنها أول امرأة أسلمت بعد السيدة خديجة رضى الله عنها.

(٢) هو عم الرسول ﷺ ، ويكنى أبا الفضل الهاشمى ، كانت إليه عمارة المسجد الحرام والسقاية قبل الإسلام ، خرج مع المشركين إلى بدر مكرَهاً فأسر ، وفدى نفسه وابن أخيه عقيلا ونوفلا بن الحارث ، توفى سنة ٣٢ ه بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع .

(٣) هو ابن عم رسول الله ﷺ ، أسلم قبل الحديبية ، وجاء إلى المدينة مهاجرا .

١٩- وأرسل معاذا إلى بعض النواحى، فلما وصل المفازة فإذا أسد جاث فهاله ذلك و لم يجرأ أن يرجع، فتقدم وقال : إنى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فبصبص السبع وانصرف .

٢٠- وكما انقاد الجن لسيدنا سليمان عليه السلام، انقادوا لسيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾

٢١- وحين جاء الأعرابى بالضب (١) تكلم الضب معترفا برسالته، فقد روى أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خرج ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما بمكة، وكان أبو لهب وأبو جهل وأبو سفيان يمشون خارج مكة، فأقبل أعرابى من البادية فقال له أحدهم : إن قتلت هذا _ يعنى محمداً ﴿ ﷺ وآله﴾ _ أعطيناك كذا من كذا .

والأعرابى جاء بضب يبيعه فقال : إنى أتيت البادية جائعا، فأقبل على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فلما دنا منه كان تحت ثوبه ضب فألقاه على الأرض وقال : إن لم يشهد لك هذا الضب قتلتك يا محمد، فقال سيدنا عمر : دعنى أقتله يا رسول الله، فقال : (دعه يا عمر، فقال : يا ضب من أنا ؟ فقال : أنت رسول الله) فأسلم الأعرابى وحسن إسلامه والجماعة ينتظرون رأس رسول الله على سيف الأعرابى، فرجع إليهم يرفع صوته بكلمة التوحيد، فقالوا : سحره محمد .

٢٢- وحين كفل ﴿ ﷺ وآله﴾ الظبية (٢) حتى أرسلها الأعرابى، رجعت تعدو حتى أخرجته من الكفالة، فإنه قد روى أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مر بظبية مقيدة خارج خباء أعرابى، فلما قرب منها ﴿ ﷺ وآله﴾ التفتت إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ ورفعت صوتها، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من الذى ربطها ؟) فخرج الأعرابى وقال : هى صيدى يا محمد، قال : (إن لها أولادا وإنها تتشفع بى أن تحلها لترضع أولادها وتعود إليك)، فقال : يا محمد أحلها وتخرج من قيدها وتعود على ؟ فقال

---

(١) الضب : حيوان من جنس الزواحف ، غليظ الجسم خشنه ، وله ذنب عريض حرش أعقد ، يكثر فى صحارى الأقطار العربية ، ويستعمل جلده بعد دبغه ليوضح فيه السمن .

(٢) الظبية : مؤنث الظبى ، وهو حيوان ثديى مجتر ذو أظلاف ، من رتبة مشقوقة الظلف (الفصيلة البقرية) ومعروف عن الحيوان أنه إذا نفر من مكان لا يعود إليه ، ولذلك يقال فى المثل : (لأتركنك ترك الظبى ظله) أى : لا أعود إليك .

: (نعم، وأنا ضامن لك ذلك) . وكان ثدياها ممتلئتين لبنا، فقام الأعرابى وحلها فانصرفت ومكثت زمنا طويلا فرجعت ولبنها فارغ، ووقفت بجوار الأعرابى كأنها تقول له : اربطنى .

٢٣- وحين لسعت الحية عقب الصديق فى الغاز قالت : كنت مشتاقة إليه مذ كذا سنين فلم حجبتنى عنه ؟ .

٢٤- وأطعم الخلق الكثير من الطعام القليل .

ومعجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ أكثر من أن تحصى خصوصاً فى هذا المقام، فثبت صحة قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ (١) .

جمعه للمعارف والعلوم :

من معجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ الباهرة ما جمعه الله له من المعارف والعلوم، وما خصه به من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، ومعرفته ﴿ ﷺ وآله﴾ بأمور شرائعه وقوانين دينه ومصالح أمته، وما كان فى الأمم قبله، وقصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، والجبابرة والقرون الماضية من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى زمنه ﴿ ﷺ وآله﴾، وحفظ شرائعهم وكتبهم ووعى سيرهم وسرد أنبائهم وأيام الله فيهم، وصفات أعيانهم واختلاف آرائهم، والمعرفة بمددهم وأعمارهم، وحكمة حكمائهم، وإقناع كل أمة من الكفرة، ومعارضة كل فرقة من الكتابيين بما فى كتبهم، وإعلامهم بأسرارها، ومخبآت علومها، وإخبارهم بما كتموه من ذلك وغيروه مع البيان لكل قبيلة بلغاتها وغريب ألفاظ فرقها، والإحاطة بضروب فصاحتها، والحفظ لأيامها وأمثالها، ومعانى أشعارها وجوامع كلمها .

إلى المعرفة بضرب الأمثال الصحيحة لتقريب التفهيم للغامض، والتبيين للمشكل، إلى تمهيد قواعد الشرع الذى لا تناقض فيه ولا تخاذل، مع اشتمال شريعته ﴿ ﷺ وآله﴾ على محاسن الأخلاق، ومحامد الآداب، وكل شيء مستحسن مفضل، لم ينكر منه ملحد ذو عقل سليم شيئاً إلا من جهة الخذلان، بل كل جاحد له وكافر من الجاهلية به إذا سمع ما يدعو إليه صوبه واستحسنه

---

(١) سورة الكوثر آية ١ .

دون طلب إقامة برهان عليه، ثم ما أحل لهم من الطيبات، وحرم عليهم من الخبائث، وصان به أنفسهم وأعراضهم وأموالهم من المعاقبات والحدود عاجلا، والتخويف بالنار آجلا، مما لا يعلم ولا يقوم به ولا ببعضه إلا من مارس الدرس والعكوف على الكتب ومتابعة بعض هذا، إلى الاحتواء على ضروب العلوم وفنون المعارف كالطب، والعبادة والفرائض، والحساب ، والنسب . وغير ذلك من العلوم مما اتخذ أهل هذه المعارف كلامه عليه الصلاة والسلام فيها قدوة وأصولا فى علمهم، كقوله عليه الصلاة والسلام : ﴿الرُّؤْيَا لأَوَلِ عَابِرٍ وَهِيَ عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ ﴾ [1] . وقوله : ﴿ الرُّؤْيَا ثَلاَثٌ : رُؤْيَا حَقّ، وَرُؤْيَا يُحَدِّثُ بِهَا الرَّجُلُ نَفْسَهُ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ [2] وقوله : ﴿ إِذَا تَقَارَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكدْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذب ﴾ [3] وقوله : ﴿ أَصْلُ كُلّ دَاءِ الْبَرْدَةُ ﴾ وقوله : ﴿ خَيْرُ مَا تَدَاويتم به السّعُوطُ واللّدُودُ والحِجَامَةُ والمشى، وخيرُ الحجامة يومُ سبعة عشر وتسعة عشر وواحد وعشرين، وفى العود الهندى سبعة أشفية ﴾ وقوله : ﴿ مَا مَلاَءَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرّا عَلَيه مِنْ بَطْنِهِ ﴾، إلى قوله : ﴿ فَإِن كَانَ لأُبدّ فَثُلُثٌ لِلطّعَامِ وَثُلُثٌ لِلشّرَابِ وَثُلُثٌ لِلنّفسِ ﴾ [4] وقوله وقد سئل عن سبإ أرجل هو أم امرأة أم أرض ؟ فقال : ﴿ رَجُلٌ وَلَدَ عَشرَةً تَيَامنَ مَنْهُمْ سِتّةٌ، وتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ ﴾ الحديث بطوله .

---

(١) هذا الحديث رواه أبو داود والترمذى وصححه ، ورواه ابن ماجه عن أبى رزين ولكن برواية أخرى وهى: " الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت " .

(٢) هذا الحديث رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى ، ومسلم عن ابن عمر ، وعن أبى هريرة ولفظه : " الرؤيا ثلاثة :منها تهاويل من الشيطان ليحزن ابن آدم ، ومنها ما يهم به الرجل فى يقظته فيراه فى منامه ،ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة " .

(٣) هذا الحديث متفق عليه ، وقد أورده البخارى فى كتاب التعبير باب القيد فى المنام ، ورواه عن أبى هريرة بلفظ : " إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة".

(٤) هذا الحديث رواه الترمذى قال : حديث حسن ، وقد خرجه العراقى فى موضعين من الإحياء ورواه أحمد بن حنبل وابن ماجه والبيهقى عن المقدام بن معد يكرب بلفظ : " ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه " .

وكذلك جوابه فى نسب قضاعة، وغير ذلك مما اضطرت العرب على شغلها بالنسب إلى سؤاله عما اختلفوا فيه، من ذلك قوله : ﴿ حِمْيَر رَأْسُ الْعَرَبِ وَنَابُهَا، ومذحج هَامتها وقلصتها، والأزد كَاهِلُهَا وجمجمتها، وهمدان غَارِبُهَا وَذِرْوَتُهَا ﴾ وقوله : ﴿ إنّ الزّمَانَ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِه يَوم خَلَقَ اللّه السَموَاتِ والأرْضَ ﴾ [1] وقوله فى الحوض : ﴿ زَوَايَاهُ سواءٌ ﴾ وقوله فى حديث الذكر : ﴿ وَأنّ الْحَسَنَةَ بعشرِفَتِلْكَ مائَةٌ وَخَمْسُونَ عَلَى اللسَانِ وَأَلْفٌ وَخَمْسمائة فِى الْميزَانِ ﴾ وقوله : ﴿ مَابَيْنَ الْمشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ ﴾ وقوله لعيينة أو الأقرع : ﴿ أنَا أَفْرَسُ بِالْخَيْلِ مِنكَ ﴾ .

وقوله لكاتبه : ﴿ ضَع الْقَلَم عَلَى أذُنِكَ فَإِنّهُ أذْكَرُ لِلمملى ﴾ هذا مع أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يكتب ولكنه أوتى علم كل شىء، حتى قد وردت آثار بمعرفته حروف الخط وحسن إتقان تصويرها، كقوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ لاَ تَمُدّوا بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ ﴾ . وروى أنه قال لمن يكتب بين يديه عليه الصلاة والسلام : ﴿ ألق الدواةَ وحرف القلمَ، وأقِم الباءَ، وَفَرق السينَ، ولا تعور الميم، وَحَسّن الله، وأمِدّ الرحمنَ، وجَوّد الرحيمَ ﴾، وهذا وإن لم تصح الرواية أنه كتب عليه الصلاة والسلام، فلا يبعد أن يرزق علم هذا ويمنع الكتابة والقراءة .

وأما علمه عليه الصلاة والسلام بلغات العرب وحفظ معانى أشعارها فأمر مشهور، وكذلك حفظه عليه الصلاة والسلام لكثير من لغات الأمم كقوله فى الحديث : (سنه) وهى حسنة بالحبشية، وقوله : (ويكثر الهرج) وهو القتل بها، وقوله : (اشكنب دردم أى : وجع البطن بالفارسية، إلى غير ذلك مما لا يعلم بعض هذا ولا يقوم به ولا ببعضه إلا من مارس الدرس والعكوف على الكتب ومثاقبة أهلها عمره، وهو رجل كما قال الله تعالى أُمّىٌّ لم يكتب ولم يقرأ، ولا عرف بصحبة مَن هذه صفته، ولا نشأ ﴿ ﷺ وآله﴾ بين قوم لهم علم ولا قراءة لشىء من هذه الأمور، ولا عرف هو قبل بشىء منها، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ [2] الآية . إنما كانت غاية معارف العرب النسب، وأخبار أوائلها، والشعر،

---

(١) هذا الحديث رواه البخارى عن أبى بكرة عن النبى ﷺ قال : " الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان --- " الخ الحديث ، صحيح البخارى ، كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء .

(٢) سورة العنكبوت آية ٤٨ .

والبيان، وإنما حصل لهم ذلك بعد التفرغ لعلم ذلك، والاشتغال بطلبه، ومباحثة أهله عنه، وهذا الفن نقطة من بحر علمه ﴿ﷺ وآله﴾، ولا سبيل إلى جحد الملحد لشيء مما ذكرناه، وما وجد الكفرة حيلة فى دفع ما نصصناه إلا قولهم : أساطير الأولين، وإنما يعلمه بشر، فرد الله تعالى قولهم بقوله تعالى : ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١).

من خصائصه وكراماته وباهر آياته :

من خصائصه ﴿ﷺ وآله﴾ وكراماته وباهر آياته أنباؤه مع الملائكة والجن، وإمداد الله له بالملائكة، وطاعة الجن له، ورؤية كثير من أصحابه لهم، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْالرَّعْبَ ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۞قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٥) . فقد روى عن عبد الله (١) أنه قال : ﴿ لَقَدْ

---

(١) سورة النحل آية ١٠٣ .

(٢) سورة التحريم آية ٤ .

(٣) سورة الأنفال آية ١٢ .

(٤) سورة الأنفال آية ٩ .

(٥) سورة الأحقاف آية ٢٩ ـ ٣٢ .

رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [٢] قال : رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح[٣]،والخبر فى محادثته مع جبريل وإسرافيل وغيرهما من الملائكة وما شاهده من كثرتهم وعظم صور بعضهم ليلة الإسـراء مشهور وقد رآهم ﴿ ﷺ وآله﴾ بحضرة جماعة من أصحابه فى مواطن مختلفة،فرأى أصحابه جبريـل عليه السلام فى صورة رجل يسأله عن الإيمان والإسلام، ورأى سيدنا ابن عباس وأسامة [٤] وغيرهما رضوان الله عليهم عنده ﴿ ﷺ وآله﴾ جبريل فى صورة دحية [٥] .

وذكر ابن سعد أن مصعب بن عمير [٦] قتل يوم أحد وأخذ الراية مَلَكٌ علـى صـورته فكان النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول : ﴿ تَقَدَّمْ يَا مُصْعَب ﴾ فقال المَلَك : لستُ بمصعب، فعلم أنه ملك . ورأى سعد [٧] على يمينه وعلى يساره جبريل وميكائيل فى صورة رجلين عليهما ثياب بـيض .

---

(١) هو عبد الله بن مسعود ابن الصحابى الجليل ، ابن الصحابية الجليلة ، أم عبد بنت عبد ود بن سواء ، وهو الذى أجهز على أبى جهل يوم بدر ، شهد له الرسول ﷺ بالجنة ، كان يعرف من بين الصحابة بصاحب السواد والسواك والنعل ، توفى سنة ٣٢ هـ بالكوفة .

(٢) سورة النجم آية ١٨.

(٣) هذا الحديث أورده البخاري في كتاب بدء الخلق.

(٤) هو أسامة بن زيد الصحابى ، وهو مولى رسول الله وابن مولاه وابن مولاته ، ولاه الرسول ﷺ إمارة الجيش وفيهم عمر بن الخطاب ، توفى بالمدينة سنة ٥٤ هـ.

(٥) هو دحية الكلبى ، أسلم قديما ، كان من أجمل الناس شكلا .

(٦) هو الصحابى الجليل مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، كان من السابقين إلى الإسلام ، بعثه الرسول ﷺ ليفقه أهل المدينة ويقرئهم القرآن ، أسلم على يديه سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، استشهد مصعب فى غزوة أحد .

(٧) هو سعد بن أبى وقاص ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنهم أمر الخلافة شورى بينهم ، أسلم قديما ، وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، يقال له : فارس الإسلام . كان أمير الجيش بالقادسية وجلولاء ، فتح مدائن كسرى ، توفى سنة ٥٥ هـ ودفن بالبقيع .

ومثله عن غير واحد، وسمع بعضهم زجر الملائكة خيلها يوم بدر، وبعضهم رأى تطاير الرؤوس من الكفار و لم يروا الضارب.

ورأى سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه الجن ليلة الجن وسمع كلامهم، وقد ذكـر غير واحد من العلماء عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : بينما نحن جلوس مع النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ إذ أقبل شيخ بيده عصا، فسلم على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فرد عليه وقـال : ﴿ نَغمَـةُ الْجِنّ، مَنْ أنتَ ﴾ قال : أنا هامة بن الهيمى ابن لاقس ابن إبليس، فذكر أنه لقى نوحا عليه السلام ومن بعده فى حديث طويل، وأن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ علمه سوراً من القرآن، وقال عليـه الصـلاة والسلام : ﴿ إنّ شَيْطَاناً تفلت البارحة ليقطعَ عَلَىّ صلاتى فأمكننى اللهُ منه فأخذتُهُ فأردتُ أن أربطه إلى ساريةٍ من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرتُ دعوة أخى سليمان : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [1].

معجزات الرسل هى بعض ما أمد به خاتم الأنبياء :

ثبت أن كل ما أمد الله به رسله عليهم الصلاة والسلام من المعجزات إنما هو بعض مـا أمد به سبحانه خاتم رسله عليه أكمل الصلاة وأتم التسليم، وكيف لا ؟ وكل معجزة أمد الله بها من سبق من رسله صلوات الله وسلامه عليهم كانت خاصة لقومه وأهل عصـره لا تتجـاوزهم إلى غيرهم، وذلك لأن تلك المعجزات كانت خوارق للعادات الكونية والعلوم الإنسانية، كعلم الطب، وعلم السحر، وعلم السير فى البحار، وعدم تأثير العناصر النارية على الأجسام الإنسانية، وغير ذلك من الخوارق التى تدهش العقول وتحير الألباب، وتخرج قوة الفكر عن النمط الأوسط، حتى يتصور الناظر إلى تلك الحادثة أن الذى أحدثها من الآلهة لحيرة فكره، ثم إذا مرت عليها لحظـات قليلـة تناساها الناظر لها، وصارت فى حيز كان، اللهم إلا ما يثبته التاريخ وتنقله الـرواة بشـرح تلـك الحادثة، مشوبة بما يجعل السامع لروايتها بين منكر متعجب، أو مسلّم معجب بمن ظهرت على يده، غير ملاحظ الحكمة التى أظهرها الله لأجلها .

(١) سورة ص آية ٣٥ .

ولذلك كانوا صلوات الله وسلامه عليهم كالأنجم التى تضىء ليلا، حتى إذا أشرقت شمس ذات الرسول الكريم العظيم ﴿ ﷺ وآله﴾ الفاتح لما أغلق من سر الإيجاد والإمداد، والخاتم لما سبق من أنوار الرسالة والهداية والبيان صلوات الله وسلامه عليه، حُجبت تلك الأنجم بأنوارها التى عمت الروابى والبطاح، واهتدى بها الإنس والجن، فأكمل الله به ﴿ ﷺ وآله﴾ دينه الذى ارتضاه، قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُلَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ (١) وصار كل رسول من أولى العزم - نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام - لو أدركوا جنابه المحمدى عليه الصلاة والسلام ما وسعهم إلا أن يكونوا له أتباعا وأنصارا، لتلك الحكم الجلية، التى لا تخفى إلا على بصيرة أعماها الحظ والهوى، وقلب قطعه الحق عن مشاهد أنواره، ونفس خبيثة إبليسية .

جعل الله معجزة هذا السيد ﴿ ﷺ وآله﴾ باقية أبد الآبدين، غضة طريفة لا تفنى جدتها، ولا تزول بهجتها، كلما مر زمن الأزمان ظهرت أسرارها، وانبلجت غيوبها، وانكشفت أنوارها، وفتحت كنوزها، وأشرقت فى الأفق المبين شموسها، فما ظهر للطب سر غامض إلا وقد صرح القرآن المجيد به، ولا انكشف سر من أسرار غوامض الماديات من الحكم العلية من الآلات والأدوات إلا وقد أخبر به القرآن المجيد، ولا جالت العقول الكاملة جولة فى أقطار السموات والأرض إلا ونور القرآن المجيد شمس بيانها، وحقيقة دليلها، حتى أن المخترعات التى أدهشت عقول العقلاء قد أخبر عنها القرآن : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ۞ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) وقوله تعالى :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ

(١) سورة المائدة آية ٣ .

(٢) سورة النحل آية ٣ - ٨ .

قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [١] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ۝ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [٢] وقوله تعالى : ﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [٣] وآيات لا تحصى .

ما هذه المعجزة الباقية أبد الآبدين ودهر الداهرين ؟ وما تلك الآية المؤثرة التى لا تحجب صورتها الكاملة الجميلة عن الأبصار ؟ ولا حقيقتها الجليلة الجلية عن البصائر ؟

هى كتاب الله تعالى الذى أنزله على نبيه تفصيلا لكل شىء ، حتى قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه : ﴿ لَوْ ضَاعَ مِنِّى عِقَالُ بَعِيرٍ لرأيْتُهُ فِى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ﴾ هذا هو المعجزة حقا ، والرحمة العظمى صدقا ، ونعمة الله الكبرى على جميع خلقه .

من أعظم معجزاته صلى الله عليه وسلم القرآن المجيد :

لأن الله تعالى أنزله مشتملا على أخبار الأمم السالفة ، وسير الأنبياء الماضية التى عرفها أهل الكتاب ، وهو ﴿ ﷺ وآله﴾ أمى لا يقرأ ولا يكتب ، لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ نشأ فى بلد ليس بها عالم يعرف أخبار القرون الماضية ، والأمم السالفة التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، ومن كان من العرب يقرأ ويكتب ويجالس الأحبار لم يدرك علم ما أخبر به القرآن ، خصوصا عن المغيبات المستقبلة الدالة على صدقه لوقوعها على ما أخبر به عليه الصلاة والسلام .

وقد أعجز البلغاء لحسن تأليفه والتئام كلماته ، بهرت العقول بلاغته ، وظهرت على كل قول فصاحته ، أحكمت آياته ، وفصلت كلماته ، فحارت فيه عقولهم ، وتبلدت فيه أحلامهم ،

(١) سورة الحديد آية ٢٥ .

(٢) سورة فصلت آية ٥٢- ٥٣ .

(٣) سورة يونس آية ١٠١ .

وهم رجال النظم والنثر ، وفرسان السجع والشعر ، وقد جاء على وصف مباين لأوصاف كلامهم النثر ، لأن نظمه لم يكن كنظم الرسائل والخطب ، ولا أشعار وأسجاع الكهان ، وقد تحداهم ودعاهم لمعارضته ، والإتيان بأقصر سورة منه ، وهو دليل قاطع على أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ لم يقل لهم ذلك إلا وهو واثق موقن أنهم لا يستطيعون ذلك لكونه من عند الله سبحانه ، إذ يستحيل أن يقول ﴿ ﷺ وآله﴾ ذلك وهو يعلم أنه هو الذى تولى نظمه ، ولم ينزل عليه من عند الله جل جلاله ، إذ لا يأمن ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يكون فى قومه من يعارضه وهم أهل فصاحة وخطابة ، قد بلغوا الدرجة العليا فى البلاغة ، وهو من جنس كلامهم فيصير كذابا ، ولو كان فى استطاعة أحد منهم ذلك لما عدلوا عن ذلك إلى المحاربة ، التى فيها قتل صناديدهم ، ونهب أموالهم ، وسبى ذراريهم ، لأن النفوس إذا قرعت لمثل هذا استفرغت الوسع فى المعارضة خلافا لمن قال : إنما لم تقع المعارضة منهم لأن الله تعالى صرفهم عنها مع وجود قدرتهم عليها ، لأنه وإن كان صرفهم عنها فيه إعجاز لكن الإعجاز فى الأول أكمل وأتم وهو اللائق بعظيم فضل القرآن .

وعلى مذهب من قال بالصرفة وأن المعارضة كانت فى مقدور البشر فصرفوا عنها ، أو أن الإتيان بمثله من جنس مقدورهم ولكنه لم يكن ذلك قبل ولا يكون بعد لأن الله تعالى لم يقدرهم ولا يقدرهم عليها ، وبين المذهبين فرق بين ، وعليهما جميعا ، فترك العرب الإتيان بما فى مقدورهم أو ما هو من جنس مقدورهم ورضاهم بالبلاء والجلاء والسباء والإذلال وتغيير الحال وسلب النفوس والأموال ، والتقريع والتوبيخ والتعجيز والتهديد والوعيد ، أبين آية للعجز عن الإتيان بمثله ، والنكول عن معارضته ، وأنهم منعوا من شىء هو من جنس مقدورهم ، عندنا أبلغ فى خرق العادة من كل معجزة أتى بها الرسل السابقون صلوات الله عليه وعليهم .

لأن كل معجزة يمكن للعقل أن يرى لها نظائر فى الكون كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وخلق الطير من الطين ، فإنا نرى فى الكون من يعمى ثم يبصر ، ومن يصاب بالمرض العضال ثم يشفيه الله بلا دواء أو على يد غير مؤمن ، وترى أكثر الحيوانات يتولد من الطين فيكون قطعة طين ويصبح حيوانا كالجرذان (نوع من الفئران) ويكون كقطعة جلد بالية ويصبح حيوانا كالضفادع ، وقد يقوم الميت بعد موته ، وذلك شىء لا ينكره عاقل لكل معجزة من المعجزات التى أجراها الله على يد رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، يمكن للعقل الذى لم يرد الله أن يشهده

أنوار الإيمان ولا دلائل النبوات أن يتأول كل معجزة منها ، لأنها حادثة جزئية قد يحصل فى الوجود العينى أمثالها عقلا .

ولكن عجز الأمة العربية بأجمعها عن الإتيان بأقصر سورة من القرآن مع أنهم فحول الفصاحة وشموس البيان ، وأبطال السحر الحلال ، حتى بلغ بهم العجز إلى أن بذلوا دماءهم وأموالهم وأعراضهم فى عداوته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، مع أنه كان يكفيهم لو استطاعوا أن يأتوا بمثل أقصر سورة وينالوا بذلك العز والشرف والمجد والسيادة . فأمة عجزت عن الإتيان بمثل ما هم أهله ورجاله وفحوله ، وعدلت عنه إلى الإلقاء بأنفسهم على ظبى السيوف لآية جلية على أن المعجزة بعجزهم عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

العجز عن الإتيان بمثل أقصر سورة :

دليل عجزهم أنه لما جاء الوليد بن المغيرة وكان يقال له : ريحانة قريش ، وقال لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : اقرأ عليَّ ، فقرأ ﴿ ﷺ وآله﴾ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١) الآية ، وقال له : أعِدْه ، فأعاد ذلك ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول بشر ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه .

وفى رواية قرأ قوله تعالى : ﴿ حم ۞ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ (٢) الآيات ، فانطلق حتى أتى منزل أهله بنى مخزوم فقال : والله كلام محمد ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إلى آخر ما تقدم ، ثم انصرف إلى منزل له .

---

(١) سورة النحل آية ٩٠ .

(٢) سورة غافر آية ١ ـــ٣ .

فقالت قريش : قد صبأ الوليد ، والله لتصبأن قريش كلها ، فقال أبو جهل : إنى أكفيكموه ، فقعد على هيئة الحزين فمر به الوليد فقال له : ما لى أراك كئيبا ؟ قال : وما يمنعنى أن أحزن وهذه قريش قد جمعوا لك نفقة ليعينوك على أمرك ، وزعموا أنك إنما زينت قول محمد لتصيب من فضل طعامه ، فغضب الوليد وقال : أو ليس قد علمت قريش أنى من أكثرهم مالا وولداً ، وهل يشبع محمد وأصحابه من الطعام ؟ فانطلق مع أبى جهل حتى أتى مجلس بنى مخزوم فقال : هل تزعمون أن محمدا كذاب فهل رأيتموه كذبكم قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : فتزعمون أنه مجنون فهل رأيتموه خرفكم ؟ – أى : أتى بالخرافات من القول – قالوا : لا ، قال : تزعمون أنه كاهن فهل سمعتموه يخبر بما تخبر به الكهنة ؟ قالوا : لا ، فعند ذلك قالت له قريش : فما هو يا أبا المغيرة ؟ فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر .

ولما أراد بعضهم معارضة بعض سوره – وقد أوتى من الفصاحة والبلاغة الحظ الأوفى – فسمع صبيا يقرأ فى المكتب قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ (1) الآية ، رجع عن المعارضة ، ومحا ما كتبه وقال : والله ما هذا من كلام البشر .

هذا وكل جملة من القرآن معجزة ، وقد حفظ من التبديل والتحريف على ممر الدهور ، وقارئه لا يمله ، وسامعه لا يمجه ، بل لا يزال مع تكريره وترديده غضا طريا تتزايد حلاوته ، وتتعاظم محبته ، وغيره من الكلام – ولو بلغ الغاية – يُمل مع التردد ويُعادى إذا أعيد .

والقرآن العظيم يؤنس به فى الخلوات ، ويستريح بتلاوته من شدائد الأزمات ، واشتمل على جميع ما اشتملت عليه جميع الكتب الإلهية وزيادة ، وليس بين كل إنسان وبين أن يكاشف بأنوار القرآن الجلية إلا أن يتجرد من تشيعه لعادات قومه مما لصق بجوهر نفسه من كثائف ظلمات الأباطيل ، ويرجع إلى إنسانيته الأولى قبل أن تلم بعقله ظلمات العقائد المضلة ، ودخان العوائد المهلكة ، ثم يتلوه بعد أن يكون قد علم مبادىء ضوابط اللغة العربية ، فإنى على يقين أنه إذا قرأه بعد هذا لا يسعه إلا أن يسجد شكرا لله على ما أنعم به عليه من نور الهداية والبيان ، مع يقينى أن هذا النور لا يمسه إلا المطهرون الذين سبقت لهم الحسنى من الله ، ولا عبرة عند أهل العقل بمن

---

(1) سورة هود آية ٤٤ .

انحطت هممهم الإنسانية حتى صاروا أقل من البهائم الراتعة ، وأشر من الشياطين المردة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [1] أسأل الله تعالى أن يزكى نفوسنا ، إنه مجيب الدعاء .

القـــرآن الكـــريم دعوة وحجة :

ومن أعظم قدر القرآن أن الله تعالى خصه بأنه دعوة وحجة ، و لم يكن هذا لنبى قط ، إنما يكون لكل منهم عليهم الصلاة والسلام دعوة ، ثم يكون له حجة غيرها ، وقد جمعهما الله تعـالى لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى القرآن فهو دعوة بمعانيه ، حجة بألفاظه ، وكفى الدعوة شرفا أن تكـون حجتها معها ، وكفى حجتها شرفا أن لا تنفصل عنها ، وقد يسره الله سبحانه للحفظ .

والقرآن الكريم لا تنقضى عجائبه ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا تزيغ به الأهواء ، وقـد تقدم لنا فى كتاب : " شراب الأرواح " ما لفظه :

(القرآن الشريف النجاة من الهول فى الدنيا والآخرة ، والخطوة بالحسنى فى الدنيا والآخرة ، والقرب من الله سبحانه وتعالى ومن رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الدنيا والآخرة أن تحل حلال القرآن قولا وعملا ، وأن تحرم حرامه قولا وعملا ، فهو الإمام الحق ، والنور الذى لا تشـوبه ظلمـة ، وحبل الله تعالى الذى هو ممسوك بيمينه ، من تمسك به وصله الله ، بين رسول الله ﴿ ﷺ وآلـه﴾ بقوله وعمله وحاله أسرار القرآن، وكشف أنواره ، ووضح مناهجه).

(القرآن القرآن ، إخوانى : موتوا به ، واحيوا به، وناموا به ، وتاجروا به ، واعملوا به ، وأطيعوا ربكم سبحانه به ، وكلوا به ، واشربوا به ، وازرعوا به ، أى: لا تعملوا عملا حتى يظهر لكم من القرآن الشريف حكمه ، فإن أحل فاعملوا ، وإن حظر فامتنعوا . القرآن الشريف حجـة الله تعالى وحجة خلقه ، فمن كان القرآن حجة له رضى الله عنه وأرضاه ، ومن كان حجة عليـه سخط الله عليه وأقصاه . القرآن اقرءوه بلسان الفكرة ، وعين العبرة ، وهمة الاتباع ، وعزيمة العمل به ، القرآن نجا به من فهمه عن الله تعالى وعن رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وهلك من فهمـه بعلومـه العقلية وأفكاره الدنيوية وحظوظه النفسانية . القرآن كلام الله تعالى ووصفه وأخلاقـه وكمالاتـه

([1]) سورة النور آية ٤٠ .

وجمالاته وجلاله. القرآن ذات وأحكام ، وأوصاف وأسماء ،وعبرة وتترل ، ورموز وأسرار، ومحكم ومتشابه . إقرءوا القرآن لله تعالى : ﴿ الرَّحْمَن ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [1] ،وصلى الله وسلم على من كان خلقه القرآن ، وعلى آله وورثته والتابعين) .

العصـــــــمة :

هى ملكة نفسانية تمنع صاحبها من الفجور ، وتتوقف على العلـــم بمثالـــب المعاصـــى ، ومناقب الطاعات . إعلم أن الهيئة النفسانية إن لم تكن راسخة سميت : حالا ، وإن كانت راسخة سميت : ملكة . والهيئة النفسانية التى تمنع صاحبها عن الفجور الذى هو ارتكاب المعاصى واجتناب الطاعات ، إنما تصير ملكة بأن يعلم صاحبها مثالب المعاصى أى : معاييها ، ومناقب الطاعـــات ، لأن الهيئة المانعة من الفجور إذا تحققت فى النفس وعلم صاحبها مايترتب على المعاصى من المضـــار وعلى الطاعات من المنافع تصير راسخة، لأنه إذا علم مثالب المعاصى ومناقب الطاعات يرغـــب فى الطاعات ، ويرغب عن المعاصى ، فيطيع ولا يعصى فتصير هذه الهيئة راسخة .

وتتأكد هذه الملكة فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بتتابع الوحى على تذكر ذلك العلم . والاعتراض على ما يصدر عنهم سهوا ، والعتاب على ترك الأَوْلى ، فإنه متى صدر عنهم شـــىء سهواً أو تركوا ما هو الأَوْلَى لم يترك مهملا ، بل يعاتبون أو ينبهون عليه ، ويضيق الأمر فيه عليهم بتأكيد تلك الملكة بعد الوحى وقبل الوحى ، فالأكثرون من العلماء منعوا جواز الكفـــر وإفشـــاء الكذب والإصرار على الذنب لئلا يزول عن النبى الثقة بالكلية ، وجوزوا صدور المعصية على سبيل الندور . وبعضهم أوجبوا العصمة مطلقا قبل البعثة وبعدها ، خلافا للفضيلية (من الخوارج) فـــإنهم جوزوا على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم المعاصى ، واعتقدوا أن كل معصية كفر فجـــوزوا على الأنبياء الكفر . ومن الناس من لم يجوز الكفر ولكن جوز إظهار الكفر تقية ، بل أوجبـــوه ، لأن إظهار الإسلام إذا كان مفضيا إلى القتل كان الفناء للنفس فى التهلكة وإلقاء النفس فى التهلكة

---

[1] سورة الرحمن آية ١ـــ ٢ .

حرام لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [1] .وإذا كان إظهار الإسلام حراما كان إظهار الكفر واجبا .

ومنع بأنه لو جاز إظهار الكفر تقية لكان أولى الأوقات به وقت ظهور الدعوة ، لأن الناس فى ذلك الوقت بالكلية منكرون له ، وكان لا يجوز إظهار الدعوة لأحد من الأنبياء ، فيؤدى إلى إخفاء الدين بالكلية . والحشوية لم يجوزوا الكفر ولا إظهاره وجوزوا الإقدام على الكبائر . وقوم منعوا أن تتعمد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الكبيرة ، وجوزوا تعمد الصغائر .

العصمة للأنبياء بعد الوحى والعناية قبله :

العصمة واجبة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد الوحى ، وإن كانوا صلوات الله وسلامه عليهم تلاحظهم عين العناية قبل الوحى ملاحظة تجعلهم عليهم الصلاة والسلام مجملين بأكمل الأخلاق ، خصوصا سيدنا ومولانا محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ الذى تولاه الله تعالى بولايته الخاصة الإلهية ، فكان ﴿ ﷺ وآله﴾ من مولده الشريف عليه الصلاة والسلام وهو حقيقة الكمالات الأخلاقية الطاهرة ، مجملا بأجمل معانى الجمالات الروحانية من الصدق والأمانة ، والرحمة والصلة ، والوفاء والكرم ، والشجاعة والحلم ، والإخلاص فى عبادة الله سبحانه قبل النبوة ، فكان ﴿ ﷺ وآله﴾ يتعبد فى غار حراء .

فما من رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام إلا وكانت عصمته بعد النبوة ، ولا يخلو قبل النبوة من حصول بعض المعاصى ، أو حصول بعض الصغائر سهواً ، ولكن سيدنا ومولانا محمداً ﴿ ﷺ وآله﴾ حفظه الله بعنايته قبل النبوة ، وعصمه بعدها عليه الصلاة والسلام . ومن قرأ سيرته ﴿ ﷺ وآله﴾ يعلم حق العلم أنه صلوات الله وسلامه عليه رحمة الله العامة ، ونعمته العظمى ، وسيد رسله على الإطلاق ، وإمامهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ووجوب العصمة لهم صلوات الله وسلامه عليهم لأنهم لو صدر عنهم عليهم الصلاة والسلام ذنب لوجب اتباعهم فيه لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

[1] سورة البقرة آية ١٩٥

تَهْتَدُونَ ﴾ (١) ولا نقلبت المعصية طاعة . وكيف لا تجب لهم العصمة ؟ وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ (٢) فإذا كانت زوجة النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يضاعف لها العذاب من المعصية فكيف لا يكون النبى ﴿ ﷺ وآلـه﴾ معصـوما ؟ والذنب ظلم وقد قال الله تعالى : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) والعهد : الأمانة ، والنبوة أولى.

وأما قوله سبحانه وتعالى : ﴿ عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (٤) وقوله سبحانه: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (٥) وما أشبهها ، فذلك لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ رحمة الله العامة للناس ، فكان صلوات الله وسلامه عليه لإشفاقه على الناس يحب صلوات الله وسـلامه عليـه أن يتألفهم استجلابا لإقبالهم على الله تعالى والله هو الغنى عن عباده ، فكان هذا كعمل الحسن وتـرك الأحسن ، وهو فى الحقيقة بالنسبة لمقام رحمته الواسعة ونجاة عباد الله من غضب الله ومقتـه هـو الأحسن ، وقد أثنى الله سبحانه وتعالى عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ بهذه المعانى الدالة على أنه رحمـة الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٦) وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ كُنـتَ فَظًّـا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (٧) فكل ما ورد من الآيات الدالات على العفو عنه والمغفرة له ﴿ ﷺ وآله﴾ إنما هو محمول على ما بينت لك ، أما واقعة آدم عليه السلام فقبل النبوة ، ولقولـه

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٨ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٠ .

(٣) سورة البقرة آية ١٢٤ .

(٤) سورة التوبة آية ٤٣ .

(٥) سورة الفتح آية ٢ .

(٦) سورة القلم آية ٤ .

(٧) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (١) وهكذا كل ما حصل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فمحمول على أنه قبل النبوة ، أو على مقصد خاص يظهر سره لمن ذاق حلاوة الإيمان .

وإذا تقرر ذلك ثبت أن العصمة واجبة لرسل الله عليهم الصلاة والسلام ، وإن خالفنا فى ذلك من لا نأخذ بمذهبهم ، فإن العصمة أساس الدين ، وعليها تترتب كل معانى الرسالة ، لأن الله تعالى قال : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٢) وإجماع الأمة على أن مخالفة النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بدعة مضلة ، وأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ واجب الاقتداء به ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ (٣) فهو ﴿ ﷺ وآله﴾ معصوم فى عمله كما هو معصوم فى قوله ، كيف لا ؟ وبعض أفراد أمته عليه الصلاة والسلام أخبر الله عنهم بقوله سبحانه : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٤) وقوله تعالى :﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (٥) وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾(٦) .

ولما كان هذا المختصر إنما وضع لبيان أن الإسلام دين ووطن ونسب ، وأن تلك المعانى قد ثبت بيانها مستوفاة فى غير هذا المختصر من الكتب السالفة ، اكتفيت بهذا النذر القليل ، وقد بين الله تعالى أن المسلم قد يعتصم بالله تعالى فيكون معصوماً به سبحانه لقوله تعالى : ﴿ وَمَن

---

(١) سورة طه آية ١٢٢ .

(٢) سورة آل عمران آية ٣١ .

(٣) سورة النجم آية ٣ ــ ٥ .

(٤) سورة الأنعام آية ٨٢ .

(٥) سورة الحجر آية ٤٢ .

(٦) سورة الحجر آية ٤٠ .

يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [١] وأمر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يعتصموا بحبل الله جميعا فقال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا ﴾ [٢] فإذا كان المسلم يعتصم بحبل الله ، فالرسل صلوات الله عليهم أحق وأولى بالعصمة بالله ، بل هى لهم فضلا من الله تعالى ، ومن أنكرها هوى به الضلال إلى سحيق غضب الله تعالى ، نعوذ بالله ، فإن تصديق الله لهم بالمعجزة برهان على عصمتهم عليهم الصلاة والسلام .

الرسل عليهم الصلاة والسلام أفضل من الملائكة :

الرسل عليهم الصلاة والسلام أفضل من الملائكة ، وإن خالفنا فى ذلك الحكماء [٣].

المعتزلة ، وأفضليتهم عليهم بدلائل أربعة :

الدليل الأول : أنه سبحانه وتعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ، وهذا السجود سجود خدمة لا سجود عبادة ، فلو لم يكن آدم عليه الصلاة والسلام أفضل من الملائكة لما أمرهم الله سبحانه وتعالى بالسجود له عليه الصلاة والسلام

الدليل الثانى : أن سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام أعلم من الملائكة بدليل الآية الكريمة وهى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

([١]) سورة آل عمران آية ١٠١ .

([٢]) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

([٣]) هم فلاسفة الإسلام أمثال : الفارابى وابن سينا وابن رشد ، وقد يطلق لفظ : الحكماء ، على فلاسفة الإغريق أو متابعيهم فى مذاهبهم ، فأرسطو وأتباعه يسمون بالحكماء المشائين ، وأما أفلاطون وأتباعه فيسمون بالحكماء الإشراقيين

وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [1] فكان سيدنا آدم عليه السلام أفضل من الملائكة صلوات الله عليهم لقوله سبحانه : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2].

الدليل الثالث : أن طاعة البشر أشق من طاعة الملائكة ، لأن البشر مجبولون على صوارف عن الطاعات وموانع عنها من الشهوة والغضب والوسوسة الداخلة والخارجة ، وعبادة الملك فطرية ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : (أَفْضَلُ الطَّاعَاتِ أَشَقُّهَا).

الدليل الرابع : قوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[3] فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل العالمين ، والملائكة من العالمين .

الرد على من يقول بغير هذا :

١- واحتج مخالفنا بقوله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [4] فبلاغة القرآن تقتضى الترقى ، فكأن الملائكة أفضل من المسيح عليه السلام ، والحقيقة أن النصارى ادعوا أن المسيح ابن الله ، ففى ذلك من الفرية على الله تعالى ما فيه ، وكان المقام مقام الحجة عليهم وبطلان الدعوة ، فأثبت أن الأرواح المجردة التى ليس لها أب ولا أم عبيد الله تعالى لا يستنكفون عن عبادته ، وكذلك المسيح عليه السلام الذى هو مولود من أم أحق أن يكون عبداً لله مخلوقاً له سبحانه كما خلق الأنبياء ، وفى ذلك من قيام الحجة على بطلان دعواهم ما فيه لمن تدبر ، لأهم - أخزاهم الله تعالى - نسبوا المسيح إلى أنه ابن الله لأنه وُلد من غير والد ، فأضلهم الشيطان وسول لهم أن كل مولود لابد ان يكون له والد ، وعلى هذا فإما أن يكون ابن زنا وذلك مستحيل عادة وعقلا لما أتى به من المعجزات الباهرة الدالة على أنه عليه السلام بار ،

---

(1) سورة البقرة آية ٣١ ـــ ٣٣ .

(2) سورة الزمر آية ٩ .

(3) سورة آل عمران آية ٣٣ .

(4) سورة النساء آية ١٧٢ .

لأن الله تعالى لا يستجيب للفاجر وقد استجاب الله له استجابته لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، ولم يبق فى نظرهم لما زينه لهم الشيطان إلا أنه ابن الله تعالى جهلا بعجائب قدرة القادر ، وغرائب حكمة الحكيم سبحانه ، فأقام الله عليهم الحجة البالغة القاصمة الفاصمة بقوله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ﴾(١) .

فكأنه سبحانه يقول لمن ادعى بنوة عيسى عليه السلام لله سبحانه لأنه لا والد له ، إنى خلقت أرواحا مجردة بكلمة كن من لا شيء وهم عباد لى مقهورون بقهرى ، مربوبون لى ، بلا أب ولا أم لهم ، ومن كان قادرا أن يخلق أرواحا نورانية مجردة من لا شيء ويكونون عباداً أذلاء لعزته لا ينتسبون لذاته العلية بالنبوة ، تنزه وتعالى عن أن ينتسب إليه سبحانه إنسان مولود من إنسانة بالبنوة ، وإذا كان المسيح لأنه لا أب له يدّعى المبطلون أنه ابن الله ، فكان من الأولى الأرواح المجردة ، بل آدم أولى لأنه لا أم له ولا أب من الإنسان ، بل وحواء فإنها خلقت بلا أم ولا أب بمعنى الزوجية . . فالآية الشريفة ليست حجة لمن يرى أفضلية الملائكة على الأنبياء ، لأن سياقها تتريه الجناب العلى عن نسبة الولد لذاته العلية تقدست وتعالت ، فكأن المعنى والله أعلم : إن المسيح الذى له أم وتدعون أنه ابن الله لا يستكبر أن يكون عبداً لله ، بل ولا الأرواح المجردة الطاهرة النورانية الروحانية التى لم تخلق من أب وأم ، لا يستكبرون أن يكونوا عبيداً لله سبحانه وتعالى أذلاء لعزته ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

٢- وما يراه مخالفنا دليلا له من تقديم ذكر الملائكة قبل الأنبياء فى القرآن الشريف فإنه ليس من الحجة البينة ، إذ يجوز تقديمهم لسبق وجودهم .

٣- وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾(٢) لا يفيد تفضيلهم إلا على من يستكبرون عن عبادة الله من بنى آدم ، وأما الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم - بل والصديقون - أذلاء خاشعون لله .

---

(١) سورة النساء آية ١٧٢ .

(٢) سورة الأعراف آية ٢٠٦ .

٤- وأما قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) فهذه الآية الشريفة ليست نَصًّا فى تفضيل الملك على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ولكنها دالة على أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ يتبع ما يوحى إليه من ربه ، والمَلَكُ لا يتبع الوحى بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ بل هى حجة على أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أفضل من الملك .

٥- وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ (٢) أى : إلا كراهة أن تكونا ملكين ، فهى وإن دلت على أن الملك أفضل من آدم وحواء فإنها مقيدة بوقت مخاطبة إبليس لعنة الله عليه لهما ، ثم بعد أن اجتباهما ربهما صار آدم عليه السلام أفضل من الملائكة .

٦- وما أورده المخالف لنا من أن الملك معلم للنبى ورسول من قبل الله تعالى له فهو أفضل منه ، كما أن النبى أفضل من أمته لأنه مرسل من قبل الله تعالى لهم ومعلم لهم ، فهذا ليس مقياس ، لأن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ مع أمته لا يقاس عليه ، وذلك لأن المِلك إذا أرسل رجلا إلى جماعة ليتولاهم ويحكم فيهم يكون أفضلهم ، ولكن إذا أرسل المِلك واحدا إلى وليه على الجماعة ليبلغه رسالة المِلك لا يكون ذلك الشخص الواحد أفضل من المرسل إليه ، الذى أقامه المِلك حاكما ومعلما . هذا وإن الملائكة أرواح طاهرة مطهرة من بواعث الشهوة والحظ ونجاسات الأهواء والآمال ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٣) وفضّل الله المجاهدين على القاعدين درجة ، وكُلاًّ وعد الله الحسنى .

---

(١) سورة الأنعام آية ٥٠ .

(٢) سورة الأعراف آية ٢٠ .

(٣) سورة التحريم آية ٦ .

الإنسان الكامل كعبة الأرواح العالية :

هذا ما قرره العلماء ، ومن شهد مشهد الأسماء والصفات بعد التزكية والتحلى بمشـــهد أهل الحكمة ثم التوحيد ثم التوفيق ، يعلم أسرار الحكمة وأنوار القدرة المنبلجة فى كل رتبة من رتب الوجود ، ولديها يتحقق أن الإنسان الكامل كعبة الأرواح العالية ، وسدرة منتهى علوم الخلائق من عالم الإنس والجن والملائكة الروحانيين أجمعين .

والأولى ترك الاعتراض على أهل كل مشرب ، فإن لكل فرقة مشهد تجلت لهم حقيقته ، ولا تقوم لهم به الحجة على غيره إلا إذا تزكت النفس التى أهلت لشهوده . ومـــن أراد أن يجمـــل إخوته المؤمنين بما جمله الله به من العلم والحكمة والمعرفة ، فالأولى له ترك الجدل الذى ذمه الله تعالى وذم أهله ، وعليه أن يهتم بتأليفهم وتزكية نفوسهم إن كان ممن منحهم الله البيان والعمل كما قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [1] فإذا تزكت نفوسهم ضرب لهم الأمثال المشوقة إلى ما يريد أن يبين لهم من الحق ، فإذا اطمأنت قلـــوبهم شرح لهم ما هم فى حاجة إليه بقدرهم ، وهى طريق الربانيين الراسخين فى العلم ، ولا يشوش على إخوانه المؤمنين ويدعوه جهله إلى تفرقتهم فيكون من الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [2] والله سبحانه وتعالى يمنحنا التوفيق لما يحب ، إنـــه مجيـــب الدعاء .

الكرامات البـــاهـــرة :

لا يختلف مسلم فى اعتقاد أن الله يكرم من شاء بما شاء وهو الكريم سبحانه ، ويتفضـــل على من شاء بما شاء وهو ذو الفضل العظيم ، ولكن الخلاف بين من جوَّز الكرامة ومن أنكرها فى إظهار الأمر الخارق للعادة بطلب الولى ، وإلا فمن أنكر إكرام الله لأوليائه بدون طلبهم وتفضـــله عليهم من حيث لا يحتسبون ، وإنزال الأمطار بدعائهم ودفع البلاء وشفاء المرضى ، وبسط الرزق

([1]) سورة آل عمران آية ١٠٤ .

([2]) سورة الأنعام آية ١٥٩ .

بابتهالهم إلى الله تعالى ، فإن أصغر مسلم – فضلا عن أكمل المؤمنينَ – يستجيب الله له إذا سأله ، وينتقم له ممن ظلمه . ولو قيل لك : إن وليا من أولياء الله تعالى دعا الله فأزال الأمراض وأنزل الأمطار أو انتقم من الظالمين ، فصدِّقْ ، قال الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (١) فلم يبق مسلم إلا وهو يعتقد أن الله يكرم عباده ويعطيهم ما يسألون . . ومنكر الكرامة لم ينكر إكرام الله لعباده ، وإنما ينكر أن يكون الولى مثل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فى إظهار الأمر الخارق للعادة عند طلبه ، ولو أن المنكر زاده الله علما على علمه أنزل الولى فى مترلته ، والنبى صلوات الله وسلامه عليه فى مقامه العلىّ ، وفهم أن نور الولى إنما هو سراج مقتبس من شمس النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأنه لا يكون وليا يكرمه الله بخوارق العادات إلا إذا استغرق فى محبة الله ورسوله ، وصار الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأقامه الله تعالى وارثا لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ يبين حجج الله وبيناته ، فانيا عن حظه وهواه ، يبتغى فضل الله ورضاه ، وعند ذلك تكون الكرامة منه معجزة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . وإليك آيات كتاب الله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (٢) والذى عنده علم من الكتاب هو آصف بن بَرَخْيَا (٣) ، كان وليا من أولياء الله تعالى أظهر الأمر الخارق للعادة ، فكانت الآية معجزة لسيدنا سليمان وكرامة من الولىّ . وقال الله تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ﴾ (٤) وأهل الكهف أولياء ، وقد أكرمهم الله . وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (٥) و مريم صديقة ، حتى انشرح

---

(١) سورة النمل آية ٦٢ .

(٢) سورة النمل آية ٤٠ .

(٣) آصف بن برخيا : كان وزيرا لسيدنا سليمان عليه السلام ، وقد ذكر المفسرون أنه رجل آتاه الله الاسم الأعظم الذى إذا دعا به أجابه ، وقيل غير ذلك . انظر تفصيل ذلك فى تفسير الطبرى جـ ١٩ ص ٩٤ ، قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٨١ ، ودائرة المعارف الإسلامية حرف الألف .

(٤) سورة الكهف آية ٢٥ .

(٥) سورة آل عمران آية ٣٧ .

صدر سيدنا زكريا أن يسأل الله غلاما زكيا بما شهده من إكرام الله للصديقة ، فأجاب الله سبحانه سؤاله حقيقة أن الأنبياء يظهرون المعجزة لإثبات نبوتهم وتصديقهم لما جاءوا به من عند الله ، أما الولى فإن الله يظهر الكرامة على يده لدفع ضرر أو جلب خير ، وهو أمر لا يجعل الكرامة تلتبس بالمعجزة ، وشتان بين من يقول : إنى رسول الله إليكم وحجتى أن أشق القمر ،أو أحيي الموتى ، أو يشهد لى الضب ؛ وبين رجل يرى إخوته المؤمنين فى بلاء فيسأل الله زواله ، أو فى حاجة فيسأل الله قضاءها . . ومن هنا يظهر أنه لا خلاف بين المسلمين ، ومنكر الكرامة إنما نظر إلى علو مقام النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يساويه ولىّ وهو نظر أهل العقل ، ومثبت الكرامة نظر إلى أن الولى سر من أسرار النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأن الله إنما يكرم النبى فى ذات كل ولىّ من المسلمين ، وهو نظر بعيون الإيمان واليقين ، وكلا وعد الله الحسنى .

عقيـــدة المؤمـــن :

هذا ما يمكن ان يرسم بالكتابة ، ويبين بالعبارة ، حتى إذا انعقدت القلوب عليه أشـــرقت عليها أنوار مكون الأكوان ، فتتميز مراتب الوجود ، ويحصل للنفس شوق إلى علم الآيات الظاهرة فى الكائنات ، فيجول الفكر جولة باحث بنظر سديد فيما خفى فى تلك الآثار سر قوله تعـــالى :﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ (1) فتلوح عليه أنوار الأسرار الدالة على قدرة القادر البديع الحكيم ، ويأنس بأنوار الملكوت الأعلى ، وتجلى له العوالم فى كل مرتبة من مراتـــب الوجـــود ؛ وكلمـــا انكشفت له مرتبة من مراتب الوجود علم من نعم الله عليه سبحانه وتعالى وأياديه سبحانه الواصلة إليه علما لم يكن يعلمه من قبل ، قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمـــاً﴾ (2) ويترقـــى فى تلـــك المقامات العلية حتى يبلغ من الكمالات ما يصير به حاضرا مع الله سبحانه وتعالى ، ويرى كل مـــا سواه سبحانه وتعالى مقهوراً مربوبا لله عز وجل ، وبقدر ما ينكشف له من تلك الأسرار يكـــون تعظيمه للجناب المقدس ، وإجلاله لأحكامه ، واقتداؤه برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ويكون فى مقام

(1) سورة يونس آية ١٠١ .

(2) سورة طه آية ١١٤ .

بين الرغبة والرهبة ، لا يعظم غير الله ، ولا يشتغل بغير ذكره ، ولا يحب إلا من والاه سبحانه وتعالى.

فهذه العقيدة تجعل الإنسان عظيما فى نفسه ، لا يذل لغير مولاه الذى خلقه وأبدعه ، لأنه يرى أن كل من سوى الله عبيد أمثاله ، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، يحب من أحب الله تعالى ، ويعظم من عظمه الله تعالى ، ويطيع من أمر الله بإطاعته فيكون حبه لله وتعظيمه لله وطاعته لله ، يرى فى كل شيء آية دالة على عظمة المبدع الحكيم القادر ، ودليلا ساطعا على ذل هذا الشيء وقهره بقهر الكبير المتعال ، فيكون كل شيء فى عين من اعتقد تلك العقيدة – وإن عظم خلقا وكمل خلقا وعم النفع به – صغيرا فى عين من تجمل بهذه العقيدة الإيمانية ، لاعتقاده أن هذا الجمال والكمال مفاض من جناب القدس فضلا من الله تعالى ورحمة ، فيشهد بعين رأسه هذا المخلوق ، وبنور سره أنوار الخلاق العظيم ، وأسرار ممد الكائنات بحقيقة الإيجاد والإمداد ، فتكون قيومية الحق وأنوار قدرته وأسرار حكمته مشهد عيون سره ، وتلك الآثار الدالة على الآيات مشهد عيون بصره ، ومدرك حواسه ، فلا يحصل له لبس لانبلاج أنوار العقيدة الحقة على عيون سره ، ولا طيش لكمال يقينه بمقتضيات كمالات ربه ، ويكون الكون وما فيه وسائل قرب ، وأقداح طهورٍ لحب ، وشموسا ماحية لظلمات الأوهام و كثائف العقول ، وإن المؤمن بهذه العقيدة – وإن تقلب جسمه فى المعاصى – فقلبه مشرق بنور التوحيد ، يطمئن بالمبدىء المعيد .

كثائف الظلمات :

أما غيره ممن لم تشرق على قلبه أنوار العقيدة الإسلامية – وإن كان جسمه متقلباً فى الطاعات – فقلبه منعقد على كثائف الظلمات ، ولذلك ترى غيرنا – جماعة المسلمين – يرون مخلوقا مثلهم إلها يُعبد وتحتار فيه عقولهم الكثيفة السخيفة ، فمنهم من يقول : هو الله ، ومنهم من يقول : هو ابن الله ، ومنهم من يقول : حل فيه الإله . وهى عقيدة فطر عليها بنو الإنسان من الجهالات القديمة ، وهاوية هوت فيها العقول التى تسلط عليها الوهم بنظر أعمال يحدثها الله على يد من يشاء ، ومنافع يودعها الله ما شاء ومن شاء ، وأسرار يظهرها الله سبحانه متى شاء بمن شاء ، ليكشف للعقول غرائب قدرته ، وعجائب حكمته ، فتنكسف أنوار العقول عن أن تخرق حجب الأوهام ، وتنعقد القلوب على الشرك أو الجحود أو الكفر ، نعوذ بالله تعالى من حال يشهد فيه

الإنسان الجناب المقدس محيزا ، أو مكيفا ، أو مشبها ، أو معدودا ، أو محـــدودا ، أو والـــدا ، أو مولودا .

ظهر لك أن عقيدة الإيمان تجعل المؤمن عزيزا فى نفسه ، كبيراً على أن يزل لغير ربه ، عليا على أن يشهد نافعا أو ضارا سوى مبدعه وخالقه ، أشرق على قلبه نور التوحيد فجعلـــه إنســـانا كاملا .

وغير المسلم انحط عن مكانة الإنسانية ، فجعل الله حجرا أو كوكبا أو إنسانا مثله ، ويا ليته أخفى تلك الضلالات التى تقشعر لها جلود العقلاء ، وتضطرب لها قلوب أهل القلوب ، ولكنه قام يؤيد تلك الضلالات بما هو أضل منها ، فمنهم من يقول : المسيح ابن الله ، أو : هو الله ، أو : حل فيه الإله .

ومن هو المسيح بن مريم ؟ إنسان كان يأكل ويشرب ، ويبول وينام ، ويخـــاف ويـــأمن ويفرح ، وتتره الجانب المقدس عن أن يحيط به العرش العظيم فضلا عن أن يحويه ســـبحانه جســـم إنسان أو جسم إنسانه ، وتعالى علوا كبيرا عن أن يحتاج إلى طعام يقوم به صلبه ، .

أو ألم يؤلمه من حصر بول أو غائط ، وهو سبحانه الغنى عن كل من سواه ، المفتقر إليـــه جل جلاله كل من عداه ، وما المسيح بن مريم إلا آية من آياته ، مقهور بقهره ، ذليل لعزته ، قال الله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا۝ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا۝ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾[1]

وأقبح من تلك العقيدة اعتقاد من يصنع حجرا بيديه ثم يقف له ذليلا خاشع القلـــب والجســـم ، ويعتقد أنه هو الإله الخالق القادر ، سبحان الله ، ما أعمى عيون البصائر !! ولله الحمد على الإسلام فى تتريه ذاته سبحانه عن الولد والوالد .

([1]) سورة مريم آية ٩٠ ـــ٩٣ .

رفعـــة الإنســـان بالإســـلام :

هذا هو سر المقابلة بين عقيدة الإسلام التى تجعل الإنسان فوق الملائكة قدرا لا يخشى إلا الله ، ولا يرجو إلا الله ، ولا يعتمد على غير الله ، ولا يبتغى الفضل والرضا إلا مـــن الله ، وبـــين العقائد الأخرى التى تجعل الإنسان فى أسفل سافلين ، ويتخذ إنسانا مثله إلها له ، أو يصنع آلهة من الجمادات أو النباتات ، أو يعبد الكواكب أو البهائم

نعم ، رفع الإسلامُ الإنسانَ بما كشف له من أسرار الغيب عن حكمة إيجاده وسر إمداده ، لأنه لؤلؤة العقد ، وخليفة عن ربه ، خلقه الله على صورته [1] ، وسخر له جميع ما فى سماواتـــه وأرضه ، حتى بلغ الإنسان منزلة بالإسلام يكون فيها مع الله سبحانه والله تبارك وتعـــالى معـــه ، ومقاما من المقامات تكون فيها الملائكة فى خدمته ، فكيف يرضى الإنسان بالـــذل بعـــد العـــز ؟ وبالسفل بعد الرفعة ؟ وبغضب الله ومقته بعد محبته ورضوانه ؟ هذه نتائج عقائد الكفر ، قال تعالى : ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُـــوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[3].

الأصـــل الذى أسس عليه الدين :

من المقرر أن الأصل الذى أسس عليه الدين وتفرعت عليه فروعه ، وتجمل منه السالكون بجمال المشاهد العلية ، وأحوال مقامات أهل اليقين ؛ هو العقيدة الحقة التى مأخذها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ومتى انعقد القلب على تلك العقيدة الحقة كوشف بأنوار ذى العـــزة والجلال فامتلأ خشية منه سبحانه ، وشهد جمال الحكيم المنعم المتفضل فانجذب إلى حضرته بالمحبـــة

([1]) مصداقا للحديث الشريف : " خلق الله آدم على صورته " وهذا الحديث رواه الشيخان وأحمد عن أبى هريرة ، انظر صحيح البخارى جـــ ١ ص ١٠٢ ، وفتح البارى جـــ ٧ ص ١٧٥ ، شرح النووى لمســـلم جـــــ١٧ ص ١٧٨.

([2]) سورة القيامة آية ١٤ ـــ ١٥ .

([3]) سورة الكهف آية ١٧ .

الخالصة ، فكانت الخشية عن اليقين نور قلبه ، والمسارعة للقيام بما أوجبه الله سبحانه ورغب فيه جمال ظاهره ، وذلك لأن أعمال الجوارح المجترحة عن مشهد القلب المعمور بالعقيدة الحقة ، المشرف على العزة وقدس الجبروت الأعلى بعد مشاهدة الملكوت ومعاينة الآيات فى الملك ، ولديها يكون المسلم عبدا عابداً شاهداً مشهوداً ، مسارعا إلى مغفرة من ربه وجنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، لا يتنفس نفسا إلا سطعت أنوار أنفاسه على عالم الملكوت الأعلى ، فيكون نور أنفاسه لأهل الملكوت كنور الشمس لأهل الأرض ، تتزين بأنفاسه الجنات ، وكيف لا ؟ وفى كل نفس من أنفاسه مغفرة من الله ورضوان ، جمَّل الله قلوبنا بحقيقة اليقين ونور التمكين ، وظاهرنا بحلل عباده المنعمين ، وجمال أوليائه المقربين ، إنه مجيب الدعاء .

الباب الثالث

العبادات

الفصل الأول

تعريف العبادة وأقسامها والغرض منها

تعريف العبادة :

هى فعل اختيارى ، مناف للشهوات البدنية ، يصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله تعالى إطاعة للشريعة . فقولنا : فعل اختيارى ، يخرج منه الفعل التسخيرى والقهرى ، ويدخل فيه الترك الذى هو على سبيل الاختيار ، فإن الترك ضربان :ضرب على سبيل الاختيار وهو فعل ، وضـــرب هو العدم المطلق لا اختيار معه بل هو عدم الاختيار وليس بفعل ، وبقولنا : مناف للشهوات البدنية ، يخرج منه ما ليس بطاعة . وأما الأفعال المباحة كالأكل والشرب ومجامعة المرأة فليست بعبادة من حيث أنها شهوة ، ولكنها قد تكون عبادة إذا تحرى بها حكم الشريعة . وإنما قيل : تصدر عن نيـــة يراد بها التقرب إلى الله تعالى ، لأنها إن خلت عن نية أو صدرت عن نية لم يقصد بها التقرب إلى الله تعالى بل أريد بها المراء لم تكن أيضاً عبادة وإنما قيل : طاعة للشريعة ، لأن من أنشأ من نفسه فعلا ليس بسائغ فى الشريعة لم يكن عبادة وإن قصد به التقرب إلى الله تعالى

فالعبادة إذاً هى فعل بجميع الأوصاف كلها ، والعبادة تكون محمودة إذا تعاطاها الإنسان طوعا واختياراً لا اتفاقا واضطراراً ، ودائما لا فى زمان دون زمان ، ولأجل أن ذاتها حسنة لا لأجل غيرها ، فمن أتمها على الوجه الأكمل فهو الموصوف بقوله تعالى : ﴿ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ

مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] وقال صلى الله عليه وسلم : (أَخْلِصْ يَكْفِيكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ) [2] ولا

يقبل تعالى إلا العمل الخالص لوجهه كما قال تعالى : ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [3] فإن من فعل خيرا نحو أن يصلى لأنه اتفق اجتماعه مع المصلين فسايرهم ، أو أكره أن يصلى ، أو صلاها فى شهر رمضان مثلا دون سائر الأوقات ، أو لأجل أن ينال بها جاها أو مالا فليس ذلك ممن يستحق بها محمدة . وكذا من ترك قبيحا إما اتفاقا أو اضطراراً أو خوفا ، أو فى زمان دون زمان ، أو لأن ينال بذلك أمراً دنيويا فليس بمحمود . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [4] تنبيها منه سبحانه على أن من لم ينفق ماله هكذا ويعلوه خوف من الفقر وحزن على الإنفاق فلا يحصل له بذلك فضيلة ، ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [5] .

(1) سورة النساء آية ١٤٦ .

(2) هذا الحديث أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ وقد أورده الغزالى بلفظ : " أخلص العمل يجزك منه قليلا " الإحياء ج ٤ ص ١٧٦ .

(3) سورة الزمر آية ٣.

(4) سورة البقرة آية ٢٦٢ .

(5) سورة البقرة آية ٢٦٤ .

أقســـام العبـــــادة :

١ـــ العبادة علم وعمل :

العبادة ضربان :علم وعمل ، وحقهما أن يتلازما لأن العلم كالأس والعمــل كالبنـــاء ، وكما لا يغنى أس ما لم يكن بناء ولا يثبت بناء ما لم يكن أس ، كذلك لا يغنى علم بغير عمل ولا عمل بغير علم ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُــهُ ﴾ [١] والعلم أشرفهما لكن لا يغنى بغير عمل ، ولشرفه قال رجل للنبى صلى الله عليــه وســلم : أيّمَــا الأعمالُ أفضلُ يا رسولَ الله ؟ فقال : (العلم) ، فأعاد عليه السؤالَ ، فقال : (العلمُ) ، فقـــال الرجل فى الثالثة : أسألك عن العمل ولا عن العلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : (عملٌ قليلٌ مــعَ العلم خيرٌ مِنْ عملٍ كثيرٍ مَعَ الجهلِ) وقال عليه الصلاة والسلام : (طلبُ العلْمِ فريضةٌ على كُــل مسلمٍ) [٢] . . فالعلم ضربان : نظرى وعملى

فالنظرى : ما إذا علم كفى و لم يحتج فيه بعده إلى عمل ، كمعرفة وحدانية الله تعـــالى ، ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ومعرفة السموات والأرض وما أشبه ذلك.

والعملى : إذا علم لم يغن حتى يعمل به ، كمعرفة الصلاة والزكاة والجهــاد والصــوم والحج وبر الوالدين.

والأعمال ثلاثة أضرب : عمل يختص بالقلب ، وعمل يختص بالبدن ، وعمل مشترك فيه البدن والقلب ، وقد فصلت هذا الموضوع فى كتاب : (النور المبين) [٣] فراجعه إن شئت والعلــم إذا نظر إليه من حيث تحصيله فاكتسابه عمل ، وإذا نظر إليه وقد اكتسب وتصور فى القلب خرج

---

(١) سورة فاطر آية ١٠ .

(٢) هذا الحديث رواه ابن ماجه من حديث أنس .

(٣) تطلب جميع مؤلفات الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام من مكتبه دار الكتـــاب الصـــوفى التابع لمشيخة الطريقة العزمية ١١٤ شارع مجلس الشعب ــــ القاهرة .

فى تلك الحال عن أن يكون عملا ، وللإنسان فى استفادة العلم وإفادته ثلاثة أحوال : حال استفادة فقط ، وحال استفادة ممن فوقه وإفادة لمن دونه ، وحال إفادة فقط . وكل من يستحق أن يوجد مفيدا غير مستفيد ففوق كل ذى علم عليم إلى أن ينتهى الأمر إلى علام الغيوب . فقد نبه تعالى على الحاجة إلى الاستفادة بما حكاه من قول سيدنا موسى عليه السلام لصاحبه : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ (1) ونبه بما ذكر فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام عن الهدهد بقوله : ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ (2) أن الكبير قد يفتقر إلى الصغير فى بعض العلوم ، فإذاً الإنسان ما دام حيا يجب ألا يخرج عن كونه مستفيدا ومفيدا ، كما قال عليه الصلاة والسلام : (الناسُ عالِمٌ ومتعلمٌ وما سِواهُما هَمَجٌ)(3) .

٢ – الواجب والمندوب :

ومن وجه آخر ضربان : واجب ومندوب ، فالواجب يقال له : العدل ، والمندوب يقال له : الإحسان . وهما المذكوران فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ (4) فالفرض أو العدل تحرى الإنسان ما إذا عمله أثبت وإذا تركه عوقب . والندوب أو الإحسان تحرى الإنسان ما إذا عمله أثيب وإذا تركه لم يعاقب . . والإنصاف من العدل والتفضل من البر والإحسان ، فالإنصاف هو مقابلة الخير من الخير والشر من الشر بما يوازيه ، والتفضل والبر مقابلة الخير أكثر منه والشر بأقل منه ، فالإحسان والتفضل احتياط فى العدالة والإنصاف ليأمن به من وقوع خلل فيه ، وذلك أنك إذا زدت فى إعطاء ما عليك ونقصت فى أخذ مالك فقد احتطت وأخذت بالعزم كدفع

---

(1) سورة الكهف آية ٦٦ .

(2) سورة النمل آية ٢٢ .

(3) روى الطبرانى عن ابن مسعود : " الناس رجلان : عالم ومتعلم ، ولا خير فيما سواهما " ورواه الديلمى عن ابن عباس بلفظ : " الناس عالم ومتعلم ولا خير فيما بينهما من الناس " وروى ابن ماجه عن أبى أمامه " العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، ولا خير فى سائر الناس " أى : بقيتهم بعدهم .

(4) سورة النحل آية ٩٠ .

زيادة زكاة إلى الفقير ، وترك ما أحل لك من مال اليتيم ، فالعدالة إن كانت فالتفضل أحسن منها ، وكذلك قال تعالى فيمن استوفى حقه فتحرى العدالة : ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [1] وقال سبحانه بعد : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [2] وقال عز وجل : ﴿ وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [3] إشارة إلى أن الإحسان حسن والتفضل أحسن ، وقال جل جلاله : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [4] فالإنسان إنما يكون محسنا متفضلا بعد أن يكون عادلا منصفا

فأما من ترك ما يلزمه ثم تحرى ما لا يلزمه ، فإنه لا يقال له متفضل ، ولا يجوز تعاطى التفضل إلا لمن كان مستوفيا وموفيا لنفسه ، أما الحاكم المستوفى والموفى لغيره فليس له إلا تحرى العدالة والنصفة .

٣ – العلوم من حيث الكيفية :

والعلوم من حيث الكيفية ضربان : تصور وتصديق ، فالتصور هو أن يعرف الإنسان معنى الشيء صح عنده ذلك بدلالة أم لم يصح ، كمن عرف الصلاة وشرائطها وإن لم تثبت صحتها عنده بدلالة ، والتصديق هو أن يتصور الشيء ويثبت عنده بدلالة نقضى صحته .

([1]) سورة الشورى آية ٤١ .

([2]) سورة البقرة آية ٢٣٧ .

([3]) سورة البقرة آية ٢٣٧ .

([4]) سورة يونس آية ٢٦ .

والتصديق على ثلاثة أضرب :

١ – إما بغلبة الظن ، وهو أن يكون عليها دلالة وقد يعترضها شبه توهنها أو تبطلها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [١] .

٢ – وإما بعلم اليقين ، وهو أن يصير بحيث يعلم ويعلم أنه يعلم ولا تعترضه شبه توهنه ، كالعلم مثلا أن ٣ + ٣ = ٦ وأنه لا يصح أن يكون أكثر من ذلك أو أقل ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ [٢] .

٣ – وإما بعين اليقين ، وهو أن يرى بعقله الشيء ويعاينه ببصيرته فى حال اليقظة والنوم ، وقد نبه الله تعالى على هذه الوجوه بقوله سبحانه : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [٣]

أما التصورات المجردة فللعامة الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [٤] وأما غلبة الظن فللعامة الذين مدحهم الله تعالى بقوله : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ ﴾ [٥] وأما علم اليقين فللخاصة ، وأما عين اليقين ففى الدنيا للأنبياء ولبعض الصديقين ، وإلى نحوه أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : (تَنَامُ عَيْنِي وَلاَ يَنَامُ قَلْبِى) وبقوله صلى الله عليه وسلم : (إِنِّي أَرَى مِنْ خَلْفِي كَمَا أَرَى مِنْ قُدَّامِي) وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجه : (لو كُشِفَ الغِطاءُ ما ازددتُ يقيناً) .

---

[١] سورة الأعراف آية ٢٠١ .

[٢] سورة الحجرات آية ١٥ .

[٣] سورة التكاثر آية ٣ ـــ ٧ .

[٤] سورة النساء آية ٨٣ .

[٥] سورة البقرة آية ٤٦ .

الغرض من العبادة :

للعبادة حِكَم كثيرة لا تحصى منها تطهير النفس وجلب صحتها. لم يكلف الله الناس عبادته لينتفع هو تعالى بها انتفاع المولى باستعباد عبيده واستخدام خدمه ، فإن الله غنى عن العالمين ، ولا ليؤدبهم فقد قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [1] بل كلفهم سبحانه ليزيل أنجاسهم وأمراضهم النفسية ، لينالوا بفضله ورحمته حياة أبدية ، وسلامة باقية سرمدية ، فإن من ولد يكون ميتا بالإضافة إلى أصحاب الدار الآخرة ، وفاقداً للعين التى بها يعرفهم ، والسمع الذى به يسمع تحاورهم ، واللسان الذى به يخاطبونه وبه يخاطبهم ، والعقل الذى به يعقل عنهم .

فليس تلكم الحياة العين والسمع وما للإنسان فى الحياة الدنيا ، وكيف يكون ذلك وقد نفى الله ذلك عن الكفار وجعلهم أمواتا وصما وبكما وعميا ؟ .

إن الإنسان له قوة على تحصيل تلك الأمور فى ابتداء أمره ، فإن أهمل نفسه فى ابتداء أمره فلم يحصل لنفسه تلك الفضائل فى وقت التحصيل ضعفت القوة عن التحصيل ، وفاته الخير فلا يمكنه بعد الفوت قبول ذلك ، كالفحم إذا صار رماداً فلا يصير بعد ذلك ناراً ، فمن استمر فى كفره وفسقه وتمادى فيه صار إماَّ ميتا أو مريضا أو أصم لا يقبل الشفاء ، ولذلك قال الله تعالى فيمن ثكل هذه القوة : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۞ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ ﴾ [2] ، وقال تعالى " صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ "[3] ، وقال تعالى " يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ "[4] ، وقال تعالى " إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ "[5] وقال

([1]) سورة البقرة آية ١٨٥ .

([2]) سورة النمل آية ٨٠ ــ ٨١ .

([3]) سورة البقرة آية ١٧١ .

([4]) سورة محمد آية ٢٠ .

([5]) سورة التوبة آية ٢٨ .

تعالى فى المؤمنين : ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً ﴾ (1) وقال فيهم : ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَــار ﴾ (2) . . فمن استفاد الحياة والصحة والطهارة قبل أن تبطل عنه هذه القوى - أعنى قبول ذلك - فصار حياً سميعاً بصيراً طاهراً وحصل التزود كما أمره الله تعالى بقوله : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ (3) واهتدى بالدليل الموصوف بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ اللَّــهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾(4) وائتمر بقول الله تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾(5) واقتدى بالموصوفين بقوله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾(6) ﴾(6) فجدير أن يفلح فتحصل له هذه السعادة كما قال الله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (7) .

ومن حكم العبادات شكر المنعم سبحانه على ما أنعم ، فإن النفس إذا تطهرت من نجاساتها وزالت عنها أمراضها أهلت لأن تكون مرآة مصقولة لنقش حقيقة العلم فيها ، فتنكشف لها حقيقتها الــتى بانكشافها لها تنبلج أنوار الحق ، فتعلم علما نسبيا بعض المواهب والنعم المفاضة فضلا من الله وهى لا تحصى عداً ، ولا تستقصى حداً ، ثم تكاشف بما أعده الله للإنسان من النعم التى لا تتصــورها الخيالات ، من شهود جمال إلهى ، وتنعم بنعيم أبدى ، ودوام بهجة لا تزول فتكون العبادة بعد تلك التزكية شكرا لمنعم متفضل ، ومسارعة إلى نيل رضوانه الأكبر ، وفضله العظيم ، ونعمته الحقيقة ،

(1) سورة يس آية ٧٠ .

(2) سورة ص آية ٤٥ .

(3) سورة البقرة آية ١٩٧.

(4) سورة الشورى آية ٥٢ ـــ ٥٣ .

(5) سورة الحديد آية ٢١ .

(6) سورة المؤمنون آية ٦١ .

(7) سورة النور آية ٣١ .

قال الله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ [1] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [2] فتكون العبادة جامعة لمعانى الكمالات كلها ، فهى تزكية للنفوس ، وشكر لمنعم متفضل وهاب ، ومسارعة إلى نيل الخير الحقيقى والنعيم الأبدى والرضوان الأكبر ، وهناك حكمة عالية أخرى ، يشهدها أهل المعرفة بـالله ، لا يمكـن أن يصرح بها إلا بالإشارة ، العبادة عمل جليل جدا تبتهج به النفوس الفاضلة ، ونسبة شريفة تفتخر بها الأرواح الطاهرة ، ومشهد لا يوصف جماله ولا كماله تسارع إليه الأرواح الملكية ، ومواجهة لملك عظيم كبير متعال ، وتمثل بين يدى واحد أحد فرد صمد منعم متفضل رزاق كريم.

بيان الأمراض والأنجاس التى لا يمكن إزالتها إلا بالشرع :

كما أن فى بدن الإنسان عوارض وأمورا موجودة عند الولادة أو توجد حـالا فحـالا بحكمة تقتضى ذلك ، وهى تعد نجاسات لابد من إماطتها كلها أو إماطـة فضـولاتها ، وذلـك كالسلام[3] الذى يكون فيه الولد ، والسرة والقلفة والعقيقة [4] الموجودة فى الصبى عند الـولادة ، وكالأوساخ والقمل والظفر وشعر الإبط . كذلك فى نفس الإنسان عوارض هى نجاسات وأمراض نفسانية يلزم إماطتها كالجهل والشره والعجلة والشح والظلم ، ويدل بقوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [5] كون ذلك مخلوقا فيه وأنه تعالى أمره بإماطته وإماطة فضلاته بالمجاهدة القوية ليصير شبيها بالصديقين ، فذكر أنه مخلوق فيه كما ترى ، ثم أمره أن يميط العجلة عن نفسه فقـال : ﴿

(1) سورة سبأ آية ١٣ .

(2) سورة آل عمران آية ١٣٣ .

(3) السلا : غشاء رقيق يحيط بالجنين ويخرج معه من بطن أمه .

(4) العقيقة : شعر كل مولود من الناس ينبت وهو فى بطن أمه .

(5) سورة الأنبياء آية ٣٧ .

سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [2] ثم أمره بـــالعلم والعدل فى غير موضع من كتابه . وقوله تعالى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّح ﴾[3] ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [4] فأمره باتقاء الشح ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾[5] ووصفه بالكفور والقتـــور فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾[6] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَـــةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً ﴾[7] فأدخل عليه (كان) تنبيها على أن ذلك ذلك فيه غريزى موجود قبل وليس هو بشىء طارىء عليه ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَـــدَلاً ﴾ [8]

ثم نهى عن أكثر الجدل فالإنسان يحتاج أن يستعمل هذه القوى فى الدنيا كما يجـــب ، ووقت ما يجب ، وبقدر ما يجب ، وأن يميط عنه ما يضر ولا ينفع قبل خروجه من الدنيا حسب ما وردت به الشريعة ، فإنه متى لم يتطهر من النجاسة و لم يزل أمراض نفسه لم يجد ســـبيلا إلى نعـــيم الآخرة ؛ بل ولا إلى طيب الحياة الدنيا ، وذلك أن من تطهر تجلى عن قلبه الغشاوة فيعلم الحق حقا

---

(1) سورة الأنبياء آية ٣٧ .

(2) سورة الأحزاب آية ٧٢ .

(3) سورة النساء آية ١٢٨ .

(4) سورة الحشر آية ٩ .

(5) سورة المعارج آية ١٩ ــ ٢١ .

(6) سورة التغابن آية ١٦ .

(7) سورة الإسراء آية ١٠٠ .

(8) سورة الكهف آية ٥٤

والباطل باطلا فلا يشغله إلا ما يعنيه ، ولا يتناول إلا ما يعنيه ، فيحيا حياة طيبة كما قال تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[1] ولا تصير مقتنياته فى الدنيا وبالا عليه وعذاباكما قال الله تعالى فى الكفار : ﴿ وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[2] ويصير قلبه – متى تطهر – محل السكينة والأرواح الطيبة كما وصف الله المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾[3] ويعرف الطريق التى بها التوصل إلى جنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فيسارع فى الخير ويسابق إلى مغفرة من ربه وجنة عرضها السموات والأرض . ومتى بقيت نجاسته وتزايدت صار قلبه مقر الشبه والآثام كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۞ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾[4] فلا يجد سبيلا إلى سعادة الدار الآخرة كما قال تعالى : ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۞ كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾[5] فنبه على أنه لا لا يصلح لجنته ما لم تطهر ذاته عن أشياء هى مخلوقة فيها ، وعلى هذا دل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾[6]

فحق الإنسان أن يراعى هذه القوى فيصلحها ويستعملها على الوجه الذى يجب وكما يجب ، ليكون كمن وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ

---

(1) سورة النحل آية ٩٧ .

(2) سورة التوبة آية ٨٥ .

(3) سورة الفتح آية ٤ .

(4) سورة الشعراء آية ٢٢١ ـــ ٢٢٢ .

(5) سورة المعارج آية ٣٨ ـــ ٣٩ .

(6) سورة آل عمران آية ١٧٩ .

ادْخُلوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] وقد يقع للإنسان شبهة فى أمر هذه النجاسات فيقول : أترى أن ذلك من عند غير الله ؟ فإن كان من غيره فمن أين منبعه ؟ وإن كان منه فما المعنى فى أن أوجده الإنسان ثم أمره بأن يزيله ؟ فيقال : ما من شيء أوجده الله أو أمكن من إيجاده إلا وفيه حكمة ومنفعة وإن لم يعرف ذلك الإنسان ، لكن من الأشياء ما نفعه فى وقت مخصوص ، أو إذا كان على قدر مخصوص ، ثم إذا استغنى عنه أو زاد على قدر ما يحتاج إليه يجب أن يزال وذلك ظاهر بالتأمل ، إذ من المعلوم أن السلى والسرة يحتاج إليهما لصيانة الولد فى وقت ، ثم يستغنى عنهما فيكون إبقاؤها يعد نجاسة ، والشعر والظفر يحتاج إليهما إذا كانا على حد ، وإذا زاد يجب إماطتها .

النجاسات المخلوقة فى ذات الإنسان وعلاجها :

وقد شرحت فى قسم علوم النفس فى كتاب : (معارج المقربين) الفضائل وأضدادها ، وبينت أن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، ولتمام الفائدة لا أخلى هذا المختصر المبارك من بيان ما لا بد منه من ذكر النجاسات المخلوقة فى ذات الإنسان التى يجب أن يعالجها بالأدوية الشرعية كما قال الله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُور ﴾[3] فأقول وبالله التوفيق.

معلوم أن القوى قوة الشهوة وقوة الحمية وقوة الفكر ، فبإصلاح قوة الشهوة تحصل العفة فيحترز بها من الشره وإماتة الشهوة ، ويتحرى المصلحة فى المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح وطلب الراحة وغير ذلك من اللذات الحسية ، وبإصلاح قوة الحمية تحصل الشجاعة فيحترز من الجبن والتهور والحسد ، ويتحرى الاقتصاد فى الخوف والغضب والأنفة وغير ذلك ، وبإصلاح قوة الفكر تحصل الحكمة حتى يحترز من البله والخبث ويتحرى الاقتصاد فى تدبير الأمور الدنيوية ، وبإصلاح هذه القوى تحصل فى الإنسان قوة العدالة ، فيقتدى برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾

([1]) سورة النحل آية ٣٢ .

([2]) سورة الإسراء آية ٨٢ .

([3]) سورة يونس آية ٥٧ .

فى تزكية نفسه وحسن معاملته لغيره ، فنفس الإنسان معادية له كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[1] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ) [2] فمن أدبها أو قمعها أمن ظلمها ، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً ﴾ [3] أى : لا يخاف أن تظلمه نفسه الشهوية ، فالأعمال الصالحة حصن منها لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾[4] . . فإذا أقام المسلم الصلاة إقامة تجعله عالما بمعنى ما يعمل ، متيقنا نسبته فى عمله وكمالاته الحقيقية عند مواجهته فى الصلاة التى هى أضداد صفات الحق ، شهد بعين سره نور مواجهة إله عظيم كبير معبود علِّى موفق هاد ، فينجذب بالكلية إلى التخلق بتلك الأخلاق الربانية ، والتجمل بالحظوة لتلك الجلوة العلية ، ويقوى اشتياقه إلى دوام مواجهة هذا النور المشرق الذى هو قره عين العارفين ، وسر قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (وَجُعِلَت قُرَّةُ عَيْنِي فِى الصَّلاَةِ) [5] وقوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أَوَّلُ الْوَقْتِ رِضْوَانٌ) [6] وقوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أَبْرِدُوا بِالصَّلاَةِ) [1] ومن لم تزك نفسه لا تصح له تلك

([1]) سورة يوسف آية ٥٣ .

([2]) هذا الحديث رواه البيهقى فى الزهد وله روايات أخرى عن أنس .

([3]) سورة طه آية ١١٢ .

([4]) سورة العنكبوت آية ٤٥ .

([5]) هذا جزء حديث تمامه : " حبب إلى من دنياكم ثلاث : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة " رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير عن أنس رفعه ، وقد اقتصر الخطيب البغدادى فى تاريخه على جملة : " جعلت قرة عينى فى الصلاة " وأخرجه ابن عدى عن أنس بلفظ : " حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عينى فى الصلاة ".

([6]) هذا جزء حديث وتمامه : " أول الوقت رضوان الله وآخره عفوه " وقد أورده الحكيم الترمذى فى كتابه الصلاة ومقاصدها ص ١١٠ طبعة المؤتمر الإسلامى ، وأورده السيوطى فى الجامع الصغير وقال رواه الدار قطنى عن جرير .

المواجهة ؛ فيقف فى الصلاة بجسمه وقلبه يتقلب فى طمع أو شح أو هوى ، لم يكن ذلك لأن الله تعالى محجوب عن سره ، بل لأن سره محجوب عن مواجهة الحق ، ونفسه مسجونه فى نجاساتها ولقسها ودنسها ، والأَوْلى للمسلم أن يسارع إلى أولياء الله الذين تزكو بصحبتهم نفسه ، ويزول بجبهم لبسه ، حتى تشرق عليه أنوار القربات ، وتصح له أسرار المواجهات ، وأكمل تلك المواجهات عند إقامة الصلاة .

الفصل الثانى

بيان فى العبادات

١ـ الصلاة

الصلاة عماد الدين وأساسه ، وشكر المنعم المتجدد على عميم نعماه المكرر فى كل يوم جديد ، قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾[٢] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (الصَّلاَةُ عِمَادُ الدين)[٣] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾[٤] وقد اختار الله تعالى الذين مع حبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ واختار لهم الصلاة فقال تعالى : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً

([١]) هذا الحديث رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : " إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة ، فإن شدة الحر من فيح جهنم ... " من كتابه مواقيت الصلاة وفضلها باب الإبراد فى الظهر فى شدة الحر.

([٢]) سورة طه آية ١٤ .

([٣]) رواه البيهقى عن ابن عمر فى الجامع الصغير ، وقد أورده الغزالى فى الإحياء بلفظ : " الصلاة عماد الدين ، فمن تركها فقد هدم الدين " ورواه الطبرانى والديلمى عن على بلفظ : " الصلاة عماد الدين ، والجهاد سنام العمل، والزكاة بين ذلك " .

([٤]) سورة النساء آية ١٠٣ .

سُجَّدا ﴾[1] وقد أخبر الله تعالى عن المؤمنين على التحقيق أنهم يقيمون الصلاة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاة ﴾[2] وعنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قيل : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : (الصَّلاَةُ لِوَقْتِهَا)[3] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاَةِ)[4] فمن ضيع الصلاة فهو لغيرها من الدين أضيع

واعلم أنك فى صلاتك تناجى ربك فانظر كيف تصلى ، وحافظ فيها على ثلاثة أمور لتكون من جملة المحافظين على الصلاة وإقامتها ، فإن الله تعالى إنما يأمر بالإقامة ويقول سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ﴾[5] ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾[6] و لم يقل سبحانه صَلِّ أو صَلُّوا ، ويثنى سبحانه على المحافظين على الصلاة فيقول:﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[7]
.[7]

([1]) سورة الفتح آية ٢٩.

([2]) سورة الأنفال آية ٢-٣ .

([3]) هذا الحديث متفق عليه ، من حديث ابن مسعود .

([4]) هذا الحديث رواه مسلم عن جابر بلفظ : سمعت عن النبى ﷺ يقول :(بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة) قال الترمذي حديث صحيح. ورواه الطبرى عن ثوبان بإسناد صحيح ألا وبين العبد وبين الكفر والإيمان الصلاة، فإن تركها فقد أشرك) وله روايات أخرى عن أحمد وأبى داود والنسائى .

([5]) سورة العنكبوت آية ٤٥.

([6]) سورة البقرة آية ٤٣.

([7]) سورة الأنعام آية ٩٢.

أولا : المحافظة على الطهارة

قال الله تعالى : ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [1] وقال ﴿ﷺ وآله﴾: (لاَ يَقْبَلُ ٱللهُ صَلاَةً بَغيْرِ طَهُورٍ) [2] وقال عليه الصلاة والسلام : (والطُّهُورُ نِصْفُ ٱلإيْمانِ) [3] . وقال ﴿ﷺ وآله﴾: (مِفتَاحُ ٱلصَّلَاةِ ٱلطُّهُورُ) [4] فالمحافظة على الطهارة بأن يسبغ الوضوء قبل قبل الصلاة، وإسباغه أن يأتى بجميع سننه وأذكاره المروية عند كل وظيفة منه ، يحتاج أيضاً فى طهارة ثيابه وطهارة بدنه وطهارة الماء الذى يتوضأ به احتياطا لا يفتح عليه باب الوسواس ، فإن الشيطان يوسوس فى الطهارة فيضيع أكثر أوقات العبادة .

واعلم أن المقصود من طهارة الثوب وهو القشر الخارج ، ثم من طهارة البدن وهو القشر القريب ، ثم من طهارة القلب وهو اللب الباطن ، طهارة القلب من نجاسات الأخلاق المذمومة كما سنذكرها فى القسم الثالث ، لكن لا يبعد أن يكون للطهارة الظاهرة أيضاً تأثير فى إشراق نورها على قلبك ، فإنك إذا أسبغت الوضوء واستشعرت نظافة ظاهرك صادفت فى القلب انشراحاً وصفاء ما كنت لتصادفه من قبل ، وذلك للعلاقة بين عالم الشهادة وعالم الملكوت ، فإن ظاهر البدن من عالم الشهادة ، والقلب من عالم الملكوت بأصل فطرته ، إنما هبوطه إلى عالم الشهادة كالغريب عن جبلته ، وكما تنحدر من معارف القلب آثار إلى الجوارح ، فكذلك يرتفع من أحوال الجوارح أنوار إلى القلب ، ولذلك أمرنا الله تعالى بالصلاة مع أنها حركات الجوارح التى هى من

([1]) سورة التوبة آية ١٠٨.

([2]) رواه البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :(لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ) كتاب الوضوء باب لا يقبل الله صلاة بغير طهور .

([3]) أخرجه الترمذى من حديث رجل من بنى سليم ، وقال حسن ، وله رواية أخرى أوردها مسلم من حديث أبى مالك الأشعرى بلفظ : شطر : وذكره الغزالى فى الإحياء ج ١ ص ١٢٥.

([4]) أخرجه أبو داود والترمذى من حديث علىّ ، وقال الترمذى هذا أصح شئ فى هذا الباب وأحسنه.

عالم الشهادة ، وجعلها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الدنيا ومن الدنيا وقال : ((حُبِّبَ إِلَـيَّ مِـن دُنْيَاكُمْ ثَلاَثٌ : النسَاءُ ، والطِّيبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فى ٱلصَّلاةِ)) [1] .

فلا يبعد أن يفاض من طهارة الظاهر أثر على الباطن ، ففى بدائع صنع الله أمور أعجب من هذا إذ قد عرفت بالتجربة أن المجامع فى حال المباشرة لو أدمن النظر إلى بياض مشرق أو حمـرة قانية حتى غلبت تلك الصورة على نفسه مال لون المولود إلى ذلك اللون الذى غلـب عليـه ،وأن الجنين أول ما يتحرك فى البطن تميل صورته إلى الحسن إن كانت الأم مشاهدة فى تلك الحالة لصورة حسنة بحيث غلبت تلك الصورة على نفسها ، ولذلك أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ المباشـر عنـد مباشرته أن يحضر فى قلبه إرادة إصلاح المولود ويدعو الله بذلك فيقول : ((اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّـيطَانَ وَجَنِّب الشَّيطَانَ مَا رَزَقْتَنَا " [2] حتى يفيض الله سبحانه مبادئ الصلاح على الروح التى يخلقها عند إلقاء البذر فى محل الحرث بواسطة الصلاح الغالب على قلب الحارث ، كمـا يفـيض الله النـور بواسطة المرآة المحاذية للشمس على بعض الأجسام المحاذية للمرآة.

وهنا الآن قرعنا بابا عظيما من معرفة عجائب صنع الله فى الملـك والملكـوت ، وقـد أشممناك شيئا يسيراً من أسرار الطهارة الظاهرة ، فإن كنت لا تصادف بعد الطهارة وإسباغ الوضوء شيئا من الصفا الذى وصفناه ، فاعلم أن الدرن الذى عرض على قلبك من كدورات شهوات الدنيا وشواغلها أرمد عين القلب فصارت لا تشهد باللطائف والأشياء الخفية اللطيفة ، ولم يبق فى قوتـه إلا إدراك الجليات إن بقى، فاشتغل بجلاء قلبك وتصفيته فذلك أوجب عليك من كل ما أنت فيه .

([1]) رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير عن أنس رفعه، وأخرجه ابن عدى عن أنس بلفظ: " حبب إلى من الـدنيا النساء والطيب وجعل قرة عينى الصلاة " .

([2]) هذا جزء حديث وتمامه: " لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان " هذا الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

ثانياً : المحافظة على سنن الصلاة وأعمالها

وهى أن تحافظ على سنن الصلاة وأعمالها الظاهرة وأذكارها وتسبيحاتها حتى تأتى فيها بجميع السنن والآداب والهيئات كما جمعناها ، فإن لكل واحد منها سرا وله تأثير فى القلب كما نبهنا عليه في تأثير الطهارة ، بل أشد وأبلغ ،وشرح ذلك يطول ،وأنت إذا أتيت بذلك انتفعت به وإن لم تعلم أسراره ، كما ينتفع شارب الدواء بشربه وإن لم يعرف طبائع أخلاطه ووجوه مناسبته لمرضه .

واعلم أن الصلاة صورة صورها رب الأرباب – كما صور الحيوان مثلا – فروحها النية والإخلاص وحضور القلب ، وبدلها الأعمال، وأعضاؤها الأصلية الأركان، وأعضاؤها الكمالية الأبعاض، فالإخلاص فيها يجريان مجرى الروح ، والقيام والقعود يجريان مجرى البدن ، والركوع والسجود يجريان مجرى الرأس واليد والرجل ، وإكمال الركوع والسجود والطمأنينة وتحسين الهيئة تجرى مجرى حسن الأعضاء وحسن أشكالها وألوانها ، والأذكار والتسبيحات المودعة فيها تجرى مجرى آلات الحس المودعة فى الرأس والأعضاء كالعينين والأذنين وغيرهما ، ومعرفة معانى الأذكار وحضور القلب عندها يجرى مجرى الحس المودع فى آلات الحس كقوة السمع وقوة البصرة والشم والذوق واللمس .

واعلم أن تقربك بالصلاة كتقرب بعض خدم السلطان بإهداء وصيفة إلى السلطان ، واعلم أن فقد النية والإخلاص من الصلاة كفقد الروح من الوصيفة ، والمهدى للجيفة الميتة مستهزئ بالسلطان فيستحق سفك الدم لغفلة قلبه عن عظمته، وفقد الركوع والسجود يجرى مجرى فقد الأعضاء ، وفقد الأذكار يجرى مجرى فقد العينين من .

الوصيفة وجدع الأنف والأذنين ، وعدم حضور القلب فى غفلته عن معرفة معانى القرآن والأذكار كفقد السمع والبصر مع بقاء جرم الحدقة الأذن ، ولا يخفى عليك أن من أهدى وصيفة بهذه الصفات كيف يكون حاله عند السلطان ؟.

هذا مثال العبد لعبد مثله ، فكيف بمن يتقرب إلى خالقه ومبدعه المواجه لجماله العلى وعزته وعظمته ، كيف يقف أمامه ويغفل عن عظمته ؟ اللهم أعذنا من الغفلة – خصوصا عند القيام بعمل ما أمرت به – إنك مجيب الدعاء .

واعلم أن قول الفقيه فى الصلاة الناقصة ألفاظها وسننها إنها صحيحة كقول الطبيب فى الوصيفة المقطوعة أطرافها إنها حية وليست بميتة ، فإن كان ذلك كافيا فى التقرب بها إلى السلطان ونيل الكرامة منه فاعلم أن الصلاة الناقصة صالحة أيضا للتقرب بها إلى الله سبحانه ونيل الكرامة ، وإن أوشك أن يرد ذلك على المهدى ويزجر ، فلا يبعد مثل ذلك فى الصلاة فإنها قد ترد على المصلى كالخرقة الخلقة [1] كما ورد فى الخبر من قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا " [2] واعلم أن أصل الصلاة التعظيم والاحترام ، وإهمال آداب الصلاة يناقض التعظيم والاحترام .

ثالثا : المحافظة على روح الصلاة

أن تحافظ على روح الصلاة وهى الإخلاص وحضور القلب فى جملة الصلاة ، واتصاف القلب فى الحال بمعانيها ، فلا تسجد ولا تركع إلا وقلبك خاشع متواضع على موافقة ظاهرك ، فإن المراد خضوع القلب لا خضوع البدن ، ولا تقول (الله أكبر) وفى قلبك شيء أكبر من الله تعالى، ولا تقول: " وَجَّهْتً وَجْهِى " إلا وقلبك متوجه بكل وجهه إلى الله معرض عن غيره سبحانه ، ولا

---

(1) فقد روى الحكيم الترمذى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال :" قال رسول الله ﷺ : الصلاة ثلاثة أثلاث ثلث وضوء ، وثلث ركوع وسجود ، وثلث قراءة ، فمن أتى بهن تامة قبلن منه وما سواهن من العمل ، ومن نقص واحدة منهن طويت صلاته طى الثوب الخلق ثم ضرب بها وجه صاحبها ، فلا يرفع له عمل بعد ذلك حتى يتوب " انظر كتاب الصلاة للحكيم الترمذى ص٤١ . وقد أورد الغزالى فى باب " فضيلة إتمام الأركان " هذا الحديث كاملا فقال : " من صلى صلاة لوقتها ، وأسبغ وضوءها ،وأتم ركوعا وسجودها وخشوعها ، عرجت وهى بيضاء مسفرة ، تقول : حفظك الله كما حفظتنى ، ومن صلى لغير وقتها ،ولم يسبغ وضوءها، ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها ، عرجت وهى سوداء مظلمة تقول : ضيعك الله كما ضيعتنى حتى إذا كانت حيث شاء الله ، لفت كما يلف الثوب الخلق ،فيضرب بها وجهه " وهذا الحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس ، وكذلك رواه الطيالسى ، والبهيقى فى الشعب . انظر : إحياء علوم الدين جـ١ ص ١٤٨ .

(2) هذا الحديث أورده الغزالى فى الإحياء من حديث ابن عباس ، ورواه الطبرانى من قول ابن مسعود : " من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر... " وإسناده صحيح.

تقول :" الحمدً لِلِهّ "إلا وقلبك طافح بشكر نعمه عليك فرح به مستبشر ، ولا تقول : " وَإِياكَ نَسْتَعِينُ "إلا وأنت مستشعر ضعفك وعجزك وأنه ليس لك ولا لغيرك من الأمر شئ . وكذلك فى جميع الأذكار والأعمال ، وشرح ذلك يطول ، وقد شرحناه فيما سبق لنا .

فجاهد نفسك فى أن ترد قلبك إلى الصلاة حتى لا تغفل من أولها إلى آخرها إن استطعت ، فإنه لا يكتب للرجل من صلاته إلا ما عقل منها ، فإن تعذر عليك الإحضار – وما أراك إلا كذلك– فانظر ، فإن كان على قدر الغفلة مقدار ركعتين فلا تعد الصلاة ، ولكن افهم أن النوافل جوابر للفرائض ، فتنفل بمقدار أن يحضر القلب فيها فى مقدار ركعتين ، فكلما زادت الغفلة فزد فى النوافل حتى يحضر قلبك مثلا فى عشر ركعات بمقدار أربع ركعات وهو قدر فرضك ، فمن رحمة الله تعالى عليك أن قبل منك جبران الفرائض بالنوافل .

فهذه أصول المحافظة على الصلاة ، وقد بينت ميزان الخواطر فى الصلاة فى كتاب : (أصول الوصول) فليرجع إليه مريد المحافظة على الصلوات ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [١] .

فرار المصلى إلى الله وهو فى صلاته :

وما من عمل من أعمال القربات كلها إلا ومشاهده لا تخلو من شوب إلا الصلاة لأهل الخشوع والمعرفة ، فإن مشاهدها العلية ترفع الحجاب عن المرتبتين ، حتى تحصل المواجهة بالمكانتين ، فيكون المصلى مجملا بأكمل حلل العبد الخاشع الخانع ، والله سبحانه وتعالى مواجها له بمعانى الجمال الإلهى ، حتى يكون فى كل تكبيرة مشاهدا ،وفى قراءة كل كلمة من كلمات الذكر الحكيم مكاشفا بمعناها ، سامعا بالسمع الذى منحه الله كلام الله من الله ، ويكون فى كل رجوع وسجود فارا إلى الله من نفسه ومن كل كائن ، وبقدر فراره إلى الله يكون قربه منه ، قال الله تعالى :﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ [٢] وإنما يقيم الصلاة من شهد معانى مكانته شهودا يجعله يذكر ربه ، قال الله

([١]) سورة المؤمنون آية ٩ .

([٢]) سورة العلق آية ١٩

تعالى: " وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي "[١] وقد أثنى الله تعالى على المصلين ثناء جعل الأرواح الملكية تغبط المصلين الذين أثنى الله تعالى عليهم ، قال الله تعالى : " رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ"[٢].

ولما كانت التجارة والبيع لفظين عامين قد يراد بهما تجارة وبيع الدنيا أو تجارة وبيع الآخرة ؛ فالعابد الذى يعبد الله لنعيم الجنة تاجر ، والمؤمن الخالص الذى يبيع نفسه لله وماله لله بائع ، والرجل الذى يخرج فى الأسواق بسلعته بائع ، والذى يخرج بلا سلعة ليتوسط بين الناس وينتفع فى الأسواق تاجر .

والمؤمن الكامل لا تلهيه تجارة الدنيا والآخرة ولا بيع نفسه لله أو بيع سلعته لغيره للربح عن ذكر الله بمعناه الحقيقى الذى به تقام الصلاة ، وإقامة الصلاة التى تكون عن الذكر كشف الستار عن حقيقتك ، ورفع الحجاب عن الجمال والجلال والكمال الإلهى ، بقدر ما وهب الله للعبد من عيون الكشف اللائق بعبد ممنوح ، لا بقدر الجناب المقدس تتره وتعالى ، قال تعالى : " وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ"[٣]وإنما هو قبس من لوامع جمال الفيض الأقدس ، وبوارق لوامع جلال الكمال المقدس ، قال سبحانه : " وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ "[٤] هذا نذر مما يواجه به العبد المؤمن فى صلاته من مقامات القرب، ومشاهد الحب .

---

(١) سورة طه آية ١٤

(٢) سورة النور آية ٣٧-٣٨

(٣) سورة الزمر آية ٦٧

(٤) سورة الصافات آية ١٦٤

أسرار وأحوال وأنوار :

وأما ما يعطاه العبد المصلى من أسرار المراقبة بصلاته، فإنه شهود نعـيم ملكـوتى ، أو عذاب ملكوتى ، فتكون تلك المشاهد منتجة للفرار من المخالفات والبعد عن المعاصى، قال تعالى : " إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ"(١) فذكر الله تعالى فى الصلاة الذى هـو إقامتها أكبر ، لأنه يحصل به الشهود الأكبر للمصلى ، الذى ينتج عنه الرضـوان الأكـبر ، وقـد فصلت جملا من البيان فى معاملة المصلين الذين يقيمون الصلاة فى كتاب : (معارج المقربين) فمن أحب المزيد فليراجعه .

وهناك أسرار وأحوال وأنوار تمنح فضلا للقلوب ، لا ترسم بالعبارة ، ولا تبين بالكتابة ، تجعل مقيم الصلاة على قلب رسل الله السابقين صلوات الله وسلامه عليهم ، فينـال كـل مقـيم للصلاة قسطا وافرا من مقام رسول من رسل الله صلوات الله عليهم ، فقد يكون على قلب سيدنا عيسى عليه السلام ، أو قلب سيدنا موسى عليه السلام ،أو على قلب سيدنا الخليل الأكـبر ﴿ ﷺ وآله﴾ ، كل ذلك فضل الله يتفضل به على من وفقه وأقام بين يديه، لم يقمه سبحانه إلا لمحبـوب مراده ، فقد يجتمع فى المسلمين عشرات من الملايين على قلوب الرسل صلوات الله عليهم ، ويجمع الله لهم أسرار الرسل وأنوارهم وأحوالهم ، فيقيمهم الله تعالى مقام رسله دعاة إليه ، منهم من يمنحه لسان العبارة فيجذب القلوب بأنوار أقواله ، ويسكر النفوس بسحر بيانه ، ومنهم مـن يـوده الله بالكرامات من مشكاة الأنوار التى هى سر معجزات من هو على قلبه .

كل ذلك لأن الإسلام هو دين الله حقا ، وأن الله تعالى يهب للعاملين بوصـاياه أنـوار وأسرار الرسل السابقين جميعهم ، وكم ترى فى المسلمين فى كل زمان كثيرين يكرمهم الله بشـفاء المرضى ، وإبراء الأبرص، وإحياء القلوب الميتة ، وتنويع الأفكار بالحال أو بالمقـال أو بالـدعاء ، وبعضهم يفنى عن مراده بمراد الحق وعما سوى الحق، حتى يظهره الله به سبحانه نورا لخلقه ، فقـد يقهره حاله فيقول للشئ كن فيكون ، أحياء للسنة وإقامة لحجة الله على خلقه ، وهذا يستحيل أن

(١) سورة العنكبوت آية ٤٥

يوجد لأهل الأديان الأخرى لأنهم ليسوا على الحق ، ولو أراد الله هدايتهم لشرح صدورهم للإسلام ، ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

وقد اتضح الحق جليا ، وقامت حجة الله على الخلق أجمعين ، وليس لأحد من الخلق على الله حجة ، والله تعالى أسأل أن يمنحنى وإخوتى جميعا الإخلاص لذاته العلية ، والصدق فى المعاملة ، والحب الخالص لجنابه العلى ، والرضاء الكامل عنه سبحانه ، والتوفيق لما يحب ويرضى ، إنه على كل شئ قدير .

٢- الزكاة والصدقة

قال الله سبحانه وتعالى : (مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء "[١] وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : " حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة وأعدوا للبلاء الدعاء "[٢] وقال ﴿ﷺ وآله﴾: " هلك الأكثرون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا " ومعلوم أن إنفاق المال فى الخيرات أحد أركان الدين ، والتكليف به بعد القيام بما يرتبط به من مصالح البلاد والعباد وبعد الخلات والفاقات ، ومعلوم ان المال محبوب الخلق ، وهم مأمورون بحب الله عز وجل ، ويدعون الحب بنفس الإيمان ، فجعل بذل المال معيارا لحبهم ، وامتحانا لصدقهم فى دعواهم ، فإن المحبوبات كلها تبذل لأجل المحبوب الأغلب حبه على القلب ، فانقسم الخلق فيه على قدر مراتبهم:

١- فمنهم الأقوياء :

وهم الذين أنفقوا جميع ما ملكوا و لم يدخروا لأنفسهم شيئا ، فهؤلاء صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الحب ، كما فعل سيدنا أبو بكر الصديق إذ جاء بماله كله فقال له ﴿ﷺ وآله﴾:"ماذا

([١]) سورة البقرة آية ٢٦١ .

([٢]) هذا الحديث رواه الطبرانى، وأبو نعيم والعسكرى والقضاعى عن ابن مسعود مرفوعا ، ورواه البهيقى فى الشعب عن أبى أمامة مرفوعاً هكذا : " حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء " وله روايات أخرى عن عبادة بن الصامت ، وعن سمرة بن جندب.

أبقيت لنفسك؟فقال:الله ورسوله " وقال لسيدنا عمر رضى الله عنه:" ماذا أبقيت لنفسك؟ قال : مثله " أى: مثل ما أتيت به، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : " بينكما مثل ما بين كلمتيكما".

٢- ومنهم المتوسطون:

وهم الذين لم يقدروا على إخلاء اليد عن المال دفعة واحدة ، ولكن أمسكوه لا للتنعم بل للإنفاق عند ظهور محتاج إليه ، فهم يقنعون فى حق أنفسهم بما يقويهم على العبادة وإذا عرض محتاج بادروا إلى سد خلته وحاجته، و لم يقتصروا على قدر الواجب من الزكاة وإنما غرضهم الأظهر فى الإمساك ترصد الحاجات.

٣- ومنهم الضعفاء :

وهم المقتصرون على آداء الزكاة الواجبة ، فلا يزيدون عنها ولا ينقصون منها.

فهذه درجاتهم ، وبذل كل واحد منهم على مقدار حبه لله ، ومن لا يقدر إلا على أداء الواجب فليجتهد حتى يزيد على الواجب ولو شيئا يسيرا ، فإن مجرد الواجب حد البخلاء ، قال الله سبحانه وتعالى : " إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا " [1] فجاهد نفسك يا أخى حتى لا ينقضى عليك وقت إلا تتصدق فيه بشئ وراء الواجب ولو بكسرة خبز لترفع بذلك عن درجة البخلاء ، فإن لم تملك شيئا فليست الصدقة كلها فى المال ؛ لكن ؛ كل كلمة طيبة ، وشفاعة، ومعونة فى حاجة ، وعيادة مريض ، وتشييع جنازة ، وكل ما تقدر عليه من جاه ونفس وكلام لتطييب قلب مسلم ؛ يكتب لك صدقة .

المحافظة على الزكاة والصدقة :

وحافظ فى زكاتك وصدقتك على خمسة أمور .

([1]) سورة محمد آية ٣٧

الأول : الإسرار ، فإن فى الخبر : " إن صدقة السر تطفئ غضب الــرب " [(١)] والــذى يتصدق بيمينه بحيث لا تعلم شماله هو أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، وقد قــال الله تعالى :" وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ " [(٢)] وبذلك تتخلص من الرياء فإنه غالب على النفس ، وهو مهلك ينقلب فى القلب إذا وضع الإنسان فى قبره فى صورة حية ، أى يؤ لم إيلام الحية ، والبخل ينقلب فى صورة عقرب ، والمقصود فى كل الإنفاق الخلاص من رذيلة البخل ، فإذا امتزج به الرياء كان كأنه جعل العقرب غذاء الحية ، فما تخلص من العقرب ولكن زاد فى قوة الحية ، إذا كل صفة من الصفات المهلكات فى القلب إنما غذاؤها وقوهّا فى إجابتها إلى مقتضاها .

الثانى : أن تحذر من المن ، وحقيقته أن ترى نفسك محسنا إلى الفقير متفضــلا عليــه ، وعلامته أن تتوقع منه شكرا ، أو تستنكر تقصيره فى حقك وممالأته عدوك استنكارا يزيد على مــا كان قبل الصدقة ، فذلك يدل على انك رأيت لنفسك عليه فضلا ، وعلاجه أن تعرف أنه المحسن إليك بقبول حق الله منك ، فإن من أسرار الزكاة تطهير القلب وتزكيته عن رذيلة البخل وخبــث الشح ، ولذلك كانت الزكاة مطهرة ، إذ بها حصلت الطهارة ، فكأنها غسالة نجاسة ، ولذلك ترفع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأهل بيته عن أخذ الزكاة ،وقال عليه الصلاة والسلام : (إنهــا أوســاخ أموال الناس) [(٣)] وإذا اخذ الفقير منك ما هو طهرة لك فله الفضل عليك، أرأيت لو كان فصــادا فصدك مجانا وأخرج من باطنك الدم الذى تخشى ضرره فى الحياة الدنيا كان الفضل لك أم لــه ؟ فالذى يخرج من باطنك رذيلة البخل وضررها فى الحياة الدنيا والآخرة أولى بأن تراه متفضلا .

---

(١) هذا الحديث أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة ، ورواه البيهقى فى الشعب من حديث أبى ســعيد ، ورواه الترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة : " إن الصدقة لتطفئ غضب الرب " ورواه أيضا ابن حبان من حديث أنس.

(٢) سورة البقرة آية ٢٧١ .

(٣) هذا الحديث رواه مسلم عن ربيعة بن الحارث بلفظ : (الصدقة أوساخ الناس) وأيضا رواه مسلم عن حديث المطلب بن ربيعة بلفظ : (لا تحل الصدقة لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس) .

الثالث : أن تخرجه من أطيب أموالك وأجودها ، قال الله تعالى : (وَيَجْعَلُونَ لِلَّـهِ مَا يَكْرَهُونَ) [1]وقال تعالى : (وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) [2] وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : (إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب) يعنى الحلال ، فإن المقصود من هذا إظهار درجة الحب ، والإنسان يؤثر الأحب إليه والأنفس دون الأخس .

الرابع : أن تعطى بوجه طلق مستبشر وأنت به فرحان غير مستكره، قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (سبق درهم مائة ألف) [3] وإنما أراد ما يعطيه عن بشاشة وطيب نفس من أنفس ماله وأجوده ، فذلك أفضل من مائة ألف مع الكراهة .

الخامس: أن تتخير لصدقتك محلا تزكو به الصدقة ، وهو المتقى العالم الذى يستعين بها على طاعة الله عز وجل وتقواه ، أو الصالح الفقير ذا الرحم ، فإن لم تجتمع هذه الأوصاف، فتزكو الصدقة بآحادها أيضا ، ورعاية الصلاح أصل الأمور ، فما الدنيا إلا البلغة للعباد وزاد لهم إلى المعاد ، فليصرف إلى المسافرين إليه المتخذين هذه الدار مترلا من منازل الطريق ، قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى) .

هذا الركن الذى هو الزكاة هو العبادة المالية الصرفة ، و لم تكن الزكاة بهذا التفصيل فى أنواع الأموال والمستحقين فريضة- على ما أعلم — فى غير ديننا ، وذلك لأن الإسلام جعل كل فرد من المسلمين لكل فرد ككل عضو من الجسد لكل عضو ، قال ﴿ﷺ وآله﴾ : (مثل المؤمنين فى تعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه اشتكى كله) وقال الله تعالى : (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) [4] فجعل لنا سبحانه الأرض مسجدا وترابها طهورا ،وأحل

---

(1) سورة النحل آية ٦٢

(2) سورة البقرة آية ٢٦٧

(3) هذا الحديث أخرجه النسائى وابن حبان وقال حديث صحيح — من حديث أبى هريرة .

(4) سورة الحج آية ٧٨ .

لنا الغنائم ، وجعل الزكاة من كل أنواع الأموال ، وعمم النفع بها لأنواع من الناس حتى ظهر سر قول الله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) [1]وقوله سبحانه وتعالى:(الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء) [2] من كلام الله سبحانه وكلام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يظهر لنا مكانة كل مسلم فى المجتمع الإسلامى ، ومكانة كل فرد من المسلمين ، ومن فتح الله قفل قلبه ففقه سر فرضية الزكاة يعلم حق العلم أن العمل فى الدنيا عمل الله تعالى ، وقيام بفرض عليه لإخوته المسلمين .

كشف شئ من رموز الزكاة :

وإليك كشف شئ من رموز الزكاة :

١- الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن المجتمع الإسلامى عائلة واحدة ، يدلى نسبهم إلى أب واحد هو رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأزواجه رضى الله عنهن أمهاتهم ، وكما تجب النفقة على الغنى للفقير من والديه إذا عاقه عن العمل مرض ظاهر أو فساد فى قوة العقل ، فكذلك يجب على الغنى أن ينفق على أخيه فى النسب الإسلامى بقدر ما أمره الله سبحانه وتعالى ، فيكون الغنى يبر والده الأعظم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى ابنه الذى هو أخوه المسلم ، قال صلى الله عليه وسلم : (أدخل الإسلام بلالا فى نسبى وأخرج الكفر أبا لهب من نسبى) وقال ﴿ﷺ وآله﴾ (سلمان منا أهل البيت) [3] فالمسلمون أبناء رجل واحد هو رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، والغنى من المسلمين هو أخ الفقير وكنزه وخزينته ، فلا يرضى أن يجوع أخوه وهو شبعان لأن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين ، فإن الغنى عارية فلعله يأتى عليه يوم – وهو فقير – فيتمنى أن يعينه إخوانه ، وما كان يتمنى الفقير منه المعونة.

([1]) سورة الحجرات آية ١٠

([2]) سورة آل عمران آية ١٣٤

([3]) هذا الحديث رواه الطبرانى والحاكم عن عمرو بن عوف .

٢- إن تأدية الزكاة تلقى المحبة فى قلوب الفقراء، فينال منه عواطف تلك القلوب المتوجهة إلى علام الغيوب ، ومقبول دعاة تلك الألسنة المبتهلة إلى الله تعالى ، وحب تلك النفوس التى ترى أنك يا أخى بإعطائك الزكاة إياهم نجيتهم من آلام الجوع والعرى ، فيكون الفقراء لك زينة فى الرخاء ، ودروعا وسيوفا فى الشدة .

٣- إنك يا أخى إذا أخرجت الزكاة طيبة بها نفسك ، وعلمت ان هذا العمل فرض عليك اعتقدت أن المال لله يتصرف فيه كيف يشاء، فتكون وفيت بالبيع الذى بعته لله بقوله تعالى : (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ) [1] وتكون بنص تلك الآية الشريفة ممن بشرهم الله تعالى بالجنة .

٤- بإخراجك الزكاة طيبة بها نفسك تعيش مطمئن القلب من خوف مصيبة أو بلية ، صحيح البدن من خوف ألم أو من مرض ، وذلك لأنك بإخراجك الزكاة يحصل لك انشراح صدر لاعتقادك أنك طهرت مالك ، وحصنت نفسك بتأدية الزكاة ، ومن يؤدى الزكاة على الوجه الذى أمر الله شاعرا بالفقراء والعطف على المسكين ، فلا شك أنه يكون رحمانيا لا يظلم الناس لا فى بيع ولا فى شراء ، ولا يسئ جارا له ، ولا يقطع ذا رحمه ، ولا يعق والديه ، ولا يسعى فى سوء أو فساد بين الناس . وللزكاة أسرار غامضة يشهدها من أقامه الرب سبحانه خليفة عنه ، حتى يكون المشاهد فى إخراج الزكاة خليفة عن ربه فى الإعطاء ، عبدا مطيعا لمولاه ، وعاملا مخلصا من عمال الله ، وعبداً مسكينا فقيراً وهبه الله خير مواهبه، وواجهه بأجمل مواجهاته العلية ، وتلك الأسرار لا تفى بها عبارة المعبرين ، ولكنها نعمة من الله تعالى سر قوله تعالى : (وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ) [2]

([1]) سورة التوبة آية ١١١ .

([2]) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

وقوله ﴿ﷺ وآله﴾: (من عمل بما علم ورثة الله علم ما لم يعلم) [1] والعارف إذا أشار للمريد السالك كانت الإشارة أفصح من العبارة له ، قال ﴿ﷺ وآله﴾ (المؤمن يكفيه قليل الحكمة) .

تزكية النفس :

وهناك نوع آخر من أنواع الزكاة وهى تزكية النفس : قال الله تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) [2] وقال سبحانه : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) [3] وقال تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا) [4] تزكية النفس فى الحقيقة الأصل الذى يؤسس عليه الأصول وتقوم به الفروع ، ومن جاهد نفسه وهواه فى ذات الله بلغ غاية مناه ، ومن أهمل تزكية نفسه كان كالحيوان الأعجم وإن عمل كل القربات ، فهو إنما يقلد غيره كالقردة أو النسانيس ما دام لم يجتهد فى صفاء جوهر نفسه وتطهيرها من نجاستها ، ومن زكى نفسه عرفها ، ومن عرف نفسه عرف ربه .

وقد فصلت طرق تزكية النفس وتصفية جوهرها وعلاجها من أمراضها لإعادة الصحة عليها ، والمعدات التى تحفظ الصحة عليها فى مختصرنا هذا فى باب الغرض من العبادة ، وفى كتاب: (معارج المقربين) فى قسم علوم النفس ، وفى كتاب : (شراب الأرواح) ... إلى آخره ، فأكتفى فى هذا المختصر بتنبيه أخى ألى العناية بتزكية نفسه حتى يمكنه أن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويحج البيت ويصوم رمضان ، ويقوم لله فى كل ما أوجبه عليه مشاهدا أسرار حكمة أحكامه، وغوامض

---

(1) سبق تخريج هذا الحديث ، وقد ذكره أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس بن مالك، ورواه الغزالى فى الإحياء ج ١ ص ٧١

(2) سورة المؤمنون آية ٤ .

(3) سورة الأعلى أية ١٤– ١٥ .

(4) سورة الشمس آية ٧ – ٩ .

ما تعبدنا سبحانه وتعالى به ، والله أسأل أن يمنحنا الفقه والحكمة والمعونة على طاعته وشكره وذكره إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٣- الصيام

الصيام هو الفريضة التى هى ترك فى الحقيقة ، وهو العمل الروحانى الذى يصير الإنسان فيه كالملائكة الروحانيين لترك ضروريات الحياة الجسمانية ولوازم النفس الحيوانية ، وهو رمز يشير إلى الإنسان حيوان وملك ، فهو بقوته الحيوانية يعمل أعمال البهائم ،وبقوته الملكية يعرف الله ويعبده ويتشبه بسكان ملكوته الأعلى ، فيترك لوازم قواه الحيوانية بالصوم ليتذكر قوته الملكية،ولتطهر نفسه من كثافة التوسع فى الأعمال الحيوانية ، فإن النفس يقوى طمعها وميلها إلى الحرص والأمل والحماقة والخيانة ويغض بنى نوعه كلما توسعت فى كل ما يقوى الحيوانية ، ويكون بذلك بعيدا عن رتبة الإنسان قريبا من الأنعام لتشبهه بها ، فإذا قلل من ضروريات حياته الحيوانية تشبه بحياته الملكية من الصوم والنفقة كان أشبه بالملائكة منه بالحيوان ، وكان الصيام تزكية لنفسه وشفاء لها من أمراضها ، وصفاء لجوهرها ، حتى تتكمل بكمالها الحقيقى الذى تكون به فى مقعد صدق عند مليك مقتدر تخدمها الملائكة .

الصوم عبادة وشفاء وتزكية :

فالصوم عبادة من حيث أنه فرض فرضه الله ، وشفاء من حيث أنه يرد للنفس صحتها ، وتزكية من حيث أنه جلاء للنفس من التطرف عن الحالة الوسطى التى هى الفضيلة ، وبه تتجمل النفس بالرحمة والصلة والبر والإحسان والتواضع ، فيكون الصائم عبدا عاملا لله بتركه ما نهاه الله عنه من الأكل والشرب وملامسة النساء مما أباحه الله له فى غير رمضان ، فيكون متجملا بجمال الروحانيين ، ومتخلقا بأخلاق الله من الرحمة والعاطفة والإحسان والود والشفقة ، ومجاهدا نفسه فى ذات الله بحبسها عن شهواتها ، فيكون له بإطاعة الأمر النعيم المقيم ، وبالتشبه بالروحانيين مشاهدة ملكوت الله ، وبالتخلق بأخلاق الله نعيم النظر إلى وجهه الكريم سبحانه . فما أيسر ما ترك وما أعظم ما نال .

وقد شرحت أركان الصوم وسننه وآداب الصائمين وتتريه الصوم فى كتاب : (أصـــول الصوم) و (معارج المقربين) ولكن رغبة فى الخير لأخى – زودنى الله وإياه بفضله العظيم ورحمتـــه – أحببت أن أبين له مزيدا فى مختصرى هذا .

قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : يقول الله سبحانه : (كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به) [1] وقال عليه الصلاة والسلام : (لكل شئ باب وباب العبـــادة الوصول) [2] وإنما كان الصوم مخصوصا لأنه عملان عظيمان : أحدهما كف النفس ، وهو عمـــل سرى لا يطلع عليه أحد غير الله تعالى ، لا كالصلاة والزكاة وغيرهما . والثانى : أنه قهر لعدو الله ، فإن الشيطان هو العدو ، ولن يقوى العدو إلا بواسطة الشهوات ، والجوع يكسر جميع الشـــهوات التى هى آلة الشيطان ، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام ، " إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجارى الشيطان بالجوع " [3] وهو سر قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنان وغلقت أبواب النيران وصفدت الشياطين، ونادى مناد : يا باغى الخير هلـــم ، ويـــا باغى الشر أقصر) [4] .

([1]) هذا الحديث رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة وهو متفق عليه .

([2]) هذا الحديث أخرجه ابن المبارك فى الزهد ، ومن طريقة أبو الشيخ فى الثواب من حديث أبى الدرداء، وقد رواه الغزالى فى الأحياء ج١ ص ٢٣١

([3]) هذا الحديث متفق عليه من حديث صفية ولكن بدون قوله " فضيقوا مجارى الشيطان بـــالجوع " وقـــد أورده الغزالى فى الإحياء ج١ ص٢٣٢ .

([4]) هذا الحديث أخرجه الترمذى وقال حديث غريب ، وكذلك أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه على شـــرط الشيخين من حديث أبى هريرة .

مقدار الصوم وأسراره :

واعلم أن الصوم بالإضافة إلى مقداره على ثلاث درجات ، وبالإضافة إلى أسراره على ثلاث درجات ، أما درجات مقداره فأقلها : الاقتصار على شهر رمضان ، وأعلاها : صوم داود عليه السلام ؛ وهو أن تصوم يوما وتفطر يوما ، ففى الخبر الصحيح أن ذلك أفضل من صوم الدهر وأنه أفضل الصيام ، وسره أن من صام الدهر صار الصوم له عادة فلا يحس بوقعه فى نفسه بالانكسار ، وفى قلبه بالصفاء ، وفى شهواته بالضعف، فإن النفس تتأثر بما يرد عليها لا بما مرنت عليه – فلا يبعد هذا – وإن الأطباء أيضا ينهون عن اعتياد شرب الدواء وقالوا : من تعود هذا لم ينتفع به إذا مرض إذ يألفه مزاجه فلا يتأثر به ، واعلم أن طب القلوب قريب من طب الأبدان ، وهو سر قوله ﴿ﷺ وآله﴾ لعبد الله بن عمرو رضى الله عنهما لما كان يسأله عن الصوم فقال عليه الصلاة والسلام : (صم يوما وأفطر يوما، فقال : أريد أفضل من ذلك ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : لا أفضل من ذلك) [1] ولذلك لم قيل لرسول الله إن فلانا صام الدهر فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : (لا صام ولا أفطر) [2] ، كما قالت عائشة رضى الله عنها لرجل كان يقرأ القرآن بهذرمة [3] : إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت .

([1]) هذا الحديث ذكره البخارى ومسلم ، ولفظ البخارى أن عبد الله بن عمرو قال : " أخبر رسول الله ﷺ أنى أقول : والله لأصومن النهار ولأقو من الليل ما عشت ، فقلت له : قد قلته بأبى أنت وأمى ، قال : فإنك لا تستطيع ذلك ، فصم وأفطر ، وقم ونم ، وصم من الشهر ثلاثة أيام ، فإن الحسنة بعشر أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر ، قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك ، قال : فصم يوما وأفطر يومين ، قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك ، قال: فصم يوما وأفطر يوما ، فذلك صيام داود عليه السلام وهذا أفضل الصيام ، فقلت : إنى أطيق أفضل من ذلك ، فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : لا أفضل من ذلك " انظر صحيح بخارى ، كتاب الصوم ، باب صوم الدهر .

([2]) هذا الحديث أخرجه مسلم من حديث أبى قتادة ، قيل : يا رسول الله كيف بمن صام الدهر ؟ قال : " لا صام ولا أفطر " . وأخرجه النسائى ونحوه .

([3]) الهذرمة : هى سرعة الكلام والقراءة ، هذرم القرآن : أسرع فى قراءته لا يتدبر معانيه .

وأما الدرجة المتوسطة : فهو أن تصوم ثلث الدهر ، وإن صـــمت الاثـــنين والخمـــيس وأضفت إليهما رمضان ، فقد صمت من السنة أربعة أشهر وأربعة أيام وهو زيادة على الثلـــث ، لكن لا بد أن ينكسر يوم من أيام التشريق وترجع الزيادة إلى ثلاثة أيام ويتصـــور أن ينكســـر فى العيدين يومان فتكون ثلاثة أيام ، فترجع الزيادة إلى يوم واحد ، فتأمل حسابه تعرفه ، فلا ينبغى أن ينقص عن هذا القدر صومك ، فإنه خفيف على النفس وثوابه جزيل .

وأما درجات أسراره فثلاث : أدناها أن يقتصر على الكف عن المفطـــرات ولا يكـــف جوارحه عن المكاره ، ذلك صوم العموم وهو قناعتهم بالاسم . الثانية : أن تضيف إليـــه كـــف الجوارح فتحفظ اللسان عن الغيبة والعين عن النظر إلى الزينة وكذا سائر الأعضـــاء. الثالثـــة : ان تضيف إليه صيانة القلب عن الفكر والوسواس وتجعله مقصورا على ذكر الله عز وجـــل ، وذلـــك صوم الخصوص ، وهو الكمال .

ثم للصيام خاتمة بها يكمل ، وهو أن يفطر على طعام حلال لا شبهة فيه ، وألا يســـتكثر من أكل الحلال بحيث يتدارك ما فاته ضحوة فيكون قد جمع بين أكلتين دفعة واحدة ، فتثقل معدته ، وتقوى شهوته ، ويبطل سر الصوم وفائدته ، ويفضى إلى التكاسل عن التهجد ، وربما يســـتيقظ قبل الصبح ،وكل ذلك خسران ، وربما لا توازيه فائدة الصوم .

هذا ما كان عليه السلف الصالح ، وقد بينت أركان الصوم وفرائضة فى الكتب السابقة[٢] فأكتفى هنا بما ألمعت إليه ، والله سبحانه يوفق إخوتى المؤمنين للقيام بأركان الشريعة على وجههـــا الأكمل ، وأن يمنحنى وإياهم مقام المراقبة فى الأعمال حتى لا يحصل منا تقصير يفسد العمـــل ، ولا غفلة تنقص فضله ، ولا أغراض ولا علل تجعله لغير الله تعالى إنه مجيب الدعاء .

٤- الحـــــج

تقدم تعريفه وأركانه ووصف الحاجين بيت الله تعالى فى كتاب : (أصول الوصول) و(معارج المقربين) [١] بما أغنى عن إعادته هنا ، ولكن لا بد من الإلماع إلى مزيد من مشاهد الحــج حتى يكون هذا المختصر وافيا بالغرض المطلوب بمشيئة الله تعالى.

لما كانت الأحكام الشرعية كلها لا يمكن أن يقوم بها العامل على وجهها الأكمل إلا إذا كان عاملا بقلبه وجسمه ، ولما كان كل ركن من أركان الأحكام الشرعية للقلب فيه عمل خاص وملاحظات خاصة ، لا يمكن أن يكون العمل كاملا شرعا إلا باستيفاء تلك المعانى ، ولو أن المسلم حرك جسمه بتأدية الأحكام الشرعية مع غفلة قلبه عن الاستحضار الذى يتمثل فيه لمن العمل ، ولم العمل ، ومن هو العامل ، وما الغاية الباعثة عليه ؟ كان العمل ناقصا أو مـــردودا لعـــدم اســـتيفاء شروطه شرعا. وهذا لغفلة القلب فإن الأعمال البدنية صور ميتة ، وإنما حياتها وروحها بالإخلاص فيها .

والحج هو الركن المالى البدنى الروحانى ، أما كونه بدنيا فلانتقال الجسم من مكـــان إلى مكان ، وأما كونه ماليا فلبذل الأموال فى النفقة على نفسه فى زاده وراحلته ، وأما كونه روحانيـــا فلأن الحاج قاصد ربه بانتقاله ، فهو لا يقطع مرحلة كونية إلا تقطع الروح مرحلة من مراحلها حتى تصل إلى جناب القدس الأعلى ، ولهذه المعانى كلها أشار الله تعالى إلى أن من توفرت لديه معدات الحج وأهمله كان كأنه كفر ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[٢] أى : ومن كفر بترك الحج بعد الاستطاعة فإن الله غـــنى عنه وعن عمله ، فالحج ظاهره انتقال إلى مكة المكرمة ، وباطنه فرار من الدنيا إلى الملكوت الأعلى

---

(١) أفرد الإمام المجدد أبو العزائم للصوم كتاب : (صيام أهل المدينة المنورة) علاوة على ما ذكر فى كتبه الأخرى.

(٢) أفرد الإمام للحج كتاب : (هداية السالك إلى علم المناسك) وكتاب : (لبيك اللهم لبيك) وقـــد قامـــت مشيخة الطريقة العزمية بطبع هذه الكتب .

بالروح ، إنما يشهد تلك المعانى من عمل بما علم عملا مطابقا لسنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)[1] .

من مشاهد الحج :

ومن خرج من بيته مهاجرا إلى الله ، موقنا أنه سيزول البين من البين ، وتقع عين بصيرته على جمال مولاه العلى ، كيف يكون حاله فى سيره ؟ ، ولا أشك أنه يكون فى أرفع درجات الشوق إلى مولاه ، وأكمل أحوال الخشوع والرهبة من ربه الذى خلقه ودعاه إلى حضرته العلية فلباه ، لا تخطر على قلبه الدنيا لاستغراقه فى الشوق إلى الله ، فلا ينتقل خطوة إلا ويشهد مشاهد تنمو بها صبوته ، وتقوى حالته، وتجدد بها رهبته . يشهد من كل ركن من أركان الحج مشاهد ملكوتية ، فيشهد فى مقام الإحرام إخلاص القلب من كل حظ وهوى فى التوجه إلى الله ، وتطهير السر من كل علة وغرض لمواجهة الله ، وقطع كل علاقة بينه وبين أهله وولده إقبالا على الله ، ورغبة فيما عند الله ،وحسن ثقة بولاية الله لهم ،وهكذا لا ينتقل من ركن إلى ركن ولا مكان إلى مكان إلا أشهده الله ملكوت كل مكان ، وأسرار كل عمل من الأعمال ، حتى إذا وقف على عرفات نفسه ، فعرف ربه ورجع إلى بيت الوجهة بيت ربه الحرام ، منيبا إليه بعد المعرفة ،ذاكراً جنابه العلى ، لا يشغله عن ذكر الله ذكر والد ولا ولد ، بل ولا دنيا ولا آخرة ، وعند ذلك يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، ثم يتجلى الغفور التواب فيمنحه بدل كل سيئة حسنة ، فيرجع وهو كيوم ولدته أمه مطهرا من الذنوب ، وهو كمن عبد الله بأخلص نية طول عمره سر قوله تعالى ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾[2] .

ولولا أن هذا المختصر وضعته لأبين للناس أجمعين ـ لا فرق بين المسلم وغيره ـ أن الإسلام دين سمح ، أكتفى بهذا النذر اليسير ، وأذكر ما لا بد من ذكره في ركن الحج مما يحتاج إليه أخى المسلم ، ومن ظهرت له جمالات الإسلام علم أن ما عليه القوم من الأديان الأخرى محض

---

(1) سورة آل عمران آية ٩٧ .

(2) سورة الفرقان آية ٧٠.

ضلال وتعصب قبيح للآباء ، ذلك أمر بديهى إذا نظر نظرة مريد نجاة نفسه ، وراغب فى الحــق ، ومنزه عقله وفكره عن أن يقبل غير ما يتضح نوره ويظهر دليله .

أعمال الحج :

قد بينتها مفصلة فى (أصول الوصول) و (معارج المقربين) وهنا أبين ما لا بــد منــه للسالك المخلص ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾[1] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من مات و لم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو إن شاء نصرانيا) [2] وقــال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (بنى الإسلام على خمس ...) [3] الحديث .وللحج أعمال ظاهرة ذكرناها فيما سبق لنــا من الكتب ، ونريد أن ننبهك سفى هذا المختصر إلى آداب دقيقة وأسرار باطنة .

آداب الحــــج :

أما الآداب فسبعة :

الأول : أن ترتاد للطريق رفيقا صالحا ونفقة طيبة حلالا ، فالزاد الحلال ينور القلــب ، والرفيق الصالح يذكر بالخير ، ويزجر عن الشر.

الثانى :أن يخلى يده عن مال التجارة لكى لا يتشعب فكره ، وينقسم خاطره ، ولا يصفو للزيارة قصده .

الثالث : أن يوسع فى الطريق بالطعام ، ويطيب الكلام مع الرفقاء والمكارى .

([1]) سورة آل عمران آية ٩٧.

([2]) هذا الحديث أخرجه ابن عدى من حديث أبى هريرة ، وذكر الترمذى نحوه من حديث علـــىّ ، وقـــال هـــذا حديث غريب ، وفى إسناده مقال ، وقد ذكره الغزالى فى الإحياء ج١ ص ٢٣٩.

([3]) هذا الحديث متفق عليه ، ورواه الشيخان والترمذى والنسائى عن ابن عمر .

الرابع : أن يترك الرفث والجدال والتحدث بالفضول فى أمر الدنيا ، بل يقصر لسانه – بعد مهمات حاجاته – على الفكر وتلاوة القرآن

الخامس : أن يركب راحلة دون المحمل ، ويكون رث الهيئة أشعث أغبر غير متزين ، بل على هيئة المساكين ، حتى لا يكتب فى جملة المترفين.

السادس : أن يترل على الدابة أحياناً ترفيها للدابة [1] ،و تطيبا لقلب المكارى ، وتخفيفا للأعضاء بالتحرك ، ولا يحمل الدابة ما لا تطيق ، بل يرفق بها ما أمكن

السابع : أن يكون طيب النفس بما أنفق من نفقة، وبما أصابه من تعب وخسران ، وأن يرى ذلك من آثار قبول الحج ، فيحتسب الثواب عليه .

أسرار الحج :

وأما أسراره فكثيرة نرمز منها إلى أمرين :

الأمر الأول : أنه وضع بدلا من الرهبانية التى كانت فى الملل كما ورد بـه الخـبر [2] ، فجعل الله سبحانه الحج رهبانية لأمه سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ،فشرف البيت العتيق وأضافه سبحانه إلى نفسه ونصبه مقصد العباد ،وجعل مع ما حوليه حرما لبيته تفخيما لأمره ، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمة ، وأكد حرمه الموضع بتحريم صيده وشجره ،ووضعه على أمثال

([1]) لقوله عليه الصلاة والسلام : " لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى " وهذا الحديث أخرجه أحمد من حديث سهل بن معاذ ، ورواه الحاكم وصححه ، وكذلك أيضا حديث : " كان النبى ﷺ يترل عن الدابة غدوة وعشية ، يريحها بذلك " وقد أخرج هذا الحديث الطبرانى فى الأوسط ، ورواه البيهقى فى الآدب أيضا .

([2]) حيث يقول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : حين سأله أهل الملل عن الرهبانية والسياحة فى دينه : " أبدلنا الله بها الجهاد والتكبير عن كل شرف " يقول الإمام الغزالى : يعنى الحج ، وهذا الحديث أخرجه أبو داود من حديث أبى أمامه ، ورواه الطبرانى بلفظ : " إن لكل أمه سياحة وسياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله ، ولكل أمه رهبانية ، ورهبانية أمتى الرباط فى نحر العدو " وقد أوضح الإمام الغزالى فى الإحياء هذا الموضوع .

الملوك ليقصده الزوار من كل فج عميق ، ضعفاء غبراء متواضعين لرب العالمين خضوعا لجلاله ، واستكانة لعزته ، مع الاعتراف بتنزهه عن أن يكتنفه بيت ، أو يحويه مكان ، ليكون ذلك أبلغ فى رقهم وعبوديتهم لذاته جل جلاله ، ولذلك كلفهم سبحانه أعمالا غريبة لا تناسب الطبع والعقل ، ليكون إقدامهم بحكم محض العبودية ، وامتثال الأمر من غير معاونة باعث آخر ، وهذا سر عظيم فى الاستعباد ، ولذلك قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا) (1) .

الأمر الثانى : أن هذا السفر وضع على مثال سفر الآخرة ، فليتذكر المريد بكل عمل من أعماله أمراً من أمور الآخرة موازيا له ، فإن فيه تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر المستبصر ، فتذكر من أول سفرك عند وداعك أهلك وداع الأهل فى سكرات الموت ، ومن مفارقة الوطن الخروج من الدنيا ، ومن ركوب الجمل ركوب الجنازة ، ومن الالتفاف فى أثواب الإحرام الالتفاف فى أثواب الكفن ، ومن دخول البادية إلى الميقات ما بين الخروج من الدنيا إلى ميقات القيامة ، ومن هول قطاع الطريق سؤال منكر ونكير، ومن سباع البوادى عقارب القبر وديدانه ، ومن انفرادك عن أهلك وأقاربك وحشة القبر ووحدته، ومن التلبية إجابة داعى الله عز وجل يوم البعث .

وكذلك فى سائر الأعمال ، فإن فى كل عمل سرا وتحته رمزا يتنبه له كل عبد بقدر استعداده للتنبه بصفات قلبه ، وقصور همه على مهمات الدين ، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمنحنا المعونة والتوفيق لعمل ما يجب ، ويجعل لنا نورا نمشى به فى الناس ، إنه مجيب الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(1) هذا الحديث أخرجه البزار والدار قطنى فى العلل من حديث أنس ، وقد أورده الغزالى فى الإحياء جـ ١ ص ٢١٢ ، ص ٢٦٦ .

الباب الرابع

المعاملات

معاملة النساء وآداب عشرتهن

الإنسان مفطور على الضرورة والمثنوية :

خلق الله الإنسان ليكون خليفة عنه جل جلاله ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، خلق الله سبحانه ملكه بيد واحدة ، وملكوته بيد واحدة ، والإنسان بيديه، ليظهر جل جلاله بعجائب قدرته وغرائب حكمته ظهورا تقوم به الحجة على أنه القادر الحكيم سبحانه ، المنزه عن الزوجة والولد والوالد ، خلق سبحانه الإنسان على صورة الرحمن [1]، فهو جل جلاله الواحد الأحد ، المنفرد بالأحدية ، المنزه عن الكثرة والاحتياج، فهو سبحانه وتعالى المنفرد بالواحدية دون غيره ، والإنسان وإن كان خلقه الله على صورة الرحمن ، إلا أنه جل جلاله فطره على الضرورة والمثنوية ، فالله هو الغنى الذى لا يفتقر إلى شئ .

والإنسان يغنى ويفتقر ، ويعز ويذل ، ويقوى ويضعف ، ويقدر ويعجز ، ويحيا ويموت ، ويعين ويعان ، ويعلم ويجهل ، ويضل ويهتدى ، قهره الله تعالى على حقيقة العبودية – وإن نسيها – وجعله مضطرا فى كل نفس إلى عناية ومعونة – وإن غفل عن نشأته الأولى والآخرة – ومن دلائل احتياجه واضطراره وافتقاره أن خلق له بطنا يأكل ويتغوط ، وجعله يقهر بالنوم فى كل يوم ، وجعل جسمه أصغر الأجسام ، قال سبحانه : (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) [2] فهو فوق الملائكة قدرا إذا زكت نفسه ، وأسفل من الشياطين إذا دساها .

([1]) لقوله عليه الصلاة والسلام : " خلق الله آدم على صورته " وهذا الحديث أورده السيوطى فى الجامع الصغير تحت رقم٣٩٢٨ ج١ص٥٣٢ ، وقال فيه أخرجه أحمد والبخارى ومسلم عن أبى هريرة .

([2]) سورة غافر آية ٥٧

بين له سبحانه وتعالى سبيل الخير والشر ، وأمره بما فيه خيره فى الدنيا والآخرة ، ومنحه الحرية والإرادة قال تعالى : (فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ) [1] ومن دلائل اضطراره وحجج احتياجه أن خلق له من نفسه زوجة ، هى هو فى الحقيقة ونفس الأمر ، ولذلك جعل له أنسا بها وسكونا إليها ، فهى كالأرض للإنسان وهو كالبذر لها ، قال تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) [2]

فالمرأة حجة على أن الرجل عبد الله ، والرجل حجة على أن المرأة أمة لله ، لما لكل نوع من الحاجة إلى الآخر ، الدالة على الذل والاحتياج ، فهى محل أنسه وهو محل أنسها ، وهى أرض الأشجار الإنسانية ، وبستان مشاهد عجائب القدرة والحكمة العلية ، وإنى لولا أنى وضعت هذا المختصر للأحكام الظاهرة ، لكشفت الحجاب عن المشاهد العلية التى يشهدها الزوج فى زوجته ، من الرحمة والعناية والمشاركة فى مرافق الحياة ، والعفة والصون من مخالفة الله تعالى ، ومن الآيات التى لا يشهدها إلا الصديقون ، ولكن أفردت لذلك كتاب : (إصطلاح الصوفية) وهذا المختصر إنما أمليته ليكون سراجا منيرا للسالك ، ولزمنى أن أبين آداب الزوجية ، وما يجب على الزوج لزوجته ، وعلى الزوجة لزوجها ، حتى تصفو الحياة، ويعيش الزوج مقبلا على الله مستريحا من شرور زوجته ، وتعيش الزوجة مقبلة على الله تعالى فى راحة من عناء زوجها ، ليتم المعاملات فى مختصرى هذا ، وإن كنت شرحت حسن المعاملات فى غيره.

النكاح فرض مع الحاجة وسنة على الكفاية :

قال تعالى : (وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُم وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [3] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ :(تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط والرضيع) وفى الخبر الآخر عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من رغب عن

(1) سورة الكهف آية ٢٩ .
(2) سورة الأعراف آية ١٨٩ .
(3) سورة النور آية ٣٢ .

سنتى فليس منى ، وإن من سنتى النكاح ، ومن أحبنى فليستن بسنتى) [1] وفى الخبر المشهور عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ (من كان ذا طول فليتزوج) [2] وفى لفظ آخر : (من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فإن فى الصوم له وجاء) [3].

فأمر الله سبحانه وتعالى المحتاجين وندب المعصومين ، فالنكاح فرض مع الحاجة ، وسنة على الكفاية ، ثم وعدهم جل شأنه الغنى على الفقر ، فالغنى على الغنى يجعله على نحو الفقر من الفقير ، فقد يكون فقيرا من الأجر فيغنيه بالأجر ، ويكون فقيرا من عدم الحكم فيغنيه بإيجاب الحكم عليه ، ويكون فقيرا بالضيعة والشتات وفقد المترل والأثاث فيغنيه بوجود ذلك ، وأحكمه عز وجل بما عقبه من قوله تعالى وهو الحكيم : (وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [4] فهو سبحانه واسع ، لغناه عن معانى فقرهم ، عليم بحالهم وما يصلحهم فيما لا يعلمون مقادير رتبهم ، روى الحسن عن أبى سعيد عن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من ترك التزوج مخافة العيلة فليس منا) [5] وروى عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) [6] وفى الخبر: (من نكح لله عز وجل وأنكح لله تبارك وتعالى استحق ولاية الله تعالى) وهذا أدنى حال تنال به الولاية ، لأنها مقامات ، لكل مقام عمل من الصالحات .

---

(1) هذا الحديث متفق على أوله ، من كلام أنس بلفظ :(من رغب عن سنتى فليس منى) وأما باقيه فقد أخرجه أبو يعلى فى مسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما بلفظ : (النكاح سنتى ، فمن أحب فطرتى فليستن بسنتى) واسناده حسن ، وقد أورده الغزالى كما ذكر هنا بنصه .

(2) هذا الحديث أخرجه ابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها .

(3) متفق عليه من كلام ابن مسعود ، وقد أورده البخارى بلفظ : " من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فنه له وجاء " رواه ابن مسعود فى كتاب الصوم باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة .

(4) سورة النور آية ٣٢

(5) رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى سعيد ، ورواه الدارمى فى مسنده ، والبغوى فى معجمه ، وأبو داود فى مراسليه.

(6) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة ، وقد رواه الترمذى أيضا عن أبى حاتم المزنى وقال حديث حسن .

إلا أنه روى أن بشر بن الحارث [1] رضى الله عنه قيل له : إن الناس يتكلمون فيك ، فقال : وما عسى يقولون ؟ قيل : يقولون : إنك تارك للسنة – يعنون النكاح – فقال : قل لهم إنى مشغول بالفرض عن السنة . وقال مرة : ما يمنعنى من ذلك إلا آية فى كتاب الله تعالى ، قوله: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ) [2] ولعلى ألا أقوم بذلك ، وكان يقول :

لو كنت أعول دجاجة لخفت أن أكون جلادا على الجسر . هذا يقوله فى سنة عشرين ومائتين والرجال والنساء أحمد عاقبة ، فكيف بوقتنا هذا ؟!.

ترك التزوج أفضل للمريد :

فالأفضل للمريد فى مثل زماننا هذا ترك التزوج إذا أمن الفتنة ، ووثق الحفظ ، و لم تنازعه نفسه إلى معصية ، و لم تترادف خواطر النساء على قلبه حتى يتشتت همه ، أو يقطعه عن حسن الإقبال على الخدمة مسامرة الفكر ومحادثة النفس بأمر النساء ، و لم يجمح بصره إلى محظور ، و لم يخالط ذكره شهوة تستولى عليه ، لأن أول خطايا الفرج شهوة القلب بمسامرة الفكر ، وهو معقول الخطيئة ، الثانية إنعاظ الفرج عن شهوة القلب وهذا عمل ، وقبض الرجل على فرجه منعظا معصية ثالثة ، فإن ظهرت الشهوة من الفرج فهو معصية رابعة ، ومس الفرج باليمين مكروه .

فمتى وقعت هذه المعانى فإنها تغير القلب عن الخشوع ، وتدخل عليه النقصان ، ومتى لم يبتل العبد بها فإن الخلوة أفضل المعانى، وفيها يجد لذة الوجود ، وحلاوة المعاملة ، ويقبل على نفسه ، و يشتغل بحالة ، ولا يهتم بحال غيره فيحمل حاله على حال غيره فيقصر ، أو يقوم بحكم آخر فيعجز ، ويعالج شيطانا آخر مع شيطانه ، وتنضم نفس أخرى إلى نفسه ، وله فى مجاهدة نفسه مصابرة هواه وعدوه أكبر الاشتغال . ومنها أن المكاسب قد فسدت فليس ينال أكثرها إلا بمعصية ، وهو مسئول من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، فإن كان كسب من غير حله حسب ذلك عليه ، وإن أنفق على هواه لم يحسب ذلك له .

([1]) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله الحافى ، وأصله من "مرو" سكن بغداد ومات بها ، وصحب الفضيل بن عياض ،وكان عالما ورعا ، وكان أحد الصوفية المعروفين، توفى سنة ٢٢٧ هـ .

([2]) سورة البقرة آية ٢٢٨ .

ومنها أن أكثر النساء قليلات الدين والصلاح ، والأغلب عليهن الجهل والهوى ، فلا يأمن أن ينقاد لأجل هواه فيخسر آخرته ، أو يمانعهن فلا ينقدن له فيتنغص عليه عيش دنياه ، روى أن الحسن رضى الله عنه قال : والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبه الله فى النار .

ومنها أن الأغنياء فى مقام الظالمين للفقراء لبخس حقوقهم ، وتقصيرهم عما أوجب الله عز وجل عليهم لهم ، فإن كان المتأهل فقيرا لقى شدة وجدا وعناء وكدا ، ولم يأمن دخول الآفات عليه لأجل عيلته ، وقد سئل ابن عمر رضى الله عنهما عن جهد البلاء فقال : كثرة العيال وقلة المال ، وقال بعض السلف : قلة العيال أحد اليسارين ، وكثرة العيال أحد الفقرين.

وقد جاء فى الأثر : (الوحدة خير من قرين السوء) [1] وهو من القرين الصالح على غير يقين فلا يزال اليقين بالشك ، فإن أكثر اتلنساء لا صلاح فيهن لغلبة الهوى وحب الدنيا عليهن ، وفى الخبر : (مثل المرأة الصالحة فى النساء كمثل الغراب الأعصم من مائة غراب) [2] يعنى أبيض البطن . وفى وصية لقمان لابنه : يا بنى اتق المرأة السوء فإنها تشيبك قبل المشيب ، واتق شرار النساء فإنهن لا يدعون إلى خير وكن من خيارهن على حذر. وقال الله فيهن حين أفشين سر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) [3] يعنى مالت إلى الهوى فأمرهما بالتوبة للميل إلى الهوى . ثم قال : (وإن تظاهرا عليه) [4] يعنى تعاونا ، وهما من خير الأزواج ، فما ظنك بمن شاكلته الجهالة واستولى عليه الهوى والضلالة ؟ وفى الخبر عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ : (مَا أَفْلَحَ قَوْمٌ

([1]) رواه الحاكم وأبو الشيخ والعسكرى عن أبى ذر مرفوعا ، ورواه الديلمى عن أبى هريرة ، وثبت فى صحيح البخارى :" لو يعلم الناس ما فى الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده " انظر صحيح البخارى كتاب الجهاد باب السير وحده وأخرجه الترمذى وابن ماجه .

([2]) رواه الطبرانى عن أبى أمامة ولأحمد عن عمرو بن العاص رضى الله عنه : كنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران فإذا بغربان كثيرة فيها غراب أعصم احمر المنقار ، فقال عليه الصلاة والسلام : " لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب فى هذه الغربان" وإسناده صحيح ، وهو أيضا فى السنن الكبرى للنسائى .

([3]) سورة التحريم آية ٤ .

([4]) سورة التحريم آية ٤.

تَمْلِكُهُمُ ٱمرأة) [١] وقال تعالى مخبرا بعداوة بعض الأزواج والأولاد : ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [٢] يعنى فى الآخرة لانحطاطكم فى أهوائهم ، وميلكم إلى وهـن آرائهـن فصاروا عدوا، كيف وقد تكون المرأة والولد أعدى عدو للرجل اليوم وقبل يوم القيامة إذا خالفهم فى أهوائهم وعمل بالعلم فى أحوالهم ، وقد كان إبراهيم بن أدهم[٣] رضى الله عنه يقول : من تعود أفخاذ النساء لم يفلح .

فالوحدة أروح للقلب ، وأقل للهم ، لخفة المؤنة ، وقلة المطالبـة ، وأمـن المنازعـة ، وسقوط حكم من أحكام الشرع عنه ، وقد كان السلف يعملون فى إسقاط الحكم عنهم للعجـز عن القيام بها ويغتنمون ذلك ، وفى التخلى قلة الاهتمام بالادخار والجمع ، وترك المراعاة والتحفظ للمبيت فى البيت ، وسقوط المساءلة والاستخبار، وترك التجسس للآثار التى نهى الله ورسوله عنها ، إذ لا يأمن ذلك مع الزوجة السوء .

وقد أبيحت العزبة وفضل التعزب لهذه الأمة فى آخر الزمان ، وفى خبر : (إذا كان بعد المائتين أبيحت العزبة لأمتى ، ولأن يربى أحدكم جرو كلب خير من أن يربى ولدا) والخبر المشهور : (خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لا أهل له ولا ولد) [٤] وفى خبر آخر : (يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يدى زوجته وأبويه وولده، يعيرونه بالفقر ، ويحملونـه مـالا يطيق ، فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك) [٥] . وهذا كله لمن لم يخش العنت .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب المغازى عن أبى بكرة بلفظ :" لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " ومناسبة ذلك أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى أنو شروان ، وذلك لعدم من يتولى الملك من البنين عندهم ، ورواه الحاكم وأحمد وابن حبان مطولا ، وله روايات أخرى .

(٢) سورة التغابن آية ١٤

(٣) هو إبراهيم بن أدهم،يكنى أبا إسحاق،من أهل بلخ،كان من أبناء الملوك،خرج يوما للصيد فهتف به هاتف أيقظه من غفلته فترك زينة الدنيا ولعبها ولهوها،ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع،خرج إلى مكة ، وصحب سفيان الثورى والفضيل بن عياض،مات بالشام.

(٤) أخرجه أبو يعلى عن حذيفة ، ورواه الخطابى فى العزلة من حديثه وحديث أبى أمامة ، وأورده الغزالى فى الأحياء ج٢ ص٢٤

(٥) أخرجه الخطابى فى العزلة عن ابن مسعود نحوه ، وللبيهقى فى الزهد نحوه عن أبى هريرة .

نكاح الأمة خير من العنت :

فأما من خاف العنت – وهو الزنا – فنكاح الأمة حينئذ خير له من العنت ، والصبر عن نكاح الأمة خير من نكاحها ، وهذا معنى قوله عز وجل فى نكاح الأمة : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ﴾ (1) وكذلك إن كثرت الخواطر الردية والوساوس الدنية فى قلبه بذكر النكاح ، فشغله ذلك عن فريضة ، أو شتت ذلك همه فإن نكاح الأمة أيضا خير له ، على أن نكاح الأمة محرم على من وجد طولا لحرة .

كراهة الاستمناء وتحريمه :

انصرف الناس ذات يوم من مجلس ابن عباس رضى الله عنهما ، وبقى شاب لم يبرح فأطال القعود ، فقال له ابن عباس : هل لك من حاجة ؟ فقال : نعم ، لى حاجة استحييت أن أسألكها بحضرة الملأ ، قال : سلنى عما شئت ، قال : إنى أهابك وأجلك ، فقال ابن عباس : إنما العالم بمنزلة الوالد لا حشمة على السائل منه ، فمهما أفضت به إلى أبيك فأفض به إلى فإنه لا عيب عليك عندى ، فقال : رحمك الله ، إنى شاب لا زوجة لى وربما خشيت العنت على نفسى ، وربما استمنيت بذكرى فهل لى فى ذلك معصية ؟ فأعرض عنه ابن عباس رضى الله عنهما ثم قال : أف وتف ، نكاح الأمة خير من الزنا .

وقد جاء فى كراهة الاستمناء وتحريمه والتغلظ فيه أخبار شديدة ، روينا أن الله عز وجل أهلك أمة من الأمم كانوا يعبثون بمذاكيرهم ، وقد أسنده إسماعيل بن أبان عن انس بن مالك ، وسئل أبو محمد (2) عن النساء فقال : الصبر عنهن ولا الصبر عليهن . والصبر عليهن خير من الصبر على النار ، وكذلك قال بعض العلماء : معالجة العزبة خير من معالجة النساء ، ولا يصلح التزويج فى هذا الوقت إلا لرجل يدركه من الشبق ما يدرك الحمار ، إذا نظر إلى أتان لم يملك نفسه أن يثب عليها حتى يضرب رأسه وهولا ينثنى ، فإن كان الإنسان على مثل هذا الوصف كان التزويج له

---

(1) سورة النساء آية ٢٥ .

(2) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن عمران ميمون الكوفى ، سكن مكة وتوفى بها ، وهو من تابعى التابعين ، كان إماما فى الحديث ، ولد سنة ١٠٧ هـ ، وتوفى سنة ١٩٨ هـ .

أفضل ، روى عن عكرمة ومجاهد رضى الله عنهما : (وخلق الإنسان ضعيفا) [1] قال: لا يصبر عن النساء.

فضل النكاح والندب إليه :

وفى الخبر : (إِذَا تَزَوَّجَ الرجلُ فقد أحرزَ نصفَ دِينِه فَلْيَتَّقِ اللهَ في الشَّطْرِ الْآخَرِ) [2] وفى دعاء البراء بن عازب [3] رضى الله عنه : أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وقلبى ومنّيى . فكأن المنى إذا امتلأ به خرز الصلب فطلب الخروج فخيف منه فساد القلب ومرضه بمترلة الدم إذا كان فى العروق ، فإذا تصاعد من الصلب طبخه وغيره فابيض وصار منيا بإذن الله تعالى .

وذكر النساء فى مجلس معاوية رضى الله عنه فذمهن قوم فقال : لا تفعلوا ، فما علل المريض ، ولا ندب الميت ، ولا عمر البيوت مثلهن ، ولا احتاجت الرجال إلى مثلهن .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج ، وكان يجتمع غلمانه لما أدركوا عكرمة وكريبا وغيرهما فيقول : إن أردتم النكاح أنكحتكم ، فإن العبد إذا زنى نزع نور الإيمان من قلبه ، وقال عمر رضى الله عنه لأبى الزوائد : ما يمنعك من النكاح إلا عجوزا وفجورا .

وكان بعض الصالحين يكثر التزوج حتى لم يكن يخلو من اثنتين أو ثلاثة ، فعوتب فى ذلك فقال : هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدى الله عز وجل مجلسا أو وقف بين يدى الله موقفا فى معاملته فخطر على قلبه خاطر شهوة أو فكر فى ذلك ؟ فقيل : يصيبنا هذا كثيراً ، فقال : لو رضيت فى عمرى كله بمثل حالكم فى وقت واحد لما تزوجت ، ثم قال : لكنى ما خطر على قلبى خاطر يشغلنى عن حالى إلا نفذته لأستريح منه وأرجع إلى شغلى ، ثم قال : منذ أربعين سنة ما خطر على قلبى خاطر معصية .

---

(1) سورة النساء آية ٢٨ .

(2) هذا الحديث رواه البيهقى عن أنس ، ورواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح الإسناد عن أنس مرفوعاً بلفظ : " من زرقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله فى الشطر الباقى " ورواه ابن الجوزى بلفظ : " من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله فى الشطر الآخر " .

(3) هو الصحابى الجليل البراء بن عازب بن الحارث بن عدى الأنصارى ، شهد مع سيدنا علّى الجمل وصفين ، توفى بالكوفة فى خلافة مصعب بن الزبير . انظر : تهذيب الأسماء جـ ١ ص١٣٢.

وقد كان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : خير هذه الأمة أكثرها نكاحاً ، وكان سفيان بن عينية يقول : كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليا عليه السلام كان أزهد أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية . . فالنكاح سنة ماضية ، وخلق من أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقد كان بعض الصحابة انقطع إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يخدمه ويبيت عنده الحاجة إن طرقته فقال له : (أَلَا تَتَزَوَّجْ ؟ فقال : يا رسول الله أنا فقير لا شىء لى ، وأنقطع عن خدمتك . فسكت عنه ثم عاد عليه ثانية : أَلَا تَتَزَوَّجْ ؟ فقال له مثل ذلك ، ثم تفكر الصحابى فى نفسه فقال : والله لرسول الله أعلم بما يصلح دنياى و آخرتى وما يقربنى من الله عز وجل ، لئن قال لى الثالثة لأفعلن ، فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : أَلَا تَتَزَوَّجْ ؟ قال : فقلت : يا رسول الله زَوِّجْنى ، قال : اذْهَبْ إِلَى بَنِى فُلَانٍ فَقُل لَهُمْ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تنكِحُونى فَتَاتَكُمْ ، فقلت : يا رسول الله إنه لا شىء لى ، فقال لأصحابه : اجْمَعُوا لِأَخِيكُمْ وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فجمعوا له وذهب إلى القوم فأنكحوه ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : أَوْلِمْ [1] ، فقال : يا رسول الله لا شىء عندى ، فقال لأصحابه :

اجمعوا لأخيكم ثمن شاة ، فجمعوا له وأصلحوا له طعاما ودعا عليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه) وحديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : (من ترك النكاح مخافة العيلة فليس منا) [2] .

وقد كان عمر يكثر النكاح ويقول : ما أتزوج إلا لأجل الولد ، وقد كانت هذه نية جماعة من السلف يتزوجون لأجل أن يولد لهم فيعيش فيوحد الله تعالى ويذكره، أو يموت فيكون فرطا صالحا يثقل به ميزانه ، كيف وقد روينا عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إِنَّ الطِفْلَ يَجُرُّ أَبَوَيْهِ بِسِرَّهِ إِلَى الْجَنَّةِ) [3] و (إِنَّ الْمُوْلُودَ يُقَالَ : ادْخُل الْجَنَّةَ ، قال : فَيَقِفُ عَلَى بَابِ الْجنَةَّ فَيَظَلُّ مُحْبَنْطًا – أى ممتلئا غيظا وغضبا – فيقول : لا أدخل إلا وأبواى معى ، فيقال : أدخلوا أبويه معه

(1) أى :اصنع وليمة .

(2) هذا الحديث رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد ، ورواه الدارمى فى سنده ، والبغوى فى معجمه، وأبو داود فى مراسيله من حديث أبى نجيح ، وأورده الغزالى فى الإحياء ج ٢ ص ٢٢ .

(3) هذا الحديث أخرجه ابن ماجه من حديث على ، وكذلك رواه من حديث معاذ بلفظ : " إن الطفل ليجر أمه بسرره إلى الجنة إذا هى احتسبته " .

الجنة) [1] وروينا خبرا غريبا : (إن الأطفال يجمعون فى موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب ، فيقال للملائكة : اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة ، قال : فيقفون على باب الجنة ، قال: فيقولون لهم مرحباً بذَرَارِى المسلمين ادخلوا لا حساب عليكم ، فيقولون: وأين آباؤنا وأمهاتنا ؟ قال : فتقول الخزنة : آباءكم وأمهاتكم ليسوا مثلكم ، إنهم كانت لهم ذنوب وسيئات فهم يحاسبون عليها ويطالبون ، قال: فيتضاغون ويضجون على باب الجنة ضجة واحدة، فيقول الله عز وجل للملائكة وهو أعلم : ما هذه الضجة ؟ فيقولون : يا ربنا أطفال المسلمين ، قالوا : لا ندخل الجنة إلا مع آبائنا ، فيقول الله عز وجل : تخللوا الجمع فخذوا بأيدى آبائهم فأدخلوهم معهم الجنة) .

وروينا عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ : (خير نسائكم الودود الولود) [2] وقد قيل : إن فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد ، وإن ركعتين من متأهل أفضل من سبعين ركعة من أعذب ، وقال تعالى فى وصف الرسل عليهم الصلاة والسلام ومدحهم : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [3] فعد الأزواج والذرية من مدحهم وذكرها فى وصفهم ، وكذلك الحق بهم أولياءه فى المدح والفضل فى قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [4] فسألوا الله عز وجل من فضله.

وكل ما ذكرناه من فضل النكاح يشترك فيه الرجال والنساء ، بل هو لهن أفضل وأصوب لسقوط المكاسب عنهن ، وقد أمر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ المرأة بالتزوج وندها إليه وأخبر بفضل الرجل وفضل المتزوجة على العزب فى غير حديث ، وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (لعن الله المتبتلين من الرجال الذين يقولون : لا نتزوج ، ولعن الله المتبتلات من النساء اللاتى يقلن : لا نتزوج) بعد ما ذكر من عظيم حق الرجل على المرأة وثقل واجبه حتى قالت المرأة : إذا لا أتزوج أبدا ، قال: (بلى تزوجى فهو خير)

([1]) هذا الحديث أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، وأخرجه النسائى من حديث أبى هريرة ، وإسناده جيد .

([2]) هذا الحديث أخرجه البيهقى من حديث ابن أبى أدية الصدفى ، وقال البيهقى وروى بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسلا .

([3]) سورة الرعد آية ٣٨ .

([4]) سورة الفرقان آية ٧٤ .

وقد ندب الله تعالى إلى النكاح فى قوله تعالى : ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [1] وفى (أنى) معان يحتمل أن تكون بمعنى متى ، أى : متى شئتم ليلا أو نهارا ، أو بمعنى كيف ، أى : كيفما شئتم من قيام أو غيره ، وإقبال أو غيره ، على أن لا يجاوز الحرث .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ ﴾[2] قيل : النكاح معطوف به الإتيان وهو أحد الوجوه الثلاثة ، لما فيه من فضل الاغتسال من الجنابة ، ولما فيه من فضل مباشرة المرأة ، وأن المرأة إذا لاعبها بعلها وقبلها كثرت له من الحسنات ما شاء الله ، فإذا اغتسلا خلق الله من كل قطرة ملكا يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة وجعل ثواب ذلك لهما ، ولما فى ذلك من التحصين لهما ووضع النطفة فى محلها وفى ذلك فضائل جمة ، وقد أمر به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى قوله : (ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، وزوجة مؤمنة تعينه على آخرته) [3].

والوجه الثانى فى قوله تعالى : ﴿ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ ﴾ قيل : الولد قدموه لآخرتكم ، لأنه عمل من أعمالكم كما قال عز وجل : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [4] أى : ما نقصناهم أولادهم ، أى : جازيناهم بهم وجعلناهم مزيدا فى حسناتهم لأنهم من أعمالهم وأكسابهم ، كما قال عز وجل : ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [5] يعنى ولده ، ففى تدبير ذلك أن الولد يغنى المؤمن فى الآخرة ، كما يغنى المال عنه إذا أنفقه فى سبيل الله تعالى ، وفى الخبر : (ولد الرجل من كسبه ، فأحل ما أكل من كسب ولده) [6] .

والوجه الثالث فى قوله تعالى : (وقدموا لأنفسكم) قيل : التسمية عند الجماع ، أى : أذكروا اسم الله تعالى عنده فذلك تقدمة لكم ، وانه يستحب للمجامع ان يسمى الله عز وجل عند جماعه ويقرأ : (قل هو الله أحد) [7] قبله .

([1]) سورة البقرة آية ٢٢٣ .

([2]) سورة البقرة آية ٢٢٣ .

([3]) هذا الحديث أخرجه الترمذى وحسنه ، ورواه ابن ماجة أيضا .

([4]) سورة الطور آية ٢١ .

([5]) سورة المسد آية ٢ .

([6]) رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر رضى الله عنهما بلفظ : " الولد من كسب الوالد "

([7]) سورة الإخلاص .

وإذا كانت المرأة معينة لزوجها على الطاعة ، طالبة للتقلل والقناعة و فهى نعمة من الله عليه يطالبه سبحانه بشكرها ، قال الله عز وجل : ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [1] فعد ذلك من نعمة الله عليه وإحسانه إليه ، وروينا عن نبينا ﴿ﷺ وآله﴾ : (فضلت على آدم عليه السلام بخصلتين : كانت له زوجه عونا له على المعصية ، وأزواجى عونا لى على الطاعة ، وكان شيطانه كافرا ، وشيطانى مسلما لا يأمرنى إلا بخير) [2] فعد ذلك ﴿ﷺ وآله﴾ فى فضائله .

وإذا كانت المرأة حسنة الوجه ، خيرة الأخلاق ، سوداء الحدقة والشعر ، كبيرة العين بيضاء اللون ، محبة لزوجها ، قاصرة الطرف ، فهذه على صورة الحور العين ، قال ﴿ﷺ وآله﴾ : (خير نسائكم التى إذا نظر إليها الرجل سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته فى نفسه وماله) [3] .

النساء على أوصاف النفس:

واعلم ان النساء على أوصاف النفس ، فمن عرف صفات النفس عرف بها أوصاف النساء ، ومن قاسهن بالتجربة والخبر عرف بذلك صفات النفس ، فمنهن المسولة وهى أدناهن، ومنهن الأمارة بالسوء وهى أشرهن ، لا تستتر من الأذى ، ولا تنأى عن خلق السوء ، ومنهن بمنزلة النفس اللوامة وهى من صالح النساء ، ومنهن المطمئنة المرضية وهذه هى الصالحة الخيرة الساكنة الراضية .

من وصايا بعض العرب لأبنائهم :

وأوصى بعض العرب بنيه فقال : لا تنكحوا من النساء ستا : أنانة ، ولا منانة، ولا حنانة ، ولا حداقة ، ولا براقة ، ولا شداقة . تفسير ذلك ؛ الأنانة : التى تعصب رأسها كثيرا

---

(1) سورة الأنبياء آية ٩٠ .

(2) رواه الخطيب فى التاريخ عن ابن عمر رضى الله عنهما ، وقد روى مسلم عن ابن مسعود : " ما منكم من احد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وأنا ، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم ، ولا يأمرنى إلا بخير " .

(3) أخرج النسائى عن أبى هريرة نحوه بسند صحيح ، وقال : " ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها " وعند أحمد : "فى نفسها وماله " ولأبى داود نحوه عن ابن عباس بسند صحيح ، وقد رواه الغزالى فى الإحياء ج ٢ ص٣٩ .

وتكثر الأنين والتوجع والتشكى . والمنانة : هى التى تمن على زوجها تقول : فعلت بك وفعلت و أنا أفعل وأفعل . والحنانة تكون على وجهين : تكون ذات ولد من غيره فهى تحن إليه ، وقد تكون ذات زوج قبله فيحن قلبها إليه . والحداقة هى التى تومى بحدقتها فتشترى كل شئ وتطالب زوجها بما تشتهيه من كل شئ ، وقد تلحظ الرجال كثيرا كما يلاحظ بعض الرجال النساء . والبراقة تحتمل تأويلين : أحدهما أن تكون غضوبا فى الطعام فتبرق لقلته أو لسوء خلقها ، ولا تكاد البراقة للمأكول تأكل إلا وحدها لشرهها ، وهى أيضا تستقل نصيبها من كل شئ ، وهذه لغة يمنية ، يقال : قد برقت المرأة وبرق الصبى الطعام إذا غضب عليه ، والوجه الثانى من البراقة أن تكون من البريق ، تكثر صقال وجهها وخضابه فتتصنع فى بروقه أبدا . و أما الشداقة : فهى التى تشدق بكثرة الكلام ، وتكون زربة اللسان مفوهة فى النطق .

وقال بعضهم : لا تنكح من النساء أربعاً وأنكح من سواهن ، المختلعة ، والمبارية ، والعاهر ، والناشر . فالمختلعة : هى التى تطلب الخلع من زوجها من غير ما بأس وهو مع ذلك . يحبها .والمبارية : المباهية لغيرها المفاخرة بأسباب الدنيا ، التى تطلب من زوجها ما تباهى بها غيرها وتفتخر به على نظائرها . والعاهرة : الفاجرة التى تعرف بخليل أو خدن ، المذكورة فى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ (1) . والناشر : التى تعلو على زوجها فى الفعال أو المقال وفصل الخطاب .

السر فى أن الله تعالى أباح الجمع بين الأربع :

إن كان صلاح قلب العبد واستقامة حاله فى العزبة فلا أعدل بالوحدة شيئاً ، لأن أقل ما فيها السلامة ، والسلامة فى وقتنا هذا فضيلة وغنيمة ، وإن تاقت نفسه على التزويج و لم يأمن دواعى الهوى فليتزوج إذا أدى إلى سلامة دينه ، وإن لم تتم كفايته بواحدة ،ضم إليها أخرى ، فإن لم تكن بهما غنيمته وتمام حاله وتحصينه زاد ثالثة ، إلى أربع ، فإن الأربع مع توقان النفس إلى النكاح وقوة شهوتها فى التنقل فى المناكح بمترلة الواحدة ، وإن الواحدة مع وقوع الكفاية ووجود الاستغناء تنوب على الأربع .

كذلك خير الله عز وجل صورة النفس فيما عليه جبلتها ، وفاوت بين الطبائع فيما عليه جعلها ، يقال إن الله عز وجل أباح الجمع بين الأربع ، لأجل الطبائع الأربع لكل طبيعة وحدة على

(1) سورة النساء آية ٢٥ .

قدر حركاتها وتوقان النفس عندها ، ولا نقص على العبد فى ذلك إذا قام بما عليه لهن ،أو سمحن بحقوقهن من النفقة والمبيت له ، بل ذلك مزيد له ودلالة على قوته وتمكنه فى الحال . وهذه طرائق الأقوياء والأئمة من الرجال . وقد شرط الله تعالى مع الزوجة الواحدة ثلاثة شروط ، إن وجدت كان بها كفاية العبد وسكنت بها نفسه ، وكان ذلك من آيات الله الدالة عليه ، وإن لم توجد الشروط الثلاثة مع الواحدة كان له المزيد عليها إلى الرباع ، وكُنَّ فى المعنى كالواحدة لعدم الشروط التى أخبر الله عز وجل بسكون النفس عندها ، وعند الأربع توجد الشروط فى قلوب المؤمنين لا محالة كما أخبر عز وجل ،وكان ذلك أيضا من آياته وحكمته الدالة عليه ، فقال سبحانه : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) [١] فإن وجد العبد سكون النفس ، ورحمة القلب ، والمودة فى المرأة الواحدة فهو من آيات الله عز وجل ، وهى كفايته وغنيته ، وان لم يجد السكون ، ولا الرحمة ، ولا المودة إلا فى الأربع فهن حينئذ كفايته وغنيته ، والله تبارك وتعالى يغنى بالواحدة ويغنى بالأربع .

العدل بين الأزواج :

وليتوخ العدل بين أزواجه من جمع بينهن فى النفقة والكسوة والمبيت ، ولا يحيف على بعض فيقصر عن كفايتها وواجبها فى ذلك ، فقد جاء فى الحديث : (من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى – وفى لفظ آخر : فلم يعدل بينهما – جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل) [٢] ولا عدل عليه فى المحبة أو الجماع– لأن ذلك لا يملك– إذا سوى فى البيتوتة، ولا عليه أن يجامع من بات عندها، إنما عليه المبيت ليلة وليلة، وفى تفسير قوله تعالى :﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [٣] قال : لن تقدروا على العدل بينهن فى الحب والجماع ، لأن ذلك فعل الله عز وجل فى القلوب وفى شهوة النفس .

وروينا عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه كان يقسم بين نسائه فى العطاء والمبيت ، وكان يقول: (اللَّهُمَّ هَذَا جُهدى فيما أَمْلِكُ ، ولا طاقةَ لى فيما تملك ولا أَملِكُ) يعنى فى المحبة والجماع ،

---

(١) سورة الروم آية ٢١.

(٢) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان عن أبى هريرة ، قال أبوا داود وابن حبان : ((فمال مع إحديهما)) وقال الترمذى : ((فلم يعدل بينهما)) وقد أورده الغزالى فى الإحياء ج ٢ ص ٤٨ .

(٣) سورة النساء آية ١٢٩.

فكان يحب بعضهن أكثر من بعض ، وكانت عائشة رضى الله عنها أحبهن . وكان يطاف به ﴿ ﷺ وآله﴾ محمولا فى مرضه فى كل يوم وليلة فيقول : (أَيْنَ أَنَا غَداً) ففطنت امرأة منهن فقالت : إنما يسأل عن يوم عائشة رضى الله عنها ، فقلن : يا رسول الله ، إنه ليشق عليك أن تحمل ، فقد أذنَّا لك أن تكون فى بيت عائشة رضى الله عنها ، فقال : ((قد رضيتن بذلك ؟ قلن نعم ، قال : فحولونى إلى بيت عائشة)) [1] فلذلك كانت تقول : (قُبضَ فى بيتى وبين سحرى ونحرى) تفتخر بذلك .

ثم قال الله عز وجل : ﴿ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ [2] يعنى على واحدة دون الأخرى فى التقصير والنفقة ﴿ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ [3] أى : موقوفة كأنها لا ذات زوج ولا مطلقة ، أى : لا أيم فتتحمل لنفسها ، ولا ذات زوج ينفق عليها فتستغنى بزوجها . فعليه أن يقسم بينهن أيامه ولياليه، فيكون عند كل واحدة يوما وليلة إلا أن تهب لصاحبتها ليلتها ، أو تسمح له بذلك ، فكذلك كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقسم بين نسائه ، فأراد أن يطلق سودة [4] بنت زمعة لما كبرت فوهبت ليلتها لعائشة ، وسألته أن يقرها على الزوجية لتحشر فى نسائه فتركها ولم يكن يقسم لها فكان يقسم لعائشة ليلتين ولسائر أزواجه ﴿ ﷺ وآله﴾ ليلة ليلة ، [5] إلا أنه عليه الصلاة والسلام لشدة عدله ، كانت نفسه إذا تاقت إلى واحدة ليلا فى غير ليلتها أو نهاراً فى غير يومها أتاها فجامعها ،ثم طاف فى ليلته على سائرهن ، وكذلك كان يفعل فى يومه ، فمن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها وغيرها أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ طاف على نسائه فى ليلة واحدة .

ومن لم يكن له إلا واحدة استحب له أن يفضى إليها بعد كل ثلاث ليال بمنزلة من له أربع نسوة ، فيباشرها فى الليلة الرابعة ، فإن علم أن حاجتها إلى أكثر من ذلك كان عليه أن يفعل ما هو أقرب لتحصنها وأثبت لعفافها ، وإن علم منها كراهة ذلك وقلة همتها له لم يكن عليه

([1]) رواه ابن سعد فى الطبقات من رواية محمد بن على بن الحسين .

([2]) سورة النساء آية ١٢٩ .

([3]) سورة النساء آية ١٢٩.

([4]) هى أم المؤمنين سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القريشية العامرية ، تزوجت قبل الرسول ﷺ من ابن عمها السكران بن عمرو وكان مسلماً ، وهو من مهاجرة الحبشة ، توفيت فى شوال سنة ٥٤ هـ .

([5]) هذا الحديث رواه أبو داود من حديث عائشة رضى الله عنها ،وللطبرانى أيضاً قريب من هذه الرواية ، وعند البخارى بلفظ : "لما كبرت سودة وهبت يومها لعائشة ... " وللبيهقى مرسلاً مثله .

الإفضاء إليها إلا فى كل شهر مرة ، أو فى كل سنة مرة ، وعليها ألا تمنعه ليلا ولا نهاراً فى كل وقت ، وإن كانت صائمة فلا يحل لها أن تصوم إلا بإذنه .

وتزوج علىٌّ عليه السلام بعشر نسوة ، وتوفى عن أربع وسبع عشرة سرية ، وتزوج الحسن بن علىّ عليهما السلام مائتين وخمسين امرأة ، وقيل : ثلاثمائة ، وتزوج المغيرة بن شعبة [1] بثمانين امرأة ، وقد كان فى الصحابة رضى الله عنهم من له الثلاث والأربع ، وكثير منهم لا يحصى كانت له اثنتان لا يخلو منهما .

ويقال : إن كثرة النكاح من شدة غض البصر وقطع المشى فى الأثر ، إذا خشع الطرف وقصر عن الحرام وانقطع المشى على الأرض غاض البصر فى النفس فاتسع فى الحلال ، وذلك لأن للنفس استراحات إلى مجانسها هو فتورها عن الذكر ، فاستراحات نفوس المتقين إلى المباح ، من ذلك قوله عز وجل : ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [2] وهذا سكون النفس إلى الجنس لما تلائمه من الصفات المجانسة ، وهو أحد المعانى فى قول علىّ عليه السلام : (رَوِّحُوا ٱلْقُلُوبَ) يعنى فى الذكر ، قيل : روحوها باستراحة النفس إلى المباح ، يعنى ذكر الآخرة لأن الذكر أثقال ، وهو بمعنى قول النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ (إِنَّ لِكُلِّ عَالِمٍ شَرَهاً وَفَتْرَةً فمن كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدِ ٱهْتَدَىَ) [3] والشَّرَه :المكابدة ، والفترة: الوقوف والاستراحة .

وقد كان النساء قديما على غير وصفهن الآن ، كان الرجل إذا خرج من مترله تقول له امرأته : يا هذا ، وتقول له ابنته : يا أبانا لا تكسب اليوم شيئا من غير حله فيدخلك النار ، فنكون نحن سببه ، فانا نصبر على الجوع والضر ولا نكون عقوبة لك . وأراد رجل من السلف أن يغيب عن أهله فى غزوة فكره إخوانه ذلك لأنسهم به ، فجاءوا إلى أهله فقالوا : لم تتركين زوجك يسافر ولا يدع لك نفقة ويغيب عنك ولا تدرين متى يقدم ؟ فقالت : زوجى منذ عرفته أكال ،

([1]) هو الصحابى الجليل أبو محمد المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود الثقفى الكوفى ، أسلم عام الخندق ، كان موصوفاً بالدهاء والحلم ، ولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه البصرة مدة ، ثم نقله عنها فولاه الكوفة ، شهد اليمامة وفتح الشام ، وذهبت عينه يوم اليرموك ، وشهد القادسية ، توفى سنة ٥٠ هـ .

([2]) سورة الأعراف آية ١٨٩ .

([3]) هذا الحديث رواه الطبرانى عن ابن عمر ، وأخرجه البيهقى ولفظه: " ان لكل عمل شرة ، ولكل شرة فترة ، فمن كانت فترته إلى سنتى فقد اهتدى ، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك " وله روايات أخرى ، منها " لكل عامل شرة ، ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنتى فقد أفلح " .

وما عرفته قط رزاقا ، يذهب الأكال ويبقى الرزاق ، ومع ذلك فلا أحب ان أكون مشئومة عليه أقطعه عن سبيل الخير.

ما يستحب للرجل إذا أراد التزويج :

واستحب للرجل إذا أراد التزويج أن يشرح حاله ويبين أخلاقه للمرأة حتى تكون على بصيرة من أمره ، ويقين من حاله ، ويدخل على اختيار منها فذلك من الورع ، وقد فعله بعض السلف ، وقد تزوج رجل على عهد عمر رضى الله عنه وكان يخضب بالسواد ، فلما دخل بامرأته نصل خضابه فظهرت شيبته ، فاستعدى أهل المرأة وقالوا : نحن حسبناه شابا ، فأوجعه ضربا وقال : غررت بالقوم ، وفرق بينهما . وروى عن شعيب ابن حرب لما أراد أن يتزوج قال للمرأة : إنى سئ الخلق ، فقالت يا هذا ، أسوا خلقا منك من يحوجك إلى سوء الخلق .

ومن خشى على نفسه الآفات ووفق له امرأة فيها بعض الخصال المحمودة فالتزوج له أفضل ، فليكن له حينئذ فى التزوج نيات ، لأنه من أكبر الأعمال، ولا يكون نكاحه لأجل هواه مجردا ، ولتكن نيته إقامة سنة، وصلاح قلبه ، وسلامة دينه، وغض بصره ، وتحصين فرجه فقد أمر بذلك ، ويحتسب فى الكسب على العيال المثوبة من الله عز وجل ، ويحتسب فى مثل ذلك فى نصحه لها فى أمر الآخرة كما يحبه لنفسه حتى يؤجر بسببها مثل ما يثاب لنفسه،فهو من النصيحة لها والإشفاق عليها،وليجعل ذلك لوجه الله سبحانه وتعالى ، فقد روى عنه ﴿ﷺ وآله﴾ : (ما أنفق الرجل على أهله فهو له صدقة ، وإن الرجل ليؤجر فى رفع اللقمة إلى فم امرأته) ومنها أنه كالمجاهد فى سبيل الله ، وروى عنه ﴿ﷺ وآله﴾ : (من حسنت صلاته ، وكثرت عياله ، وقل ماله ، و لم يغتب المسلمين ، فهو معى فى الجنة كهاتين) [١] وفى حديث آخر : (إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال) [٢] ومن النية فى ذلك أن الاهتمام بمصلحتهم والغم على نوائبهم زيادة فى حسناته ، لأنه عمل من أعماله . وفى الخبر (إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله تعالى بالهم ليكفرها) [٣] وقد روينا (إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الهم بطلب المعاش) [٤] .

---

(١) أخرجه أبو يعلى عن سعيد الخدرى .

(٢) أخرجه ابن ماجة عن عمران بن حصين .

(٣) رواه أحمد عن عائشة رضى الله عنها إلا أنه ذكر بدل كلمة :(الهم) كلمة : (الحزن) .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الوسط ، وأبو نعيم فى الحلية ، وكذلك رواه الخطيب فى التلخيص المتشابه عن أبى هريرة .

وله فى الصبر عليهن وجميل الاحتمال لأذاهن وفى حسن العشرة لهن مثوبات وأعمال صالحات ، وربما كان موت العيال عقوبة للعبد ونقصان حظ ، إذا كان الصبر عليهم والإنفاق مقاما له ، فكان عدم ذلك مفارقة لحاله وفى ذلك نقصان .

وإنما كره الأهل والولد لأجل الشغل بهم عن الله تعالى ، وما يقرب إليه سبحانه ، فإذا كان من لا أهل له ولا ولد مشغولا ببطالته عن الله عز وجل ، منهمكا فى شهواته عن سبيل هؤلاء ، كان أسوا حالا من ذى الأهل والولد . وقد روى فى الخبر : (إن من أهل النار الضعيف الذى لا دين له ، هو فيكم تبع لا يبغى أهلا ولا مالا) قيل : هم السؤال المنهمكون فى المسألة ، الذى همه بطنه لا يبالى كيف طلب ، ولا على أى حال من الفحش تقلب ، فمن لم يشغله أهله وماله عن الله عز وجل ، كان أفضل ممن لا أهل له ولا ولد فهو عبد بطنه وفرجه ، أسير هواه وشهوته .

وقد اخبر الله تعالى أن للمؤمنين أموالا وأولادا ، ثم أمرهم ألا يشغلهم ذلك عن الله عز وجل ، وقد وصف أقواما أن بيعهم وتجارتهم لا تشغلهم عن عباداته ، وإنهم أهل خوف من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار .

فإن عزم العبد على النكاح فلا يكون همه من النساء إلا ذات دين وصلاح وعقل وقناعة ، فلا تخلص له النيات التى ذكرناها آنفا إلا على هذه القواعد ، قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: (تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها ، فعليك بذات الدين) (1) وفى حديث آخر : (من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها ، ومن نكحها لدينها رزقه الله عز وجل مالها وجمالها) (2) وروينا أيضا : (لا تنكحوا المرأة لجمالها فلعل جمالها يرديها ، ولا لمالها فلعل مالها يطغيها ، وانكحوا المرأة لدينها) (3) فنكاح المرأة للدين والصلاح طريق من الآخرة ، والرغبة فى المرأة الناقصة الخلق ، الدنيئة الصورة ، الكبيرة السن من باب الزهد . وكان مالك بن دينار (4) يقول : يترك أحدهم أن

---

(1) متفق عليه من حديث أبى هريرة ، وأورده البخارى بلفظ : " تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك " كتاب النكاح باب الأكفاء فى الدين ، ورواه عن أبى هريرة .

(2) هذا الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس ، ورواه ابن حبان فى الضعفاء ، إلا ان رواية الطبرانى تخالف المذكورة هنا لفظا ولكنها تتفق معها فى المعنى .

(3) هذا الحديث أخرجه ابن ماجة من حديث عبد الله بن عمرو .

(4) هو أحد علماء الزهاد ، كان من التابعين ، سمع الحسن البصرى وسعيد بن جبير ، قال النسائى : هو ثقة . توفى سنة ١٢٣ هجرية .

يتزوج يتيمة فيؤجر فيها ، إن إطعمها أو كساها تكون خفيفة المؤنة ، ترضى باليسير ، ويتزوج بنت فلان وفلان – يعنى أبناء الدنيا – فتشتهى الشهوات عليه وتقول : اكسنى ثوب كذا ، واشـــتر لى مرط حرير ، فيتورط فى دينه .

واستحب له أن ينظر إلى وجهها قبل التزويج بها والى ما يدعوه إليها ، فـــان ضـــم إلى الوجه الكفين فلا بأس بذلك ، ففى النظر إلى الوجه أحاديث مأثورة منها قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إذا أوقع الله عز وجل فى قلب أحدكم خطبة امرأة فلينظر إليها ليرى منها ما يـــدعوه إليهـــا) [١] وفى الحديث الآخر : (إن فى أعين الأنصار شيئا فإذا أراد أحدكم ان يتزوج منهم فلينظـــر إلـــيهن ولا يغالى فى المهر) فقد تزوج رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث البيت [٢] وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينهى عن المغالاة لمهور النساء ويقول : مـــا تزوج رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ امرأة من نسائه ولا زوج على أكثر من أربعمائة درهـــم [٣] وعـــن عائشة رضى الله عنها : كانت مهور أزواج رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ اثنتى عشرة أوقية ونصـــفا ، وقد كان يزوج أصحابه عليه الصلاة والسلام على وزن نواة من ذهب [٤] ، والنواة صغيرة وهـــى نواة التمر الصيحانى ، يقال : قيمتها خمسة دراهم ، ففى الخبر عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أبركهن أقلهن

---

(١) هذا الحديث أخرجه ابن ماجة من حديث أحمد بن مسلمة ، وللترمذى وقال حديث حسن ، والنسائى وابـــن ماجة من حديث المغيرة بن شعبة : أنه خطب امرأة فقال النبى ﷺ : " انظر إليها فانه أحـــرى أو يـــؤدم بينكمـــا " وأوردة الغزالى فى الأحياء ج٢ ص ٢٩ .

(٢) هذا الحديث رواه أبو داود الطياسى والبراز من حديث أنس ، وهذه الزوجة هى أم سلمة ، وله روايات من طرق أخرى .

(٣) رواه الأربعة من حديث عمر ، وقال الترمذى حسن صحيح .

(٤) متفق عليه عن انس : أن عبد الرحمن بن عوف تزوج على ذلك ، وتقويمها بخمس دراهم ، وقد رواه أيضا البيهقى ، وأورده الغزالى فى إحياء علوم الدين ج٢ ص ٤٠ .

مهرا) [1] وأيضا عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ (من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها – يعني الـولادة – ويسر مهرها) [2] قال عروة : وأقول إن من شؤمها كثرة صداقها .

أسس المعاملة والسلوك بين الزوجين :

ولا يصلح للمتزوج أن يسأل: أي شئ للمرأة ؟ ولا يحل له ان يدفع شيئا ليأخذ أكثـر منه ، ولا يحل لهم أن يهدوا إليه شيئا ليضطروه أن يكافئ بأكثر منه ، وليس عليه أن يزيد بأكثر من قيمته إن كافأ ، وله ألا يقبل هديتهم إن علم ذلك منهم ، وهذا كله بدعـة فى النكـاح ، وهـى كالتجارة فى التزويج ، وهو داخل فى الربا ، وهو يشبه القمار ، ومن زوج أو تزوج على هذا بهذه النية فهى نية فاسدة ، وليس نكاحه هذا للدين ولا للآخرة ، وكان الثورى [3] يقول : اذا تـزوج الرجل وقال : أى شئ للمرأة ؟ فاعلم أنه لص فلا تزوجوه .

ولا ينكح إلى مبتدع ولا فاسق ولا ظالم ولا شارب خمر ولا آكل الربا ، فمن فعل ذلك فقد ثلم دينه وقطع رحمه ، و لم يحسن الولاية لكريمته لأنه ترك الإحسان ، وليس هؤلاء أكفاء للحرة المسلمة العفيفة ، قال بعض السلف: (النكاح رق ، فلينظر أحدكم عند من يـرق كريمتـه) [4] . وقال بعضهم : لا تنكح إلا الاتقاء فإنه إن أحبـها أكرمهـا ، وإن أبغضـها أنصـفها ، وقـال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم) ولا نكاح إلا بولى وشـاهدى عدل وإن كانت ثيبا ، فإن لم يكن ولى فالسلطان ولى من لا ولى له ، أو من ولاه الحكم ، كذلك كانت السنة .

---

(1) رواه أبو عمر التوقانى فى معاشرة الأهلين من حديث عائشة :" إن أعظم النساء بركة أصبحهن وجوها واقلهن مهرا " وقال : حديث صحيح : وأخرج ابن حبان عن ابن عباس :" خيرهن أيسرهن صداقا " .

(2) رواه احمد والبيهقى عن عائشة :" من يمن المرأة أن تتيسر خطبتها وان يتيسر صداقها وان يتيسر رحمها " قال عروة : يعنى الولادة ، وإسناده جيد .

(3) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى الكوفى ، وهو من تابعى التابعين ، ولد سنة ٩٧ هـــ ، اتفق العلماء على وصفه بالبراعة فى العلم والفقه والحديث والورع والزهد ، رحل إلى البصرة وبهـا تـوفى سـنة ١٦١هـ .

(4) رواه أبو عمر التوقانى فى معاشرة الأهلين موقوفا على عائشة وأسماء ابنتى أبى بكر . قال البيهقى وروى ذلك مرفوعا .

تحصيل ما يلزم للزوجين من العلم :

وليتعلم المتزوج علم الحيض واختلاف أوقاته وزيادته و نقصانه ، وأحكام الاستحاضة من ذلك ، وعلم وقت الإطهار ليعلمها ذلك ، وليغنيها بذلك عن السؤال والظهور إلى الرجال ، ثم ليعلم أهله علم ما لا يسعهم جهله من الفرائض وأحكام الصلاة وشرائع الإسلام واعتقادات المؤمنين من السنة وما عليه من مذهب الجماعة ، فإذا فعل ذلك لم يكن عليها أن تخرج إلى العلماء ، وان قصر عن علمها علم التوحيد ومبانى الإسلام وعقود الإيمان ومذهب أهل السنة ، فلها أن تخرج إلى السؤال عما لا يسعها جهله ، وليس لها ان تخرج بغير إذنه لطلب علم يرجى فضله .

تحرى الكسب الحلال :

وليس للمرأة أن تحمل زوجها على المكاسب الحرام ، ولا تكلفه ما يقترف به الآثام ، ولا للرجل أن يدخل فى مداخل السوء، ولا يبيع آخرته بدنياه ، فإن صبرت معه على البر والتقوى أمسكها ، وإن حملته على الإثم والعدوان فارقها ،﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ﴾ [(1)] .ويقال : أول من يتعلق بالرجل يوم القيامة زوجته وولده ، فيوقفونه بين يدى الله عز وجل ، فيقولون : يا ربنا خذ لنا حقنا من هذا ، فإنه ما علمنا ما نجهل ، وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم ، قال : فيقتص لهم منه . وفى خبر : (إن العبد ليوقف للميزان وله من الحسنات أمثال الجبال ، فيسأل عن رعاية عياله والقيام بهم ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، حتى تستفرغ تلك المطالبات جميع أعماله ، فلا يبقى له حسنة ، فتنادى الملائكة : هذا الذى أكل عياله حسناته فى الدنيا ، وارتهن اليوم بأعماله) [(2)] . قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) [(3)] فأضاف سبحانه الأهل إلى النفس ، وأمرنا أن نقيهم النار بتعليم الأمر والنهى ، كما نقى أنفسنا النار باجتناب النهى ، وجاء فى تفسير ذلك : علموهن وأدبوهن . وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالمرأة راعية على مال زوجها وهى مسئولة عنه ، والرجل راع على أهله وهو مسئول عنهم) [(4)]

([1]) سورة النساء آية ١٣٠

([2]) أورده الغزالى فى الإحياء ج ٢ ص ٣٣

([3]) سور ة التحريم آية ٦ .

([4]) رواه ابن عمر ، وقد أخرجه الشيخان وهو متفق عليه .

ويقال : إذا أنفقت المرأة من مال زوجها بغير إذنه لم تزل فى سخط الله عز وجل حتى يأذن لها : والخبر المشهور : (كفى بالمرء إثما ان يضيع من يعول) [1] ولا يحل للزوجة ان تطعم من منزل زوجها إلا الرطب الذى يخاف فساده ، فإن أطعمت وأنفقت عن إذنه ورضاه كان لها مثل أجره ، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر .

طاعة الزوجة لزوجها :

وينبغى أن يعرفها أعظم حقه عليها فى مقام الوالدة بقوله للمرأة : عليك بطاعة زوجك ، فإنه جنتك ونارك ، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة) [2] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، دخلت جنة ربها) [3] فأضاف طاعة الزوج إلى أبنية الإسلام التى لا يدخل الجنة إلا بها ، واشترط طاعته لدخولها . وذكر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ النساء فقال : (حاملات والدات مرضعات رحيمات بأولادهن ، لولا ما يأتين إلى أزواجهن دخلت مصلياتهن الجنة) [4] وفى الخبر الجامع لفضائل الزوج أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : (لو أمرت أن يسجد لشئ سوى الله عز وجل لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) [5] من عظم حقه عليها .

ومن حقه ألا تعطى شيئا من بيته إلا بإذن زوجها ، فإن فعلت ذلك كان الإثم عليها والأجر له . ومن حقه ألا تصوم تطوعا إلا بإذنه ، فإن فعلت جاعت وعطشت ولن يقبل منها . ومن حقه ألا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، فإن فعلت لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيتها أو تتوب . وينبغى أن تعرض نفسها عليه فى كل ليلة . وفى حديث : (إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها

---

(1) رواه أبو داود والنسائى بلفظ : " كفى بالمرء إثما يضيع من يقوت " وهو عند مسلم بلفظ آخر .

(2) أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب . وأخرجه ابن ماجة من حديثه .

(3) أخرجه ابن حبان عن أبى هريرة .

(4) أخرجه ابن ماجة والحاكم وصححه عن أبى إمامة ، ولكنه لم يذكر قوله : " مرضعات " ولكن الطبرانى ذكرها فى المعجم الصغير .

(5) أخرجه الترمذى وابن حبان عن أبى هريرة ، وكذلك أبو داود عن قيس بن سعد ، وابن ماجة عن عائشة ، وابن حبان عن ابن أبى أو فى .

الشيطان) [1] فإن أمرها بما يصلحها مما أبيح لها فخالفته وعظها وزجرها ، فإن عـادت لخلافـه هجرها فى المضجع ، فبعض العلماء يقول : يوليها ظهره ، وبعضهم يقول : يعتزل فراشها من ليلة إلى ثلاث إلى سبع ليال ، فإن لم ينجح فيها ذلك و لم تبال به ضربها ، والعلماء يقولون : ضربا غير مبرح ، وتفسيره أنه لا يكسر لها عظما ولا يدمى لها جسما . وله أن يغضب عليها فى الأمر مـن أمور الدين من عشرة أيام إلى شهر ، فقد غضب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى كلام كلمـه بعـض أزواجه ، فأرسل بهدية إلى بيت زينب فردتها عليه ، فقالت له التى هو فى بيتها : لقـد أقمتـك إذ ردت عليك هديتك ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : (أنتن أهون على الله أن تقمئننى) ثم غضـب علـيهن كلهن شهرا . ومعنى أقمتك : استصغرتك وأذللتك .

ولا ينبغى أن يقتر على أهله بالإنفاق ، فقد روى عنه ﴿ﷺ وآله﴾ : (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى) [2] .

رفق الزوج بزوجته :

إن كان من أهل زلة أو هفوة احتمل ذلك ، ورفق بها و لم يعسفها ، ففى الحـديث : (خلقت المرأة من ضلع أعوج إن قومته كسرته ، وإن تركتها استمتعت بها على عوج) [3] وفى لفظ حسن : (وكسرها طلاقها) .

وقد كان أزواج النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يراجعنه القول ، وتهجره إحداهن يوما إلى الليـل ، ودفعت إحداهن فى صدره فزجرتها أمها ، فقال : (دعيها فإنهن يصنعن أكثر من هذا) وجرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين عائشة رضى الله عنها كلام ، حتى أدخل أبا بكر رضى الله عنه بينـهما حكما واستشهده ، فقال لها رسول الله، ﴿ﷺ وآله﴾: (تكلمين أو أتكلم ؟ قالت : بل تكلم أنت ولكن لا تقل إلا حقا) فلطمها أبو بكر رضى الله عنه حتى دمى فوها وقال : (أى عدوة نفسها ، أو يقول غير الحق ؟ بل أنت وأبوك تقولان الباطل ولا يقول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلا حقـا)

([1]) رواه الترمذى وقال حسن صحيح ، ورواه ابن حبان عن ابن مسعود .

([2]) أخرجه الترمذى عن عائشة وصححه، وله رواية أخرى أوردها الترمذى عن أبى هريرة " خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائى "

([3]) متفق عليه من حديث أبى هريرة ، ولفظ البخارى :" فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شئ فى الضلع أعلاه ..... " ولفظ مسلم : " إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك " .

نصرة لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وغضبا له ، حتى استجارت بالنبى ﴿ﷺ وآله﴾ وقعـدت خلـف ظهره ، فقال له النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : (لَمْ نَدْعُكَ لهذَا ، وَلَمْ نُرِدْ هَذَا مِنكَ) [١]

وقالت له مرة فى كلام : أنت الذى تزعم أنك نبى ،فتبسم رسـول الله ﴿ﷺ وآلـه﴾ حلما وكرما [٢] ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لعائشة رضى الله عنها : (إنى لأعرفُ غضَبَكِ من رِضَاكِ ، قالت : وكيف تعرفُ ذلك ؟ قال : إن رضيت قلت لا وإله محمد ، وإذا غضبت قلت لا وإله إبراهيم ، قالت : صدقت ، إنما أهجر اسمك) . وقد كان ﴿ﷺ وآله﴾ يمزح مع أزواجه ، ويقاربهن فى عقولهن فى المعاملة والأخلاق ، وفى الخبر : (كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من أفكـه الناس مع نسائه) . وقال لقمان الحكيم : العاقل فى بيته ومع أهله كالصبى ، فإذا كـان فى القـوم وجد رجلا ، وفى تفسير الخبر المروى : (إن الله يبغض الجعظرى الجواظ) [٣] قيل : هو الشـديد على أهله ، المتكبر فى نفسه .

الغيـــــرة :

روينا فى الخبر: (غيرة يبغضها الله عز وجل ، غيرة الرجل على أهله فى غير دينـه) ، كأنه يكون من سوء الظن الذى نهى الله ورسوله عنه ، وروينا عن على عليه السلام : (لا تكثـر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك) ولعمرى ، إن الغيرة لها حد فإذا جاوزها الرجل قصر عن الواجب وزاد على الحق . وقد كان الحسن يقول : (أتدعون نساءكم يـزاحمن العلـوج فى الأسواق ؟ قبح الله من لا يغار) . وقد قال ابن عمر رضى الله عنهما ، عـن رسـول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (لا تمنعن إماء الله مساجد الله) [٤] فقال بعض ولده بلى والله نمنعهن ، فضربه وغضـب عليه وقال : تسمعنى أقول : قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لا تمنعوهن وتقول بلى نمنعهن ؟ وقد قال

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط والخطيب فى التاريخ عن عائشة رضى الله عنها ، وأورده الغزالى فى الإحياء ج٢ ص ٤٣

(٢) أخرجه أبو يعلى فى مسنده وأبو الشيخ فى الأمثال عن عائشة .

(٣) رواه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق عن أبى هريرة .

(٤) متفق عليه عن ابن عمر .

الله تعالى : ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قدرا ﴾ [١] . وقال بعض الحكماء من جاوز الشئ فمذموم كمن قصر عنه .

فلا باس بالحرة العفيفة أن تخرج لشئ لا بد لها منه من قضاء حوائجها ، قال ﴿ﷺ وآله﴾ : (أذن لكن أن تخرجن فى حوائجهن) وكذلك تخرجن فى الأعياد خاصة ، أطلق ذلك لهن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ [٢] ، ولكن لا تخرجن إلا بإذن أزواجهن وعن رضاهم ، ولا يخرجن أيضا إلا فيما يعنى مما لا بد منه ، وألا يراهن رجل فهو أفضل لهن وأصلح لقلوبهن ، وروينا أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال لابنته فاطمة عليها السلام : (يا ابنتى أى شئ خير للمرأة ؟ فقالت : ألا ترى رجلا ولا يراها رجل ، فضمها إليه وقال : ذرية بعضها من بعض) [٣] وكان أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يسدون الثقب والكواء فى الحيطان لئلا يطلع النسوان .

احتمال الهفوات والصبر على الأذى :

وهو مأجور على احتماله هفوات أهله وصبره على أذاهن ، ومثاب على حسن عشرتهن . وقال محمد بن الحنفية [٤] رضى الله عنه : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا ومخرجا . فإن كانت بذيئة اللسان ، قليلة القبول ، عظيمة الجهل ، كثيرة الأذى فطلاقها أسلم لدينهما ، وأروح لقلوبهما فى عاجل دنياه وآجل آخرته ، وقد شكا رجل إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بذاء امرأته فقال له : (طلقها ، فقال : إنى أحبها ، قال : أمسكها إذن) فخشى عليه تشتت همه بفراقها مع المحبة ، وتشتت الهم أعظم من أذى الجسم . وفى معنى قوله عز وجل :

﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [٥] قال ابن مسعود : إذا بذت على أهلها وآذت زوجها فهو فاحشة ، وهذا يعنى به العدة لأن الله تعالى يقول :

---

(١) سورة الطلاق آية ٣ .

(٢) ورد حديث الإذن بالخروج للنساء عن أم عطية ، وهو متفق عليه .

(٣) رواه البزار والدار قطنى فى الأفراد عن على .

(٤) هو محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، واسم أمه : خوله من سبى بنى حنفية ، ولد فى خلافة عمر بن الخطاب ، وهو من كبار التابعين ، توفى حوالى ٧٣ هـ .

(٥) سورة الطلاق آية ١ .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ [1] فهو متصل بقوله : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾[2] أى : فى العدة .

الطلاق مباح إلا أنه مكروه بغير سبب :

من الناس من يظن أن الطلاق محظور يتأول هذه الآية على غير تأويلها ، فالطلاق مباح إلا انه مكروه بغير سبب لتفرقة الألفة ، وقد روى فى خبر : (ما أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق) [3] . ولا بأس أن تفتدى المرأة من زوجها إذا خافت ألا تقيم حدود الله فيه ، ولا تقوم بواجب حقوقه عليها ، وأكره أن يأخذ الفدية أكثر مما أعطاها ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾[4] وهذا هو الخلع [5] الجائز عند أكثر العلماء . ولا يحل لامرأة أن تسأل زوجها طلاقها ولا أن تخلع منه بغير رضاه ، قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أيما امرأة سالت زوجها طلاقها من غير باس لم ترح رائحة الجنة) [6] وقال : (المختلعات هن المنافقات) [7] .

النشـــــــوز :

النشور قد يكون من الزوجين معا ، إلا أنه أبيح للزوج ضربها فى النشوز ، وأبيح لها الصلح فى نشوز الزوج ، قال الله عز وجل : (وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) [8] وأصل النشوز أن يعلوا أحدهما على على صاحبه ويرتفع عنه ، كأن يجفو عليه ويجتنبه فيكون فى نحو غير نحوه ، فيكون من هذا الكلام

---

(1) سورة الطلاق آية ٦ .

(2) سورة الطلاق آية ١

(3) أخرجه الحاكم عن ابن عمر ، وقال حديث صحيح الإسناد .

(4) سورة البقرة أية ٢٢٩ .

(5) الخلع هو ان تفتدى المرأة نفسها بمال ليخلعها به زوجها ، فإذا فعلا لزمها المال ووقعت تطليقة بائنة ، ويكره ان يأخذ منها شيئا إن كان هو الناشز .

(6) رواه أبو داود والترمذى وقال حسن ، ورواه ابن ماجة وابن حبان عن ثوبان .

(7) رواه النسائى عن أبى هريرة .

(8) سورة النساء آية ١٢٨ .

الفاحش ، ويكون منه الأذى ، ويكون منه الهجر والانفراد . ويحكم الحكمان فى هذا أحدهما من أهله والآخر من أهلها ، يعدلون وينظرون فيما بينهما . وقد وعد الله عز وجل الغنى مع الفرقة كما وعده سبحانه مع النكاح فقال : (وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ) [1] كما قال تعالى : (وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ) [2] فقد يكون الغنى بالمال ، ويكون بأن يستغنى كل واحد منهما عن صاحبه بما خصه الله من خفى لطفه ، وجاء فى خبر : (ثلاث لا يستجاب دعاؤهم : رجل له امرأة سوء يقول : أراحنى الله منك ، وقد جعل سبحانه الطلاق بيده إن شاء طلق ، والآخر فى المملوك السوء ، وجار السوء) .

حسن العشرة :

ليحسن الرجل عشرة أهله والقيام بهن ، فقد قال تعالى : (فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً) [3] أى : لا تطلبوا طريقا إلى الفرقة ولا إلى خصومة أو مكروه ، وهذه حينئذ على صورة الأنفس المطمئنة إذا استجابت للإيمان وطوعت لك إلى أخلاق المؤمنين ، فتولها من الإرفاق وأرفق بها مثالها من المباح . وقد شبه الله عز وجل حسن القيام على الزوجة بحسن القيام على الوالدين فقال فيهما : (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) [4] وقال سبحانه فى أمر النساء : (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [5] ثم أجمل سبحانه فى النساء ما فرقه من حق الزوج فى كلمة واحدة فقال : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [6] وقال فى عظيم حقهن : (وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا) [7] وقال عز وجل : (وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ) [8] قيل : هى المرأة .

([1]) سورة النساء آية ١٣٠ .

([2]) سورة النور آية ٣٢ .

([3]) سورة النساء آية ٣٤ .

([4]) سورة لقمان آية ١٥ .

([5]) سورة النساء آية ١٩ .

([6]) سورة البقرة آية ٢٢٨.

([7]) سورة النساء آية ٢١ .

([8]) سورة النساء آية ٣٦ .

وآخر ما أوصى به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه ، جعل يقول : (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم مالا يطيقون ، والله الله فى النساء فإنهن عوان فى أيديكم – يعنى أسرى – أخذتموهن بعهد الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله)[1] وسئل ﴿ﷺ وآله﴾ : ماحق المرأة على الرجل ؟ قال : (يطعمها إذا طعم ، ويكسوها إذا اكتسى ، ولا يقبح الوجه ولا يهجر إلا فى البيت)

وينبغى أيضا إذا أراد النكاح أن يتعلم ما تحتاج إليه المرأة من حسن العشرة والقيام بما لها عليه ، وجميل المداراة ، ولطف المفاوضة ، ويعلمها حسن قيامها بما يجب له عليها ، ويعرفها ما أوجب الله عليها من ذلك .

الزوج سيد زوجته :

لا تملك المرأة شيئا من أمرك ،فإن الله عز وجل قد ملكك إياها ، فلا تقلب بهواك حكمة الله فينقلب الأمر عليك ، فكأنك قد أطعت العدو ووافقته فى قوله : (وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ)[2] وقال تعالى : (وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً)[3] يعنى النساء والصبيان ، ومنه قوله ﴿ﷺ وآله﴾ : (تعس عبد الزوجة) لأنه إذا أطاعها فيما تهوى دخل تحت التعس ، فكأنه قد بدل نعمة الله كفرا ، لأن الله عز وجل جعله سيدها فى قوله تعالى : (وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ)[4] يعنى زوجها ، ولا تعودها عادة فتجترئ عليك وتطلب المعتاد منك ، فهى على مثال أخلاق النفس سواء ، إن أرسلت عنانها جمحت بك ، وإن ارضيت عنانها فترا جذبتك ذراعا ، وإن شددت يدك عليها وكبحتها ملكتها و فلعلها أن تطوع لك .

من وصايا بعض العرب لبناهم :

كان نساء العرب يعلمن أولادهن اختبار أزواجهن ، كانت المرأة إن أنكحت ابنتها قالت : يا بنتى اختبرى زوجك و قبل أن تقدمى عليه انزعى زج رمحه ، فإن سكت لذلك قطعى

---

(1) أخرجه النسائى فى السنن الكبرى ، وأخرجه ابن ماجه عن أم سلمة .

(2) سورة النساء آية ١١٩ .

(3) سورة النساء آية ٥ .

(4) سورة يوسف آية ٢٥ .

اللحم على ترسه ، فإن أقر فاكسرى العظام بسيفه ، فان صبر فاجعلى الإكاف على ظهره وامتطيه ؛ فإنما هو حمار .

وأوصى أحد حكماء العرب ابنته ليلة زفافها فقال : يا بنية ، قد كانت والدتك أحق بتأديبك منى لو كانت باقية ، وأما الآن فإنى أحق بتأديبك من غيرى ، افهمى عنى ما أقول : إنك قد خرجت من العش الذى فيه درجت ، وصرت إلى فراش لا تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، كونى له أرضا يكن لك سماء ، وكونى له مهادا يكن لك عمادا ، كونى له أمة يكن لك عبدا ، لا تلحفى به فيقلاك ، ولا تتباعدى عنه فينساك ، إذا دنى فاقربى منه ، وإن ناى فابتعدى عنه ، واحفظى أنفه وسمعه وعينه لا يشم منك إلا طيبا ، ولا يسمع إلا حسنا ، ولا ينظر إلا جميلا ، واكرهى العزل كراهية شديدة ، فإنه دقيقة من الشرك الخفى ، وفيه نهى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

حكم العـــــزل :

كرهه جماعة من السلف الصالح ، و لم يكن خيار المتقين يعزلون ، وأقل ما فيه الخروج من التوكل على الله عز وجل ، وقلة الرضا بحكم الله تعالى ، وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : العزل هو الموءودة الصغرى . فلقوله هذا استنباط حسن من السنة ، وذلك أنه روى عن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى فضائل الجماع : (إن الرجل ليجامع أهله فيكتب له من جماعة أجر ولد ذكر قاتل فى سبيل الله عز وجل ، فقيل له : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ فقال : أنت خلقته ؟ أنت رزقته ؟ أنت هديته ؟ إليك محياه ؟ إليك مماته ؟ قالوا : بل الله خلقه ورزقه وهداه وأحياه وأماته ، قال : فأنت تراه فى هذا المعنى) يقول : إذا جامعت فأمنيت فى الفرج وقد قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾[1] فإذا لم يخلق الله من منيك خلقا ، حسب لك أنه قد خلق منه ذكرا على أتم أحواله وأكمل أوصافه ، بأن يقاتل فى سبيل الله فيقتل ، لأنك قد جئت بالسبب الذى عليك وليس عليك خلقه ولا رزقه ولا هدايته ، وإنما يقدر على ذلك الله عز وجل ، وهو فعله مجردا ، فكان لك أجر ما للو فعله الله تعالى ، إذ قد أتيت بما أمكنك عمله ، فلذلك قال ابن عباس : (هو الموءودةُ الصُّغرى) لأنه يوجد بالعزل عدم هذا الفضل إذ كان العبد سبب عدمه ، لأنه لم يفعل ما يتأتى منه الولد ، فذهب فضله وحسب عليه قتله .

([1]) سورة الواقعة آية ٥٨ــ ٩٥ .

العزل دقيقة من الشرك الخفى :

إنما قلنا : إن العزل دقيقة من الشرك الخفى ، لأن أهل الجاهلية كان سبب قتلهم بناتهم معانى ، أحدها خشية العار بهن ، ومنها كراهة الإنفاق عليهن ، ومنها الشح وخوف الفقر والإملاق ، وكانت العرب تقول : من كان له أحد الحوبات الثلاث لم يشرف عشيرته ، و لم يسد قومه ، يعنون بالحوب : الأم والأخت والبنت ، والحوبات :

جمع حوبة ، وهى كبيرة ، قال الله تعالى : فى أكل أموال اليتامى : ﴿ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[1] وعندى : ليس هذا الذى قلتم عندكم . وكان من خيار التابعين المؤمنين من يستحب له الجمع بين هؤلاء الثلاث : الأم والأخت والبنت ، لما فيهن من عظيم المثوبة والفضل ، ليخالف بذلك سنة الجاهلية ، فقد توجد هذه المعانى أو بعضها فى العزل ، فلذلك سميناه شركا خفي وكرهناه .

وهو مذهب الخوارج من النساء كأن فيهن تقذر وتعمق من استعمال كثرة الماء للطهارة ، ودخول الحمامات ومجاوزة الحد فى الطهور ، وكن أيضا يقضين الصلاة أيام الحيض ، ويصمن فى حيضهن ، ولا يصلين فى ثياب الحيض حتى يغسلنها ، ولا يدخلن الخلاء إلا عراة . وكانوا يكرهون الولادة طلبا للنظافة وكراهة للتقذر ، خلافا لسنة نساء العرب ، ابتدعوا هذه البدع ففارقوا بها سنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وسنن نسائه ، من أنباط العراق وأهل النهر ، وكان بعضهن استأذن على عائشة رضى الله عنها لما قدمت البصرة فلم تأذن لهن فى الدخول عليها .

وأيضا فإن الله تعالى ندب إلى اتخاذ الولادة بقوله تعالى : ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ ﴾ [2] قيل : الولد ، وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة) [3] وقوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (خير نسائكم الودود الولود) [4] وقوله : (سوداء ولود خير من حسناء لا تلد) [5] ومن بركات المرأة أن تيسر رحمها أحوج ما يكون إلى الجماع إذا

---

(1) سورة النساء آية ٢.

(2) سورة البقرة آية ٢٢٣ .

(3) أخرجه أبو بكر بن مردويه فى تفسيره عن ابن عمر بلفظ : (تناكحوا تكثروا) .

(4) أخرجه البيهقى عن ابن أبى أديه الصدفى ، وقال البيهقى : وروى بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسلا .

(5) أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .

طهرت من الحيض ، وفى هذا الوقت أكثر ما يعبر النساء بالحمل ، وأحمد ما يكون المولود عاقبة إذا علق به بعد الطهر ، فلهذه المعانى عقب الله عز وجل الأمر بالجماع والولد بعد الطهر فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ (١) ولأضدادها فى الكراهة والذم أمـــر الله تعـــالى باعتزال النساء فى المحيض . ويقال : أن كل من كان مجنونا أو مجذوبا أو مختلا أو فى حالة أو معتلا مخبلا وذلك لأن غرسه كان فى سبخة من الأرض فلم يزرع و لم يزك ، ومن زرع من حرث طيب زكا زرعه وهو الغشيان فى الطهر ، فلذلك قال : (مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ) وقد رخص بعضهم فى العزل رخصة عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكان سعد يعزل .

العزل هو الموءودة الصغرى :

قد أنكر علىٌّ عليه السلام على ابن عباس رضى الله عنه فى قوله : إن العزل هو الموءودة الصغرى ، وقال إنها لا تكون موءودة إلا بعد سبع ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ﴾ (٢) أنها ذكرت بعد سبع ، ثم تلا قوله عز وجل آية أطوار الخلقة : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً .... ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ (٣) أى : فى نفـــخ الروح فيه ، قال فلا يكون موءودة مقتولة إلا بعد هذا السبع الخصال ، ولأن الله عز وجل ذكرهـــا فى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾(٤) بعد سبع معان ، ثم جمع بينهما فى الفهم فاستنبط ذلك ، وهـــذا من دقيق العلم ، وغامض الفهم ، ولطيف الاستدلال الذى تفرد به عليه السلام لثقـــوب علمـــه ، ونفاذ فطنته ، وخفى استدلاله .

الجماع والطهارة :

فلا يجامعهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن يعنى بالماء ويكره الجماع مستقبل القبلة لحرمـــة القبلة، وفى الخبر (إذَا جامعَ أحدُكم أهلَهُ فلا يتجرَّدَا تجرُّدَ العِيرَيْن) (٥) يعنى الحمارين ، وروينا أن

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٢.

(٢) سورة التكوير آية ٨ .

(٣) سورة المؤمنون آية ١٢ – ١٤ .

(٤) سورة التكوير آية ١ .

(٥) أخرجه ابن ماجه عن عتبة بن عبد .

رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كان إذا جامع غطى رأسه وخفض صوته وقال للمرأة : (عليك بالسكينة) [1] ومن جامع مرة وأراد العود فليغسل فرجه قبل ذلك ، فإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول ،فإن جامع بعد احتلام من غير غسل خيف على ولده إن كان من جماعه أن يصيبه لمم من الشيطان ، ويكره الجماع فى أول الليل لئلا ينام على غير طهارة ، فإن الأرواح تعرج إلى العرش فما منها طاهر أذن له فى السجود ، وما كان جنبا لم يؤذن له ، والرؤيا أيضاً على طهارة من غير جنابة وعلى وضوء أصح وأفضل ، إلا أن يغتسل ثم ينام ، فإن لم يغتسل وجامع فلا ينام ولا يطعم حتى يتوضأ وضوءه للصلاة [2] وقد جاء رخصة فى النوم بعد الجماع من غير أن يمس ماء ، فعله رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ [3] وأنا أكره أن يحلق الرجل رأسه ، أو يقلم ظفره أو يستحد أو يتور أو يخرج دما وهو جنب ، فإن العبد يرد عليه جميع شعره وظفره ودمه يوم القيامة ، فما سقط منه من ذلك وهو جنب رجع إليه جنبا ، وقيل طالبته كل شعرة بجنابتها .

ولا يحل للرجل من امرأته إلا الفرج لا غير على أى حال شاء ، ومن جامع فليستمهل على أهله ، وليتوقف حتى تقضى هى نهمتها كما قضى هو نهمته ، فربما أخر إنزال المرأة بعد الرجل فيكون ذلك كريها إليها ، فإن علم أنها قد سبقت بالشهوة فلم يحتج إلى توقف ، وليس يخفى سبقها بالشهوة على فطن . وأوفق ما يكون الجماع بينهما إذا اتفقت الشهوتان منهما معا ، وأكثر ما يكون التباغض بين الزوجين لاختلافهم من طبع الإنزال ، يكون طبعه سابقا لطبعها أيضاً . وكان بعض الحكماء الأدباء لا يتأخر عن المرأة حتى يستأمرها فى ذلك .

وينبغى أن يعلمها ،لأن المرأة إذا بلغت واحتلمت يجب عليها الغسل كما يجب على الرجل ، فإن فى ذلك سنة ، لأن أم سليم [4] سألت عن ذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأمرها بذلك

---

(1) رواه الخطيب عن أم سلمة .

(2) وذلك لحديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قلت للنبى ﷺ : أينام أحدنا وهو جنب ؟ قال : (نعم ، إذا توضأ) وهذا الحديث متفق عليه .

(3) لحديث عائشة رضى الله عنها : (كان رسول الله ﷺ - ينام جنبا لم يمس ماء) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه .

(4) هى الصحابية الجليلة أم أنس بن مالك رضى الله عنهما ، وكانت أم سليم وأختها خالتين للرسول ﷺ من جهة الرضاع ، وكانت من فقيهات المسلمات .

،وقال :(نِعْمَ النساءُ نِسَاءُ الأنصارِ ، لاَ يَمْنَعُهُنَّ الحياءُ أن يَتَفَقَّهْنَ فى الدينِ) [1] وإذا كانت المـرأة حائضا اتزرت بمئزر صغير من حقويها [2] إلى أنصاف الفخذين ، وكان له المتعة بجميـع جسـدها كيف يشاء إلا تحت المئزر . واستحب للرجل إذا دخل فى لحافها أن يتزر بحقو صغير فى وسطه وهو المئزر لئلا يتجرد عريانا ، فإن هذا من الأدب ، ويضاجع الرجل الحائض كيف شاء ، وتناوله مـا شاء ، ويؤاكلها ، ولا يجانبها فى شيء من الأشياء إلا الجماع فى الفرج .

حكم الطلاق والتحليل :

ينبغى للمتزوج أن يعرف حكم الطلاق ، فإن عرض له الطلاق طلق واحدة واحـدة فى طهر لا جماع فيه ، لأن التطليقة الواحدة إذا انقضت عدة المرأة منها بحيض أو أشهر تعمل عمـل التحريم بالثلاث سواء ، إلا أنه يربح فى التطليقة الواحدة أربع خصال : إحداهما : موافقة الكتـاب والسنة ، والثانية : تيسير العدة عليها ، والثالثة : سرعة خروجها منها ، فخروجها مـن الطـلاق محتسب من الطهر الذى طلقها فيه من غير جماع ، والرابعة : هو أنه إن ندم على طلاقها كان لـه رجعتها فى العدة ، من غير إحداث عقد ثان ولا مهر آخر ، وإن أحب رجعتها بعد انقضاء العـدة كان له تزويجها ثانية من غير زواج ثان تحدثه .

وهذا كله معدوم مع الثلاث دفعة واحدة ، وموجود فيه التحريم ، وإن ندم لم يجعل الله له مخرجا ، لأنه لا تحل له إلا بعد زوج ، ويخسر العبد خروج المرأة من يده ،فإن ابتلى يهواها يحتاج لانتظار فراغ الزوج الثانى ، أو التجأ أن يعمل فى تزويجها لغيره فيكون محللا لنفسه ومفسدا لنكاح الثانى بالتحليل فيقع فى ثلاث معان من المعاصى و (قد لعن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ المحلّلَ والمحلـل له) [3] وقال بعض العلماء : إن نكاح الأول بعده على التحليل لا يجوز أيضاً ، وهذا كلـه ثمـرة الجهل ومخالفة السنة وقد قال الله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [4] ثم قال سبحانه : ﴿ لاَ تَدْرِي

([1]) أخرجه البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : (نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين) كتاب العلم ، باب الحياء فى العلم .

([2]) الحقو : هو الخصر .

([3]) هذا الحديث رواه أحمد والنسائى والترمذى وصحيحه عن ابن مسعود مرفوعاً

([4]) سورة الطلاق آية ١.

لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ [1] يعنى ندماً من المطلق ، فإذا كان قد طلق تطليقة واحـــدة أو اثنين حلت له من العدة من غير عقد وبعد انقضائها بغير زوج ، ثم قال : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ [2] أى : يتق الله فيطلق فى العدة ، يجعل له مخرجا فى جواز الرجعة كما ذكرناه . ومـــن طلق ثلاثا مرة واحدة أو طلق فى الحيض وقع الطلاق ، وحرمت المرأة و لم تحل له إلا بعد أن تتزوج غيره ، وبذلك يكون قد خالف السنة ووافق كراهة الأئمة بآثار قد كثرت فى ذلك عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وعن عمر وابنه ، وأبى بن كعب ، وزيد ابن ثابت ، وابن عباس ، وجملـــة مـــن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وورثته والتابعين .

﴿ تم بعون الله وحسن توفيقه ﴾

([1]) سورة الطلاق آية ١.

([2]) سورة الطلاق آية ٢.

فهرس الكتاب

الموضوع **الصفحة**

فاتحة الكتاب
إلتماس الطبعة الأولى
مقدمة
الباب الأول : الدين
تعريف الدين
حكم اختصاص الإنسان بتحمل الأمانة
القوة التي لا تفارقه
القوة المفارقة
عناية الله تعالى بالإنسان
إن الدين عند الله الإسلام
حكمة إنزال الكتب السابقة
الدين الجامع
الباب الثاني : أسس الدين الإسلامي
المبحث الأول : في العقيدة
الغرض من دراسة علم التوحيد
طريقة تعليم العقيدة
علم التوحيد
العقيدة التي يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها
الآثار كنوز لم تفك رموزها
كيف يبلغ العقل والنفس درجة الإيمان الكامل؟
العقيدة المأخوذة من كتاب الله تعالى وبيان رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾
المبحث الثاني : تقديس الله تعالى
١- الوجود
معنى صفة الوجود

الموضوع	الصفحة
الإيمان سابق العلم	
٢- القدم	
٣- البقاء	
٤- مخالفته تعالى للحوادث	
حقيقة بديهية	
٥- قيامه تعالى بنفسه	
٦- الوحدانية	
التوحيد هو رأس المال	
ذنوب من كمل التوحيد فى قلوبهم	
ميزان التوحيد	
تقديس الجناب المقدس عما لا يليق به سبحانه	
أهل الملكوت	
صفات المعانى السبعة	
١- القدرة	
فوق الأنوار أسرار	
٢- الحياة	
٣- العلم	
أنوار صفة العلم	
٤- الإرادة	
كمال اليقين بمعانى إرادة الله	
٥ ، ٦- السمع والبصر	
٧- الكلام	
مزيد بيان فى صفة الكلام لله سبحانه وتعالى	
المبحث الثالث : من علوم القرآن	
تلاوة القرآن حق تلاوته	

الموضوع	الصفحة

المختصر للإيجاز
المبدل المضمر
المكنى المضمر
المبدل المختصر
المنقول المنقلب
المضمر المختصر
المبدل منه
الموصول المكرر
المكرر المؤكد
المكنى المبهم المشتبه
الموحد ومعناه الجمع
الجمع المراد به الواحد
الجمع المكنى
المقدم والمؤخر والمعطوف المضمر
نبهنا بيسير على كثير
أهل الله وخاصته
معاملة العبد فى التلاوة
وصف التالين للقرآن
المبحث الرابع : فى النبوات
الإنسان إجمالا
حكمة بالغة
الرسل أنوار تضيء لمن هداهم الله
معرفة خاتم الأنبياء
نسبه الشريف ونشأته ﴿ﷺ وآله﴾
دعوته ﴿ﷺ وآله﴾د

الموضوع	الصفحة

دلائل نبوته ﴿ ﷺ وآله﴾
أمداده ﴿ ﷺ وآله﴾ بأنواع المعجزات
مقابلة معجزاته ومعجزات الرسل السابقين
جمعه للمعارف والعلوم
من خصائصه وكراماته وباهر آياته
معجزات الرسل هى بعض ما أمده به خاتم الأنبياء
من أعظم معجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ القرآن المجيد
العجز عن الإتيان بمثل أقصر سورة
القرآن الكريم دعوة وحجة
العصمة
العصمة للأنبياء بعد الوحى والعناية قبله
الرسل عليهم الصلاة والسلام أفضل من الملائكة
الرد على من يقول بغير هذا
الإنسان الكامل كعبة الأرواح العالية
الكرامات الباهرة
عقيدة المؤمن
كثائف الظلمات
رفعة الإنسان بالإسلام
الأصل الذى أسس عليه الدين
الباب الثالث : العبادات
الفصل الأول : تعريف العبادة وأقسامها والغرض منها
تعريف العبادة
أقسام العبادة
١- العبادة علم وعمل
٢- الواجب والمندوب

الموضوع	الصفحة
٣- العلوم من حيث الكيفية	
الغرض من العبادة	
بيان الأمراض والأنجاس التى لا يمكن إزالتها إلا بالشرع	
النجاسات المخلوقة فى ذات الإنسان وعلاجها	
الفصل الثانى : بيان فى العبادات	
١- الصلاة	
أولا : المحافظة على الطهارة	
ثانيا : المحافظة على سنن الصلاة وأعمالها	
ثالثا : المحافظة على روح الصلاة	
فرار المصلى إلى الله وهو هى صلاته	
أسرار وأحوال وأنوار	
٢- الزكاة والصدقة	
المحافظة على الزكاة والصدقة	
كشف شىء من رموز الزكاة	
تزكية النفس	
٣- الصيام	
الصوم عبادة وشفاء وتزكية	
مقدار الصوم وأسراره	
٤- الحج	
من مشاهد الحج	
أعمال الحج	
آداب الحج	
أسرار الحج	
الباب الرابع : المعاملات	
معاملة النساء وآداب عشرتهن	

الموضوع	الصفحة
الإنسان مفطور على الضرورة والمثنوية	
النكاح فرض مع الحاجة وسنة على الكفاية	
ترك التزوج أفضل للمريد	
نكاح الأمة خير من العنت	
كراهة الاستمناء وتحريمه	
فضل النكاح والندب إليه	
النساء على أوصاف النفس	
من وصايا بعض العرب لأبنائهم	
السر فى أن الله تعالى أباح الجمع بين الأربع	
العدل بين الأزواج	
ما يستحب للرجل إذا أراد التزويج	
أسس المعاملة والسلوك بي الزوجين	
تحصيل ما يلزم الزوجين من العلم	
تحرى المكسب الحلال	
طاعة الزوجة لزوجها	
رفق الزوج بزوجته	
الغيرة	
إحتمال الهفوات والصبر على الأذى	
الطلاق مباح إلا أنه مكروه بغير سبب	
النشوز	
حُسن العشرة	
الزوج سيد زوجته	
من وصايا بعض العرب لبناهم	
حكم العزل	
العزل دقيقة من الشرك الخفى	

الموضوع **الصفحة**

العزل ليس هو المؤودة الصغرى

الجماع والطهارة

حكم الطلاق والتحليل

تطلب مؤلفات الإمام المجدد

السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام

من مكتبة دار الكتاب الصوفى

تليفون **3901030 022 002**

١١٤ش مجلس الشعب

فى جانب تفسير القرآن :

١- هذا السفر الجليل " أسرار القرآن ".

٢ تفسير سورة القدر.

فى جانب العقيدة :

١- كتاب عقيدة النجاة .

٢- كتاب الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها.

فى جانب العلوم الفقهية:

١- كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ﷺ وآله﴾.

٢- صيام أهل المدينة المنورة.

٣- هداية السالك إلى علم المناسك .

فى جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين:

١- سيرة النبى ﴿ﷺ وآله﴾

٢- وسائل إظهار الحق .

فى جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :

١- النشأة الثانية.

٢- الوسيلة وما إختلف فيه من السنة والبدعة.

٣- الشفاء من مرض التفرقة.

٤- الجفر.

٥- تحذير الدين من بيع أراضى فلسطين.

٦- النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين.

٧- الرد على نظرية دارون.

فى جانب الأخوة الإسلامية :

١- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾.

٢- الإسلام وطن والمسلمون جميعا أهله.

فى جانب المناسبات الدينية :

١- السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج

٢- بشائر الأخيار فى مولد المختار

٣- مشارق البيان فى فضائل شعبان

٤- لبيك اللهم لبيك.

فى جانب المسرحيات الدينية :

١- محكمة الصلح الكبرى.

٢- العالم والتاجر والفلاح.
٣- المقتصد والمسرف والفاسد.
٤- السياسى والحكيم والغشيم.
٥- الصالح واللص والسكرى.

فى جانب الصلوات والأدعية :

١- نيل الخيرات بملازمة الصلوات.
٢- الفتوحات الربانية والمنح النبوية فى الصلاة على خير البرية.
٣- الأدعية والاستغاثات الكبرى.

فى جانب التصوف :

١- شراب الأرواح من فضل الفتاح.
٢- تذكرة المرشدين والمسترشدين.
٣- معارج المقربين.
٤- الطهور المدار على قلوب الأبرار.
٥- من جوامع الكلم.
٦- الطريق إلى الله تعالى.
٧- الفرقة الناجية.
٨- دستور السالكين طريق رب العالمين.
٩- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك.
١٠- مصطلحات الصوفية
١١- آداب أل العزائم
١٢- دروس تزكية النفوس
١٣- موارد أهل الصفا

١٤- قبس من المضنون

١٥- الصوفية والتصوف

فى جانب المواجيد:

١- مواجيد شهر محرم، صفر، ربيع أول، ربيع آخر، جماد أول، جماد آخر، رجب، شعبان، رمضان.

٢- المواجيد العزمية فى مواجهة الروضة الحسينية.

٣- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب.